

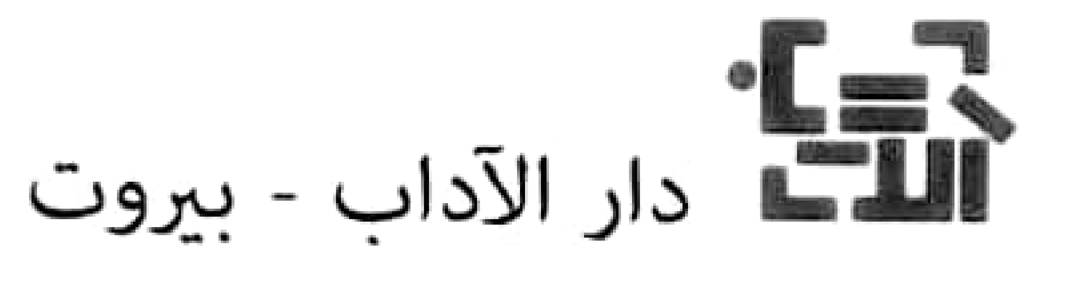
مَاريز كونْدي
أنَا تيتُوبا
ساحرة سالم السّوداء
رواية
ترجمَة: محَمّد آيت حنَّا
دار الآداب

ماريز كونّدي

أنَا تيتوُبا

ساحرة سالم السوداء

رواية



دار الآداب - بيروت

تيتوبا وأنا، عشنا في صحبةٍ حميمةٍ مدَّة عامٍ. وأثناء حواراتنا التي لم تكن تنقضي، باحت لي بهذه الأمور التي لم تبُح بها لأحد.

ماريز كوندي

Death is a porte whereby we

pass to joye;

Lyfe is a lake that drowneth

all in payne(1)

John Harrington

جون هارينغتون

(شاعر بيوريتانيّ من القرن السادس عشر)

I

- 1 -

أبِنا، أمّي، اغتصبها بحّارٌ إنجليزيّ على جسر سفينة عيسى الملك ، في أحد أيَّام سنة **١٦، في أثناء إبحارهم صوب جزيرة باربادوس. ومن ذاك الاعتداء، وُلدتُ أنا. من فعل الكراهية والمهانة.

ولمَّا وصلوا، أسابيعَ طويلةً بعد ما وقع، إلى ميناء بريدجتاون، لم ينتبه أحدٌ لحالِ أمِّي. ولأنَّها قطعًا لم تكن تتجاوز ستّ عشرةَ سنةً، ولأنَّها كانت حسناءَ ببشرتها السوداء سوادَ حجر الكهرمان، وأعلى عظمتَي وجنتيْها ندوبٌ وشومٍ قبَليّة، فقد اشتراها بثمنٍ باهظٍ مزارعٌ ثريٌّ اسمُه دارنيل ديفيز. واشترى معها رجُليْن، هما أيضًا، كأمِّي، من قبائل الأشانتي، ومن ضحايا الحروب بين قبائل الفانتي وقبائل الأشانتي. وجَّهَ الرجلُ أمِّي لخدمةِ زوجته التي لم تستطع أن تسلو إنجلترا، فكانت حالتها البدنيَّة والنفسيَّة تستلزم عنايةً على الدوام. كان يحسب أنَّ في وسع أمِّي أن تغنِّي لها وترقص، وتمارس تلك الألاعيب السحريَّة التي كان يظنُّ الزنوجَ مولعين بها. ووجَّهَ الرجلَيْن إلى مزارعه المزدهرة بقصب السكَّر، وحقول تبغه.

جنيفر، زوجة دارنيل ديفيز، لم تكن تتجاوز أمِّي عُمرًا. وقد زُوِّجت إلى هذا الرجل الفظّ الذي كانت تكرهه، الرجل الذي كان يتركها مساءً وحيدةً ويذهب ليشرب، الرجل الذي كان يجرُّ خلفَه نسلًا من اللقطاء. فكان أن ألَّفت الصداقةُ بين جنيفر

وأمِّي. ففي نهاية المطاف، لم تكونا سوى طفلتيْن ترتعبان من زئير الحيوانات الكبيرة الليليَّة ومسرح الظلال الوهَّاجة، ومن أشجار الكاليباسييه والمابو بالمزارع. كانتا تنامان في فراشٍ واحدٍ، وبينما تُلاعب أمِّي بأصابعها ضفائرَ صاحبتها الطويلةَ، كانت تحكي لها حكاياتٍ حكتها لها أمُّها في أكوابين، القرية التي أبصرت فيها النور. كانتا تستدعيان إلى سريرهما قوى الطبيعة كلَّها راجيتَيْن أن تُبعد عنهما مصَّاصي الدِّماء، فلا يأتونهما ويفرغونهما من الدم قبل أن يطلع النهار.

حين انتبه دارنيل ديفيز إلى حمل أمِّي، استشاط غضبًا مفكِّرًا في كمِّ الجنيهات الإسترلينيَّة التي أنفقها في شرائها. ها هو سيصير الآن مسؤولًا عن تكاليف امرأةٍ عليلةٍ وعديمة النفع! رفض الانقياد إلى توسُّلات جنيفر، وعقابًا لأمِّي، سلَّمها إلى أحد الأشانتيَّيْن اللذيْن كان قد اشتراهما معها في الوقت نفسه: ياو. زِدْ على أنَّه قد منعها من أن تضع قدميْها مرَّة أخرى داخل المنزل. ياو كان محاربًا، لم يستسغ التحوُّل إلى زارع قصبٍ، يقطِّعه ويحمِّله إلى المطحنة. لذا، مرَّتيْن حاول قتل نفسه بمضغ جذورٍ سامَّة. أنقذوه في آخر لحظة، وأعادوه إلى حياةٍ يكرهها. وبمنحه صاحبةً، كان دارنيل يأمل في أن يُعيد إليه طعم الحياة، فيعوِّض بالتالي شيئًا من خسائره. لشدَّ ما خانته الفراسة في سوق العبيد ببريدجتاون ذاك الصباح من سنة **١٦! والحصيلة: عبدان، أحدهما مات، والثاني ذو ميول انتحاريَّة.

وأبِنا حامل!

دخلت أمِّي إلى كوخ ياو قُبَيْل ساعة العشاء. كان ممدَّدًا في فراشه، شديد الكآبة ليفكِّر في الطعام، وبالكاد ينتابه الفضول تجاه هذه المرأة التي كان قد أُعلم بقدومها. وحين برزت أبِنا، قام مستندًا إلى أحد مرفقيْه، وقال همسًا: أكوابا (2).

ثم ما لبث أن تعرَّف عليها، فقال:

ـ هذه أنتِ!

انهمرت دموع أبِنا. عواصفُ كُثر تراكمت فوق حياتها القصيرة: قريتُها أُحرقت، أبواها بُقرت بطناهما وهما يحاولان الدفاع عنها، الاغتصابُ إيَّاه.. والآن، هذا الفراق القاسي مع كائن يساويها رقَّةً ويأسًا.

قام ياو واقفًا، فلمس رأسه سقف الكوخ، ذاك أنَّ هذا الزنجيّ كان طويلًا طولَ شجرة أكوما (3).

ـ لا تبكِ. لن ألمسك. لن أؤذيك. ألسنا نتكلَّم اللغة نفسها؟ ألسنا نعبدُ الإله نفسَه.

ثم خفض عينيْه إلى بطن أمّي:

ـ هوَ طفلُ السيِّد، أليس كذلك؟

دموعٌ أشدّ حرقةً، دموعُ المهانة والوجع، فارت من عينيْ أبِنا.

ـ كلَّا، كلَّا! لكنَّه طفل رجلٍ أبيضَ على أيِّ حال.

بوقفتها تلك أمامه، خافضةً رأسها، غمرت قلب ياو شفقة هائلة ورِقَّة شديدة. بدا له أنَّ المهانة التي لحقت بهذا الطفل ترمز إلى مهانة شعبه بأكمله، شعبه المقهور، المشتَّت، الذي يُباع في المزاد. مسح الدمع الذي سال من عينيْه، وقال:

ـ لا تبكِ. من اليوم، سيكون طفلك ابني. والويل لمن يقول غير ذلك.

لم تكفّ عن البكاء، فرفع رأسها إليه، وسألها:

ـ هل تعرفين حكاية الطائر الذي كان يسخر من سعف النخيل؟

رسمت أمِّي هيئة ابتسامة:

ـ وكيف لا أعرفها؟ طفلةً كانت هي قصَّتي المفضَّلة. كانت أمُّ أمِّي تحكيها لي كلّ ليلة.

ـ أمُّ أمِّي أيضًا كانت تفعل... وقصَّة القرد الذي كان يريد أن يصير ملكًا على الحيوان، فصعد قمَّة شجرة إيروكو، كي ينحني الجميع أمامه، لكنَّ غصنًا انكسر به فسقط أرضًا، وتعفَّرت مؤخّرته بالتراب..؟

ضحكت أمِّي. ولم تكن قد ضحكت منذ شهورٍ طويلة. أخذ منها ياو الصرَّة التي كانت تمسكها

بيدها، وقصد ركنًا من الكوخ يضعها فيه، ثم قال معتذرًا:

المكان تعمُّه الفوضى، لأنِّي فقدتُ طعم الحياة. كانت الحياة بالنسبة إليَّ أشبه ببركة ماءٍ قذر، وكان ينبغي أن أتفاداها. أمَّا الآن، وقد صرتِ هنا، فقد تغيَّر كلّ شيء.

قضيا ليلتهما متعانقيْن، مثل أخٍ وأخته، أو بالأحرى كأبٍ وابنته، حنونيْن متعفِّفيْن.

وانقضى أسبوع قبل أن يمارسا الحبّ.

وحين وُلدت أنا، أربعة أشهر بعد ذلك، كان ياو وأمِّي ينعمان بطعم السعادة. سعادة الأَسْرِ الحزينةَ، السعادة الهشَّة، المهدَّدة دائمًا، سعادة مصنوعة من الفتات المتعذَّر جمعه! منذ السادسة صباحًا كان ياو ينطلق إلى الحقول، حاملًا قطلسه(4) على كتفه، فيتَّخذ موضعه في الصفِّ الطويل، صفِّ الرجال المرتدينَ أسمالًا، المجرجرين أقدامهم على طول الممرّات الضيِّقة. وأثناء ذلك، كانت أمِّي تزرع في قطعة أرضها المربَّعة الطماطمَ والبامية، أو غيرهما من الخضر، وتطبخُ، وتُطعم طيرًا داجنًا. وعلى الساعة السادسة، كان الرجالُ يعودون، فتنشغل النسوة بهم.

بكت أمِّي، لأنِّي لم أكن ولدًا. كانت ترى أنَّ مصير النساء أشدّ إيلامًا من مصير الرجال. أوَليس شرطُ تحرُّرهنَّ من واقعهنَّ يظلّ رهن إرادة أولئك الذين

يستعبدونهنَّ وينامون في فراشهنَّ؟

أمّا ياو، فقد كان، على العكس من أمِّي، سعيدًا. لقد حملني بذراعيْه البارزتَي العظام، وطلا جبيني بدمِ دجاجةٍ بعدما دفن مشيمة أمِّي أسفل شجرة بمبوقاوية. ثم، ممسكًا إيَّايَ من قدميَّ، عرض جسدي على جهات الأفق الأربع.

كان هو من سمَّاني: تيتوبا. تي ـ تو ـ با.

لم يكن اسمًا أشانتيًّا. لا ريب في أنَّ ياو، باختراعه هذا الاسم، قد أراد أن يبرهن على أنَّني بنتُ إرادته خياله. بنتُ حبِّه.

سنوات حياتي الأولى كانت عادِيَة. كنتُ رضيعةً جميلةً، ريَّانةً، لأنَّ حليب أمِّي كان يوافقني. ثم تعلَّمت الكلام، والمشي. واكتشفتُ حولي العالمَ الحزين والمذهل في آنٍ. أكواخَ الطِّين الميبّس القاتمة في مواجهة السماء الشاسعة، الحِلْيَةَ العفويَّة التي تَنْظُمها النباتاتُ والأشجار، البحرَ وأغنيته المريرة في الحرِّيَّة. كان ياو يستقبل بوجهه عُرض البحر، ويهمس في أذني:

ـ يومًا ما، سوف نتحرَّر، وسوف نطير وُسعَ أجنحتِنا صوبَ بلادنا الأمّ.

ثم كان يفرك جسمي بمسحوق الطحالب المجفَّفة كي يجنِّبني الإصابة بالداء العلّيقيّ.

الحقُّ، أنّ ياو كانت لديه طفلتان، أمِّي وأنا. ذاك

أنَّه بالنسبة إلى أمِّي كان أكثر من مجرَّد عشيق، كانَ أبًا، مُنقذًا، مأوىً!

متى اكتشفت أنَّ أمِّي لم تكن تحبّني؟

ربَّما حين بلغتُ الخامسة أو السادسة من عمري.

للأسف، «خرجتُ بشكلٍ خاطئ»، أي أنِّي وُلدتُ ببشرةٍ بالكاد مَغراء، وشعر أجعدَ تمامًا، كنت لا أنفكّ أذكِّرها بالأبيض الذي اغتصبها على جسر سفينة عيسى الملك ، وسط زمرةٍ من البحَّارة المتلصِّصين الفاحشين. كنت أذكِّرها في كلِّ وقتٍ وحين بألمها ومهانتها. لذا، كلَّما كنتُ أحضنها بشغفٍ، مثلما يحبُّ الأطفال أن يفعلوا، كانت تدفعني عنها فورًا. وحين كنت أطوِّقها بذراعيّ، كانت تُسارع إلى التخلُّص من عناقي. لم تكن تنصاع إلَّا إلى أوامر ياو.

ـ احمليها على ركبتيْك. قبِّليها. داعبيها...

ومع ذلك، لم أكن أُعاني نقص حنانِها، ذاك أنَّ ياو كان يحبّني حبّ الأبويْن معًا. كَفِّي الصغيرةُ في كفِّه الصلبة القاسية. قدمي الضئيلة في أثرِ قدمِه الهائلةِ. جبيني في تجويف عنقه.

كانت الحياة تنطوي على ضربٍ من العذوبة. على الرَّغم من محظورات الإله دامِن، كان الرجالُ مساءً يعتلُّون صهوة طبول الطام ـ طام، والنساء يرفعن تنانيرهنَّ كاشفاتٍ عن سيقانهنَّ البرَّاقة.

كنَّ يرقصنَ! غير أنِّي حضرتُ، مرّاتٍ عديدة، مشاهدَ ممارساتٍ وحشيَّةٍ وتعذيبٍ. رجالٌ كانوا يرجعون بأجساد مدمَّاة، جذوعهم وظهورهم ملأى بشقوق قرمزيَّة. أحدهم مات أمام عينيّ وهو يتقيَّأ سائلًا بنفسجيًّا، ودُفن أسفل شجرة قابوق. وابتهجوا لموته، إذ هو على الأقلِّ قد تحرَّر، وسوف يسلك طريق الرجوع.

غيَّرت الأمومة، ثم خاصَّةً حبَّ ياو، أمِّي تغييرًا جذريًّا.

لقد صارت الآن شابَّةً ليِّنةً ويانعةً كزهرة نبتةِ قصب السكَّر. كانت تحزمُ جبينها بمنديلٍ أبيض في ظلِّه تبرقُ عيناها. ذات يومٍ، أخذتني من يدي كي ننبش مواضع نباتات اليام في قطعةِ أرضٍ، كان السيِّد قد تنازل عنها للعبيد. هبَّةُ نسيمٍ كانت تدفع الغيوم باتِّجاه البحر، فتتجلَّى السماءُ، وقد خلت من الغيومِ، زرقاءَ زرقةً عذبة. إنّ باربادوس، بلدي، جزيرةٌ مستوية، بالكاد تجد فيها بضعة تضاريس هنا وهناك.

كنَّا قد سلكنا دربًا يمضي ملتويًا بين نبات الثمام، وإذا بضجيجِ أصواتٍ هائجة يتناهى إلينا بغتةً. كان السيِّد دارنيل يؤدِّبُ مُشرفَ عبيدٍ. وإذ رأى أمِّي، تغيَّر تعبيرُ وجهه تغيُّرًا جذريًّا: سرى في ملامحه الرضا والدهشةُ. قال:

ـ أهذه أنت يا أبِنا؟ يبدو أنَّ الزوجَ الذي أعطيتُك قد وافقك كلّ الموافقة. اقتربي!

تراجعت أمِّي إلى الخلف بسرعةٍ حتى انقلبت السلَّة التي كانت تحملها متوازنةً على رأسها، السلَّة التي كانت تحوي قطلسًا وكالاباشَ(5) ماءٍ. انكسرت الكالاباش إلى ثلاثِ قطعٍ، وانهرق محتواها على العشب. وبرز القطلس في الترابِ، باردًا وقاتلًا؛ أمَّا السلَّةُ، فانطلقت تلفُّ على امتداد الدرب كأنَّما تفرُّ من المسرح الذي يتأهَّبُ ليشهد المأساةَ. مرعوبةً، انطلقتُ في إثر السلَّةِ، وانتهى بي المطاف إلى الإمساك بها.

حين عدتُ إلى أمِّي، كانت تقفُ لاهثةً وظهرها إلى شجرة كاليباسييه. وكان دارنيل يقف على بُعد أقلّ من مترٍ عنها. كان قد نزع قميصه، وفكَّ حزام سرواله، كاشفًا عن بياض ملابسه الداخليَّة، ويده اليسرى تفتِّشُ على مستوى عضوه. صرخت أمِّي، وهي تدير رأسها شطري:

ـ القطلس! ناوليني القطلس!

نفَّذتُ الأمر بأسرع ما استطعتُ، حاملةً النصل الهائل بيديّ الواهنتيْن. ضربَتْ أمِّي ضربتيْن. ببطءٍ، انقلبَ بياضُ قميصِ الكتّانِ إلى اللون القرمزيّ.

شنقوا أمِّي.

رأيت جسدها يلفّ متدلِّيًا من الأغصان الخفيضة لشجرة بمبوقاوية.

لقد اقترفَت الجرمَ الذي لا يُغفَر: ضربت رجلًا أبيضَ.

على أنَّها لم تقتله. ففي غمرة غضبها الأهوج، لم تستطع إلَّا أن تشقّ كتفه.

شنقوا أمِّي.

جُمعَ العبيدُ كلّهم لحضور إعدامها. وحين دُقَّ عنقها وأسلمت الروحَ، انطلق نشيد الثورة والغضب وُسعَ الصدور، فأخمده رؤساءُ الفِرَق بضربات السياط.

أمّا أنا، فمحتميةً بتنانير امرأةٍ، كنتُ أشعر بإحساسٍ يترسَّخُ، متصلِّبًا كحممٍ بركانيَّة فيَّ.. إحساسٍ لن يبرحني بعدها أبدًا: خليطٌ من الرعبِ والحِداد.

شنقوا أمِّي.

حين ترنَّحَ جسدها في الفراغ، جرُؤتُ على أن أبتعد بخطواتٍ بطيئة، وأن أنحنيَ فأتقيَّأ دونما توقُّفٍ على العشب.

وعقابًا لياو على جُرمِ رفيقته، باعه دارنيل لمزارع يُدعى جون إنغلوود، كان يقطنُ الجهة الأخرى من جبال هيلابي. وجهة لن يبلُغها ياو أبدًا، إذ تمكَّن في الطريق من أن ينتحرَ ببلع لسانه.

أمَّا أنا، فقد طردني دارنيل من مزارعه، وأنا بالكاد أبلغ السابعة من عمري.

كان من الممكن أن أموت لولا أن أنقذني تضامن العبيد الذي قلَّما يَخذلُ.

كفلتني امرأةٌ. كانت تبدو مخبولَةً، إذ شهدت موت رفيقها وولدَيْها تعذيبًا بتهمة إثارة انتفاضة. الحقّ، أنَّها بالكاد كانت تشاركنا هذا العالَم، وكانت تعيش على الدوام في صحبتهم، إذ شحذت إلى أقصى حدٍّ ملكة التواصل مع اللامرئيّين. لم تكن المرأة من الأشانتي، شأنَ أمّي وياو، وإنَّما كانت من ناغو الساحل، وقد حُوِّلَ اسمها في اللغة الكريوليَّة من يِتوندي إلى مان يايا. كان يُخشى جانبُها، لكنْ كانوا يقصدونها من بعيدٍ بسبب قِواها.

بدأَتْ بغسل جسمي في حمَّامٍ تطفو فيه جذورٌ نتنة، تاركةً الماء يسيل على امتداد أطرافي. ثم جعلتني أشربُ جرعةً من محلولٍ حضَّرتُه بنفسها، وعقدت حول عنقي عقدًا من أحجارٍ صغيرة حمراء.

ـ سوف تعانين في حياتك. كثيرًا. كثيرًا.

تلك الكلماتُ التي قذفت بي في الرعبِ، نطقتها هي بهدوء، وتكادُ تكون مبتسمةً.

ـ لكنَّك ستنجين!

لم تُرحني عبارةُ مان يايا. غير أنَّ في هيأتها المقوَّسة المجعَّدة سُلطةً، لم أجرؤ على معارضتها.

علَّمتني مان يايا المعرفةَ بالنباتات.

تلك التي تسبِّبُ النومَ. تلك التي تداوي الجروح والتقرُّحات.

تلك التي تدفعُ اللصوص إلى الاعتراف.

تلك التي تهدِّئ مرضى الصَّرَع، وتجعلهم يغوصون في راحةٍ هانئة. تلك التي تضع على شفاه الغاضبين، واليائسين، والميَّالين إلى الانتحار، كلماتٍ عن الأمل.

علَّمتني مان يايا أن أنصتَ إلى الريح حين تشتدُّ، وأن أقيسَ قوَّتها فوق الأكواخ التي تتهيَّأ لأن تسحقَها.

عرَّفتني مان يايا البحرَ. عرَّفتني الجبالَ والتلالَ.

علَّمتني أنَّ كلّ شيءٍ حيّ، كلّ شيءٍ به روحٌ، به نفَس. أنَّ كلّ شيءٍ ينبغي أن يُقدَّر. أنّ الإنسان ليس سيِّدًا يصولُ على حصانه في مملكته.

ذات يومٍ، وسطَ الظهيرة، نمتُ. وكان موسمَ الصومِ الأكبر. الحرارةُ كانت فظيعةً، والعبيدُ، مشتغلين بمعاولهم وقطالسهم، يترنَّمون أغنيةً مرهقةً. ورأيتُ أمِّي؛ لم أرَها جسدًا معلَّقًا موجَعًا ومتخلِّعًا، يتأرجح بين أوراق الشجر، وإنَّما مزدانةً بالألوان التي يخلعها عليها حبُّ ياو. صحتُ:

ـ ماما!

أتت تعانقني. إلهي! لشدّ ما كانت شفتاها

عذبتِيْن!

ـ سامحيني، لأنِّي كنت أظنّ أنَّني لا أحبّك! الآن، كُشف الحجابُ بيني وبين نفسي، ولن أتركك أبدًا!

صرختُ مذهولةً من الفرح:

ـ ياو! أين ياو؟

استدارت:

ـ إنَّه هنا، هو أيضًا!

وتجلَّى لي ياو.

هرعتُ أحكي حلمي إلى مان يايا المنشغلة بتقشير جذور وجبة المساء. ابتسمَت ابتسامةً ماكرةً:

ـ تحسبينَه إذن حُلمًا؟

لُذتُ بالصمت.

مذّاك، وضعتني مان يايا على درب معرفةٍ أرقى.

الموتى لا يموتون إلَّا متى ماتوا في قلوبنا. يظلُّون على قيد الحياة إذا ما ظللنا على حبِّهم، إذا ما كرَّمنا ذكراهم، إذا ما وضعنا على قبورهم ما كانوا يؤثِرونه في حياتهم من طعامٍ؛ وإذا ما انكفأنا على ذواتنا، على فتراتٍ منتظمة، كي

نتَّصل بذكراهم. إنَّهم هنا، حولنا، في كلِّ مكانٍ، متعطِّشون للاهتمام، متعطِّشون للحبِّ. وتكفي كلماتٌ لكي نجمعهم حولنا، فيلصقوا أجسادهم بأجسادنا، متلهِّفين على أن يقدِّموا لنا العون.

لكنْ ليحذر من يضايقهم، لأنَّهم لا يسامحون أبدًا، ويلاحقون بحقدهم الضاري أولئك الذين يُسيؤون إليهم، حتى وإن أتت الإساءة عن غير قصد.

علَّمتني مان يايا الصلوات، والابتهالات، وطرق استجلاب الشفاعة. علَّمتني كيف أتحوَّل إلى طائرٍ على الغصن، وإلى حشرةٍ في العشب اليابس، وإلى ضفدعٍ ينقّ في طين نهر أورموند كلَّما أردتُ أن أتخفَّف من الهيئة التي مُنحتُها ساعةَ ولادتي. وعلَّمتني خاصَّةً القرابينَ. الدمُ والحليبُ، عنصران سائلان ضروريَّان. واأسفًا! أيَّامًا قليلةً بعد بلوغي عيد ميلادي الرابع عشر، خضع جسدها لناموس طبيعة بني جنسها. لم أبكِ حين واريتُها الثرى. كنت أعرف أنَّني لست وحيدةً، وأنَّ ثمَّة ثلاثة أطيافٍ تحوم حولي لترعاني.

وكانت تلك الفترةُ نفسُها التي باعَ فيها دارنيل مزرعته. بضع سنواتٍ قبل ذلك، كانت زوجته جنيفر قد توفِّيت وهي تُنجبُ له ولدًا، رضيعًا سقيمًا شاحبَ البشرة، تُرْجِفُه الحمّى دوريًّا. وعلى الرَّغم من الحليب الذي كانت تغدق به عليه عبدةٌ(6) أُجبرتْ على ترك ابنِها لأجله، فإنَّ الطفل كان يبدو منذورًا للقبر. وبدا أنَّ غريزة دارنيل الأبويَّة قد استفاقت لأجل نسله الوحيد المنتمي إلى العِرْق

الأبيض، فقرَّر أن يعود إلى إنجلترا طالبًا شفاءه.

وفي خطوةٍ غير شائعةٍ، قرَّر مالك المزرعة الجديد شراءَ الأرض من دون العبيد. فكان أن سيقَ هؤلاء بأرجلٍ وأعناق مقيَّدة إلى بريدجتاون بحثًا عن مشترين، ثم شُتِّتوا في أرجاء الجزيرة، ففُرِّق بين الأبِ وابنه، والبنت وأمِّها. وبما أنَّني كنت لم أعد في ملكيَّة دارنيل، وأعيش متطفِّلةً على المزارع، فلم أُسَق مع الموكب الحزين الذي سيقَ إلى المزاد. كنت أعرف موضعًا من ضفَّة نهر أورموند لا يأتيه أحدٌ، لأنَّ أرضه كانت سبخةً ولا تزدهر فيها زراعة القصب. بنيتُ بمفردي، معتمدةً على قوَّة يديَّ، كوخًا استطعتُ أن أقيمَه على ركائز متينةً. وبصبرٍ وأناة، حصرتُ قطعةَ أرضٍ، وسوَّرتُ حديقةً، ما لبثتْ أن نمتْ فيها صنوف النباتات التي وزَّعتُها فيها بطريقةٍ طقوسيَّة، مراعيةً إرادة الشمس والهواء.

واليومَ أُدركُ: تلك اللحظات كانت أسعدَ لحظات حياتي. لم أكن قطّ وحيدةً، إذ كانت أشباحي تدور حولي، من غير أن تضغط عليَّ البتَّة بحضورها.

وضعت مان يايا اللمسَة الأخيرة على جزءٍ من تعاليمها، الجزء الخاصّ بالنباتات. بتوجيهٍ منها، كنتُ أطرقُ تجارب جريئةً، فأزوِّج زهرة الآلام ببرقوق الثور، والكيثيرا الساقَّة بالرّدندرة، والرّدندرة الكبيرة بالبرسيفيروزه. كنت أحضِّرُ مخدّراتٍ، وجرعات. أقوِّي قدراتها بفضل تعازيمَ.

مساءً، كانت سماء بيلي الأرجوانيَّة تمتدّ فوق رأسي مثل منديلٍ هائلٍ، تبرقُ فيه النجوم واحدةً بعد أخرى. وفي الصباح، كانت الشمس تجعلُ كفَّيها بوقًا تنفخ فيه لتدعوني إلى أن أهيمَ معها.

كنت بعيدةً عن الناس، وخاصَّةً منهم البيض. كنت سعيدةً! لكن، واأسفًا! تغيَّر كلّ شيء!

ذات يومٍ، هبَّت ريحٌ عاصفٌ، فهدمت الخمّ الذي كنت أربِّي فيه الطيور الداجنة، فاضطررت إلى أن أذهب في إثرِ دجاجاتي وديكي ذي الرقبة القرمزيَّة، متوغِّلةً بعيدًا عن الحدود التي كنت قد سطَّرتُها لنفسي.

عند مفرق طرقٍ، صادفتُ عبيدًا يدفعون عربةً محمَّلةً بالقصب إلى معصرة. مشهدٌ محزنٌ! وجوه ضامرة، أسمالٌ بلونِ الوحل، أطرافٌ مهزولة، شعورٌ احمرَّت من سوء التغذية. طفلٌ يعدُّ من السنين عشرًا، يعينُ والده في توجيه الحمولة، كئيبًا، منكفئًا على نفسه كراشدٍ ما عاد يؤمن في شيء.

لمرآيَ، وثب الجميعُ بسرعةٍ في العشبِ، وجثوْا على رِكَبهم، ثم رُفعت نحوي دستةٌ من العيون مرعوبةً مُوَقِّرَةً. ظللتُ أنا مذهولةً. أيّ أساطيرَ نُسجت حولي؟

كان يبدو أنَّهم يخشونني. لِمَ؟ ابنةُ امرأةٍ

مشنوقةٍ، اضطرّت إلى أن تنعزل عند حافَّة بِركةٍ! أَمَا كان حريًّا بهم الرثاء لحالي؟ أدركتُ أنَّ ما كانوا يفكِّرون به، على وجه التخصيص، هو ارتباطي بمان يايا التي كانوا يهابونها. لماذا؟ ألم تُسخِّر مان يايا موهبتَها في فعل الخير؟ فعل الخير والمزيد من الخير؟ بدا لي رعبُهم ظُلمًا. آه! كان يُفترض أن يستقبلونني بصيحاتِ فرحٍ وترحيب! بكشف الشرور كنت ألتمسُ العلاجَ. لقد خُلقتُ لكي أُشفي، لا لكي أُخيفَ. عدتُ إلى بيتي حزينةً، ناسيةً أمرَ ديكي ودجاجاتي التي لا بدَّ من أنَّها تختالُ الآن في عشبِ الدروب الواسعة.

كان ذاك اللقاء بأبناء جلدتي وخيمَ العواقب. ذاك أنِّي قرَّرت من يومها أن أقترب من المَزارع كي أكشف للناس عن وجهي الحقيقيّ. ينبغي أن تُحَبَّ، تيتوبا!

حين يخطر ببالي أنَّني أُسبِّبُ الخوفَ، في الوقت الذي أحسُّ فيه نفسي مفعمةً بالحنان والعطف! آه، أجل! وددتُ لو أنِّي أُطلقُ الرِّيح من عقالها، كما يُطلَق كلبٌ من وجاره، لتكنسَ مساكن الأسيادِ إلى ما وراء الأفق، وأن أتحكَّم في النّار كي ترفع لهيبها، وتستعرَ، حتى تطهِّر الجزيرة كلّها وتحوِّلها رمادًا! لكنِّي ما كنت أملك تلك القوى. ما كنت أستطيع أن أمنح غير العزاء.

رويدًا رويدًا، بدأ العبيد يألفون مرآيَ، وصاروا يقصدون ناحيتي، على استحياءٍ في البداية، ثم بثقةٍ أكثر فأكثر. صرت أدخل الأكواخ، وأُريح

المرضى والمحتضَرين.

- 2 -

هيه! هل أنت هي تيتوبا؟ لا عجب في أنّ الناس يهابونكِ. هل رأيتِ هيئتك؟

محدّثي على ذاك النحو كان شابًّا يفوقني عمرًا على نحوٍ بيِّن، إذ لا يمكن أن يقلّ عمره عن عشرين سنةً، طويلٌ، مهلهلُ الأطرافِ، بشرته فاتحةٌ، وشعرُه ناعمٌ على نحوٍ غريب.

حين هممتُ بالردِّ، تبخَّرت الكلمات، كأنَّما قصدتْ خيانتي، وما استطعتُ أن أُنشئ جملةً واحدة. وفي خضمِّ اضطرابي، ندّ عنِّي ضربٌ من الغمغمة، جعلَ محادثي ينخرط في نوبةِ ضحكٍ، وكرَّرَ القولَ:

- كلَّا، لا عجبَ في أنَّ الناسَ يهابونكِ. أنت لا تحسنين الكلامَ، وشعرك مثل دغل. مع أنَّ بإمكانك أن تكوني جميلة.

اقترب بشدَّة. ولو أنِّي كنت معتادةً على مخالطة بني البشر، لاستطعتُ أن أستشفَّ الخوفَ في عينيْه اللتيْن تشبهان عينيْ أرنبٍ، في شدَّة حركتهما ولونهما البرونزيّ. لكنِّي كنتُ عاجزةً عن ذلك، ولم أستشعر إلَّا جراءة صوته وابتسامته. وأخيرًا، تمكّنت من أن أنطق:

- أجل، أنا تيتوبا. وأنت، من أنت؟

قال:

. أنا جون الهنديّ.

هذا اسمٌ غير مألوف، قطّبتُ الحاجبَ:

. الهنديّ؟

اتّخذت سحنته هيئةً جريئة، وقال:

. يبدو أنَّ والدي من بين الأراواك القلائل الذين لم يفرُّوا بسبب الإنجليز. كان ماردًا بطول ثمانية أقدام. ومن بين جيش اللقطاء الذين زرعهم في طريقه، كنت أنا، الطفلَ الذي أنجبه من امرأةٍ من قبائل الناجو، كان يزورها حين يحلّ الليل!

لفَّ مجدَّدًا حول نفسه وهو يقهقه عاليًا. صعقني مرحه. ثمَّة إذن كائناتٌ سعيدةٌ على أرضِ البؤس هذه... غمغمت:

. هل أنت من العبيد؟

أحنى رأسَه موافقًا:

. نعم، أنا في ملكيَّة السيِّدة سوزانا إنديكوت التي تسكنُ هناك في كارليل باي.

أشار إلى البحر المتلألئ في الأفق:

. لقد أرسلتني إلى ليغورن، أشتري بيضًا من عند صامويل ووترمانز.

سألته:

. من يكون صامويل ووترمانز هذا؟

ضحكَ. مرَّةً أخرى تلك الضحكة، ضحكة الإنسان المتصالح مع نفسه!

. ألا تعرفين أنَّه هو من اشترى مزارع دارنيل ديفيس؟

وهنا، انحنى وتناول سلَّةً كان قد وضعها عند قدميْه:

. حسنًا، عليَّ أن أذهب الآن. وإلَّا تأخَّرت، وتذمَّرت السيِّدة إنديكوت. تعرفين كم تحبُّ النساءُ التذمُّرَ؟ خاصَّةً حين يبدأْنَ في التحوُّل إلى عجائز، ويكنَّ بدون أزواج.

كلّ هذا اللغو! دُختُ. وإذ كان يبتعد بعدما أشار إليَّ إشارةً من يده، لم أدرِ ما الذي دهاني، قلتُ برنَّةِ صوتٍ غريبةٍ عنِّي تمامًا:

. هل سأراك مرَّةً أخرى؟

حدَّق فيَّ. كنتُ أتساءلُ ما تُراهُ يقرأ في وجهي! لكنَّه اتَّخذ هيئةً مختالةً، وقال:

. غدًا، بعد الظهر، سيكون ثمَّةَ رقصٌ في كارليل باي. هل ترغبين بالحضور؟ سأكون أنا هناك.

أحنيتُ رأسي بحركة متشنِّجة، ثم سلكت طريقَ كوخي بخطوٍ بطيء. لأوَّل مرَّةٍ، أتمعَّن في المكان الذي اتَّخذتُه مأوى. بدا لي كئيبًا. أخشابه التي قُطِّعت تقطيعًا شنيعًا، بضربات الفأس، قد غدت مسودَّةً بفعل الأمطار والريح. حتى نبتةُ جهنَّميَّة عملاقة، تتسلَّقُ جانبه الأيسر، أخفقتْ في أن تجعل منه بهجةً للنظر، على الرَّغم من أزهارها الأرجوانيَّة. نظرتُ حواليَّ: شجرة كاليباسييه كثيرة العقد، وشجيرات ورد. انتفضتُ. توجَّهت شطرَ ما بقيَ من خمّ الدواجن، وأمسكت أحد الطيور القليلة التي بقيت وفيَّة لي. وبيدٍ خبيرةٍ، شققتُ بطنَها، وتركت الدم الورديّ يسقي الأرض. ثم ناديت بصوتٍ خفيض:

ـ مان يايا! مان يايا!

فتجلَّت لي على الفور. لكنَّها لم تظهر على هيأتها الفانية، هيأة المرأة الطاعنة في السنِّ، وإنَّما في الهيئة التي لبسَتْها للأبديَّة. تضوعُ عطرًا، وتضع حليةً ـ إكليلًا من براعم البرتقال. قلت لها لاهثةً:

ـ مان يايا، أُريد أن يحبّني هذا الرجل.

هزَّت رأسها:

ـ الرجالُ لا يحبُّون. إنَّهم يتملَّكون. يَستعبدون.

قلتُ معترضةً:

. ياو كان يحبُّ أبِنا.

. كان استثناءً من بين استثناءاتٍ نادرة.

. لعلَّ هذا أيضًا يكون استثناءً!

مالت برأسها إلى الخلف مطلقةً صهيلًا ينمُّ عن عدمِ تصديق:

. يُقال إنَّه ديكٌ سبق أن غطَّى بجناحيْه نصف دجاجات كارليل باي.

. أُريده أن يكفَّ عن ذلك.

. يكفي أن أنظر إليه لأُدركَ أنَّه زنجيٌّ أجوف، منفوخٌ بالهواء والوقاحة.

اتَّخذتْ مان يايا سحنةً جدّيّة، وإذ أدركتْ درجة التحرّق في نظراتي:

. حسنًا، اذهبي إلى حفل الرقص في كارليل باي، الذي دعاكِ إليه، وبحذقك، أريقي قليلًا من دمه على ثوب. ثم ائتيني به مع شيءٍ ما اتَّصلَ بجلده.

ثم ابتعدت، من غير أن يخفى عليَّ الحزن الذي ارتسم على ملامحها. لا ريب في أنَّها كانت ترى آنذاك بدايةَ اكتمالِ حياتي. حياتي، نهرٌ لا يمكن تحويل مجراه قطعًا.

حتى تلك اللحظة، لم أكن قد فكَّرت قطّ في

جسدي. هل كنتُ جميلةً؟ هل كنتُ قبيحة؟ لا علمَ لي. ماذا قال لي؟

«بإمكانكِ أن تكوني جميلة».

لكنَّه كان يقهقه كثيرًا. ربَّما كان يضحك منِّي. نضوتُ عن نفسي ملابسي، واضطجعتُ، وبيدي أخذتُ أداعبُ نفسي، سائحةً على جسدي. بدت لي منحنياتُه ونتوءاته متناغمة. وإذ اقتربت من فرجي، أحسستُ بغتةً أنِّي لم أعُد أنا من يداعبُ جسدي، وإنَّما جون الهنديّ. من أغوار جسدي، انبثقت لُجَّةٌ فوَّاحةٌ، وغمرت فخذيَّ. سمعت نفسي أئنُّ في الليل.

أهكذا أنَّت أمِّي، رغمًا عنها، حين اغتصبها ذاك البحَّارُ؟ فهمتُ إذن لمَ أرادت أن تُجنِّبَ جسدها المهانة مرَّةً ثانيةً، وحاولت قتل دارنيل. ماذا قال أيضًا؟

«شعرك مثل دغل».

ما إن استيقظتُ في اليوم التالي، حتى قصدتُ نهر أورموند. وهناك قصصتُ، كما اتَّفق، شعريَ الأشعث. وبينما تسقطُ في الماء آخر الخصل الصوفيَّة، سمعتُ زفرةً. كانت أمِّي. لم أكن قد استدعيتُها، فأدركتُ أنَّ خطرًا وشيكًا هو ما أخرجها من الغيب.

قالت شاكيةً:

ـ لماذا لا تستطيع النساء الاستغناء عن الرجال؟ ها أنتِ ذي ستُسحَبين إلى ضفَّةِ النهر الأخرى...

تفاجأتُ، فقاطعتُها:

ـ إلى ضفَّة النهر الأخرى؟

لكنَّها لم تشرح أكثر، وردَّدت بنبرةٍ كلّها أسًى:

ـ لماذا لا تستطيع النساء الاستغناء عن الرجال؟

كان يُفترض في كلِّ ذلك، تردُّدُ مان يايا، وتفجُّع أمِّي، أن يدفعني إلى توخِّي الحذر. لكنِّي لم أحذر. ويوم الأحد، ذهبت إلى كارليل باي. استخرجتُ من حقيبةٍ فستانًا هنديًّا بنفسجيّ اللون، وتنُّورةً من القطن الناعم، كانا من متاعِ أمِّي. وحين هممتُ بارتدائهما، تدحرج على الأرض شيئانِ. قرطا أذنٍ من الطراز الكريوليّ. غمزتُ الغيبَ.

آخر مرَّةٍ ذهبتُ فيها إلى بريدجتاون، كانت أمِّي ما تزال على قيد الحياة. مرَّت مذّاك عشرُ سنواتٍ، نمَت فيها المدينةُ على نحوٍ ملحوظٍ، وصارت ميناءً مهمًّا. كانت ثمَّةَ غابةٌ من الصواري تحجُب الخليجَ، ورأيتُ الأعلامَ من كلِّ الدول. بدت لي منازل الخشب مبهجةً بشرفاتها وأسقفها الشاسعة التي تنفتح فيها النوافذُ واسعةً، كأنَّها عيونُ أطفالٍ.

لم أجد صعوبةً في العثور على موضعِ الرقص، إذ كانت الموسيقى تتناهى من بعيدٍ. ولو كان

لي إحساسٌ ما بالزمن، لعرفتُ أنّنا كنّا في فترة الكرن؟ال، وهي اللحظة الوحيدة، في السنة بأكملها، التي يكون فيها العبيد أحرارًا في أن يرفّهوا عن أنفسهم كما يحلو لهم. فيتراكضون في أرجاء الجزيرة كلّها، ساعين إلى نسيانِ أنّهم ما عادوا بشرًا. كانت العيون تنظرُ إليّ والأفواه توشوش:

. من أين أتت؟

يبدو أنْ لا أحد خطر بباله أن يربط بين هذه الشابّة الأنيقة وتلك التيتوبا نصفِ الأسطوريّة التي تُتناقَلُ أخبارها وأفعالها من مزرعةٍ إلى أخرى!

كان جون الهنديّ يرقصُ مع شابّةٍ شابينةٍ(7) فارعة الطول، تلفُّ حولَ رأسها منديلَ مادراس (8). وقد تركها بفظاظةٍ وسط حلبة الرقص، وأتى يستقبلني، عيناه منبهرتان تستعيدان ذكرى جدّه الأراواك.

قال ضاحكًا:

. أهذه أنت؟ أهذه حقًّا أنت؟

ثم سحبني قائلًا:

. تعالي! تعالي!

تمنّعتُ:

- لا أُحْسِنُ الرقص.

قهقه مرَّةً أخرى. إلهي كم كان هذا الرجلُ يُحْسِنُ الضحك! ومع كلِّ نوتةٍ تنطلق من فمه، كان يكسرُ قفلًا من أقفالِ قلبي.

- زنجيَّةٌ لا تُحْسِن الرقص؟ هل سبق لكم أن صادفتم شيئًا مماثلًا؟

ثم ما لبثت أن تشكَّلت حولَنا حلقةٌ. ونبتتْ على كعبيَّ وكاحليَّ أجنحةٌ. ومرَنَ ردفايَ وخصري! اقتحم جسدي ثعبانٌ غامضٌ. أهوَ الثعبان الأزليُّ الذي كانت تحدِّثني عنه مان يايا، الثعبانُ المجسِّدُ صورةَ الإله خالق كلّ ما على الأرض؟ أكان هو من يجعلني أهتزّ على ذاك النحو؟

أحيانًا، كانت الشابينة المعتمرة منديلَ مادراس تحاولُ أن تحشر جسمها بيني وبين جون الهنديّ. لم نعرها أيّ اهتمام.

في لحظةٍ ما، مسح جون الهنديّ جبينه بمنديلٍ كبيرٍ من قماش بونديشيري (الهند)، فتذكّرتُ كلمات مان يايا: (قليلًا من دمه على ثوب. ثم ائتيني به مع شيءٍ ما اتّصلَ بجسده).

أصابني التردُّد لحظةً. هل من الضروريّ حقًّا القيامُ بذلك، ما دام يبدو أنّه قد فُتِنَ «تلقائيًّا». ثم أتاني الحدس بأنَّ المهمّ ليس هو أن نفتن رجلًا، وإنَّما أن نحافظَ عليه، وجون الهنديّ سيكون من النوع

الذي يُفتَن بسهولةٍ، ويتنصَّلُ من كلِّ ارتباطٍ مُلزِمٍ. فكان أن أطعتُ كلام مان يايا. بمهارةٍ، خطفتُ منديله، خادشةً خنصره من جهة ظفره.

ندَّت عنه صيحة:

. آي! ما الذي تفعلينه أيَّتها الساحرة؟

كان يمزح. ومع ذلك أحزنني كلامه.

ما معنى ساحرة؟

لاحظتُ أنَّ الكلمة كانت في فمه ملطَّخةً بالعار. كيف ذلك؟ كيف؟ أليست مَلَكَةُ التواصل مع اللامرئيّين، والحفاظِ على رابطةٍ دائمةٍ مع الموتى، وعلاجِ الأحياء، وشفائهم، أليست نعمةً كبرى من الطبيعة، نعمةً تستحقُّ التبجيلَ والتقديرَ والشكر؟ وبالتالي: الساحرةُ، إن جاز لنا أن نُسمِّي كذلك المرأةَ التي تحوز تلك النعمة، ألا تستحقُّ الحبَّ والتبجيلَ بدلًا من الخشية؟

أصابتني كلّ تلك الخواطرِ بالكآبة، فتركت ساحة الرقص بعد آخر رقصة بولكا. وإذ كان جون الهنديّ شديدَ الانشغال، لم ينتبه إلى رحيلي.

في الخارج، كان الليل يلفّ حبلَه الأسودَ حول رقبة الجزيرة، حتى يكادُ يحزّها. الريح ساكنةٌ. الأشجار هامدةٌ كنُسَّاك متعبِّدين. خطرت ببالي شكوى أمِّي:

ـ لماذا لا تستطيع النساء الاستغناء عن الرجال؟

أجل، لماذا؟

ـ أنا لستُ زنجيًّا يعيشُ في الغاباتِ، لستُ عبدًا آبقًا (9)! أبدًا لن آتي للعيش في قنّ الأرانب الذي أقمتِه هناك في قلب الغابة. إن أردتِ العيش معي، تعالَي عندي هنا، في بريدجتاون.

ـ عندك؟

ضحكت ضحكةً ساخرةً:

ـ ليس للعبد أن يقول «عندي»! هل أنت في ملكيَّة سوزانا إنديكوت؟

بدا غير مسرورٍ:

ـ أجل، أنا في ملكيَّة السيِّدة سوزانا إنديكوت، لكنَّ السيِّدة طيِّبةٌ...

قاطعتُه:

ـ أنَّى لسيّدةٍ أن تكون طيِّبةً؟ هل يمكن أن يحبَّ العبدُ سيِّدَه؟

تظاهر بأنَّه لم ينتبه لجملتي المعترضة، وواصل كلامه:

ـ كوخي أنا خلفَ ذاك المنزل، وفيه أفعل ما يطيب

لي.

أمسك بيدي:

ـ تيتوبا، تعرفين ما يقالُ فيك، يقولون إنَّك ساحرة...

مرَّةً أخرى، يستعملُ هذه الكلمةَ!

ـ ... أريد أن أبرهن للجميع أنَّهم مخطئون، وأتَّخذك رفيقةً أمامَهم جميعًا. سوف نتردَّد على الكنيسة معًا، وسأعلِّمك الصلوات...

كان عليَّ أن ألوذ بالفرار، أليس كذلك؟ لكنِّي بدلًا من أن أفرَّ، بقيتُ هناك متبلِّدةً وعاشقةً.

ـ هل تعرفين الصلوات؟

هززتُ رأسي نافيةً:

ـ كيف خُلق العالمُ في اليوم السابع؟ كيف أُنزل أبونا آدم إلى الأرض بسبب أمّنا حوّاء...

أيّ قصَّةٍ غريبةٍ يتلوها عليَّ؟ ومع ذلك، ما كنتُ قادرةً على الاعتراض. سحبتُ يدي من يده، وأولَيتُه ظهري.

همس في قفايَ:

ـ تيتوبا، ألا ترغبين فيَّ؟

ها هُنا المصيبةُ. أرغبُ في هذا الرجل كما لم أرغبُ قطّ في شيءٍ. أشتهي حبَّه، كما لم أشتَهِ حُبًّا من قبلُ. ولا حتى حبِّي لأمِّي. كنت أريد منه أن يلمسني. أن يداعبني. كنت أترقَّب اللحظة التي يأخذني فيها، فيفتحُ صمَّاماتِ قلبي، مُطلقًا مياهَ اللذَّة.

واصل كلامه هامسًا لصق بشرتي:

. ألا ترغبين في أن تشاركيني العيشَ من اللحظة التي تصيح فيها الديكةُ في الأفنية الخلفيَّة، حتى اللحظة التي تغرق فيها الشمسُ في المحيط، وتبدأ الساعاتُ الأشدُّ إلهابًا؟

تمكَّنتُ أن أستجمع قوايَ، فأنهضُ:

. أمرٌ خطيرٌ هذا الذي تسألني إيّاهُ. دعني أفكِّر ثمانية أيّامٍ، وسوف آتيك بجوابي إلى هنا.

بغضبٍ. حملَ قبّعتَه القشَّ. ما المميَّزُ في جون الهنديّ حتى أمرَض به؟ لم يكن طويلًا، كانت قامته متوسِّطةً، خمس أقدامٍ وسبعة إنشاتٍ، ولم يكن قويَّ البنية، ولا قبيحًا، أو جميلًا! أسنانُه كانت رائعةً، وعيناه متوقِّدتانِ لهبًا! عليَّ الاعترافُ بأنِّي حين طرحتُ على نفسي هذا السؤال، لم أكن إلَّا أنافقُ نفسي كلّ النفاق. كنت أعرفُ أين تكمنُ ميزَتُه الرئيسةُ، لكنِّي ما كنتُ أجرؤ على النظرِ؛ كانت الميزة هناك تحتَ الحبل الذي يربطُ به سرواله الكونوكو(10) المصنوع من القماش

الأبيض، ميزتُه كانت قضيبَه المهولَ.

قلتُ:

. موعدُنا الأحد إذن.

وما كدتُ أبلغ بيتي حتى استدعيتُ مان يايا، التي لم تُسارع إلى الاستجابة لندائي، وأتت بوجهٍ مقطّب:

. ماذا تريدين بعد؟ ألم ترضي؟ ها هو ذا يعرضُ عليك أن تعيشي معه...

أجبتُها بصوتٍ خافت جدًّا:

. تعلمين علمَ اليقين أنّني لا أريد أن أعود إلى عالم البِيضِ.

. لا مندوحة لك عن المرور من هناك.

. لماذا؟

كنتُ تقريبًا أصرخُ:

. لماذا؟ ألا تستطيعين أن تأتي به هو إلى هنا؟ أقُدُراتُك محدودةٌ إذن؟

لم تغضب، وأخذت تنظر إليَّ نظرةَ مواساةٍ شديدةَ الحنوّ.

. لطالما قلت لكِ ذلك. إنَّ للعالم قواعدَه التي لا أستطيع أن أقلبَها كلِّيًّا. وإلَّا كنت هدمتُ هذا العالَم، وبنيتُ بدلًا منه عالمًا آخرَ، عالمًا يكون فيه بنو جنسنا أحرارًا. أحرارًا في أن يُخضعوا بدورهم البيضَ. لكنْ، واأسفًا.. لستُ أقدر!

لم أجد ما أردّ به على مان يايا التي اختفت، كما كانت قد أتت، تاركةً خلفها أريجَ الأوكالبتوس الذي يشهدُ على مرور أحد اللامرئيّين.

وإذ بقيت وحيدةً، أشعلتُ نارًا بين أربعةِ أحجارٍ أثافٍ، وثبَّتُّ عليها كنارِيَ (11)، ورميتُ في مائه فُلْفلًا وقطعةً من لحم الخنزير المملَّح كي أحضِّرَ يخنةً. وما كانت عندي شهيَّةٌ للأكل.

أمِّي اغتصبها رجلٌ أبيض. وشُنقت بسبب رجلٍ أبيض. رأيتُ لسانَها يتدلَّى من فمها، كقضيبٍ متورِّمٍ أرجوانيّ. أبي الذي كفلني انتحرَ بسبب رجلٍ أبيض. وعلى الرَّغم من كلِّ ذلك، ها أنا ذي أخطِّط للعودة إلى العيش معهم، في كنفهم، بين ظهرانيهم. وكلّ ذلك بسبب رغبةٍ هوجاء في أحدِ الفانينَ. أليس جنونًا؟ جنونًا وخيانةً؟

قضيتُ تلك الليلة، ومن بعدها سبع ليالٍ وسبعة أيَّامٍ، في صراعٍ ضدَّ نفسي. وفي نهاية المطاف، أقررتُ بهزيمتي. لا أتمنَّى لأحدٍ المرور ممّا مررتُ منه من عذاباتٍ. حسرات. إحساس بالخزي. خوف وهلع.

الأحدُ التالي، حشرتُ في سلَّةٍ كارَيبيَّة بعضًا من فساتين أمِّي وثلاث تنُّوراتٍ. وغلَّقتُ بعصا شجرةٍ بابَ كوخي. وأطلقتُ الحيوانات: الدجاجات وديوك الحبش التي كانت تغذِّيني ببيضها؛ البقرة التي كانت تُعطيني حليبها؛ الخنزير الذي علفتُه سنةً من دون أن تواتيني الجرأةُ لأن أقتله.

رتَّلتُ صلاةً طويلةً لسكَّانِ المكانِ الذي كنت على أهبَّة أن أتركه.

ثم سلكتُ طريقَ كارليل باي.

ـ 3 ـ

سوزانا إنديكوت كانت امرأةً قصيرةً، تَعدُّ من السنين نحو خمسين، شعرُها الذي وَخَطَه الشّيبُ، يشطرُه مفرقٌ شعرها نصفيْن، وتعقصُه في شكلِ كعكةٍ تُحْكِمُ شدَّها، فتشدُّ إلى الوراء جلدَ الجبهة والصّدغيْن. في عينيْها الزرقاويْن زُرقةَ البحر، كان بوسعي أن أقرأ كلّ الاشمئزاز الذي تحسُّه تجاهي. حدَّقَتْ فيَّ كما يحدِّقُ المرء في شيءٍ مقرفٍ:

ـ تيتوبا؟ أيُّ اسمٍ هذا؟

أجبتها ببرود:

ـ أبي هو من سمَّاني.

اصطبغ وجهها بحمرةٍ أرجوانيَّة:

ـ اخفضي عينيْك حين تكلِّمينني.

أطعتُها حبًّا في جون الهنديّ. واصلت الكلام:

ـ هل أنت مسيحيّة؟

سارع جون الهنديّ إلى الردّ:

ـ سأعلِّمها الصلوات، يا سيِّدتي! وسأطلب من خوري الأبرشيّة ببريدجتاون أن يمنحها التعميد المقدَّس ما إن يكون الأمرُ ممكنًا.

حدَّقت سوزانا إنديكوت فيَّ مجدَّدًا:

ـ ستنظِّفين المنزلَ. مرَّةً في الأسبوع، تفركين الأرضيَّةَ ـ الخشب. وتغسلين الملابس وتكوينَها. لكنَّك لن تمسِّي الطعامَ. سأطبخ الطعامَ بنفسي، لأنِّي لا أُطيق أن تمسُّوا طعامي، أنتم معشر الزنوج، بأيديكم ذوات الباطن الأبرص الشمعيّ.

تأمَّلتُ راحتَيَّ. كانت راحتاي رماديَّتيْن مورَّدتيْن، كصَدفةٍ بحريَّة.

وبينما يستقبلُ جون الهنديّ كلامَها بقهقهةٍ عظيمة، ظللتُ أنا مذهولةً. لم يسبق لأحدٍ قطُّ أن كلَّمني بهذا النحو، أن أهانني بهذا القدر!

ـ انصرفي الآن!

أخذ جون يقفز بهذه القدمِ وتلك، وبنبرةٍ شاكيةٍ ومتملِّقة وخَنوعٍ في آنٍ، نبرةِ طفلٍ يسألُ معروفًا:

ـ سيِّدتي، حين يقدم زنجيٌّ على اتِّخاذ امرأةٍ، ألا يستحقُّ راحةَ يوميْن؟ أليس كذلك يا سيِّدتي؟

بصقت سوزانا إنديكوت، وقد صارت عيْناها الآن بلون البحر في يومٍ عاصف:

ـ ما أجملها امرأةً اخترتَ، عسى ألَّا تندمَ على اختيارك!

قهقه جون مجدَّدًا، مُطلِقًا من بين صفَّي لُؤلؤ:

. عسى! عسى!

ثم رقَّت سوزانا إنديكوت فجأةً:

. اِنصرف، ولتكن هنا أمامي يومَ الثلاثاء.

ألحَّ جون بالطريقة الهزليَّة والكاريكاتوريَّة نفسها:

. يومان يا سيِّدتي! يومان!

استسلمت:

. حسنًا، لقد انتصرتَ! كعادتك دومًا معي! عُد يوم الأربعاء. لكن لا تنسَ أنَّ الأربعاء يومُ البريد.

أجابها بفخرٍ:

. وهل نسيت ذلك يومًا؟

ثم ارتمى على الأرض كي يمسك يدها ويقبِّلها. لكنَّها بدلًا من أن تتركه يفعل، ضربته على وجهه قائلةً:

. انصرف، أيُّها الزنجيّ!

كان دمي كلّه يفور داخل جسدي. مُدرِكًا ما أشعر به، سارع جون الهنديّ إلى سحبي خارجًا، وإذا بصوت سوزانا يسمِّرُنا أرضًا:

- وإذن يا تيتوبا، ألا تشكرينني؟

ضغط جون على أصابعي حتى كاد يكسرها. استطعتُ أن أتمتم:

- شكرًا يا سيِّدتي.

كانت سوزانا إنديكوت أرملةَ مزارعٍ ثريّ، أحد أوائل من تعلَّموا من الهولنديِّين استخلاصَ السكَّر من القصب. وبعد وفاة زوجها، باعت المزرعة وأعتقت عبيدها كلّهم، لأنّها، وهذه مفارقةٌ لم أستطع فهمها، مع كرهها للعبيد كانت ضدَّ العبوديَّة. لم تحتفظ إلَّا بجون الهنديّ الذي كانت قد شهدت ولادته. سكنُها الجميلُ الشائعُ بكارليل باي كان يمتدُّ وسط حديقةٍ مزروعةٍ أشجارًا، وفي قلب الحديقة يرتفع كوخ جون الهنديّ، كوخٌ أنيقٌ والحقّ يُقال. كان الكوخ مبنيًّا من نسج الخوص، ومطليًّا بالجير، وبه فرندةٌ صغيرةٌ عُلِّقَ فيها سريرٌ - أرجوحة.

أقفل جون الهنديّ الباب بمزلاج خشبٍ، ثم ضمَّني بين يديْه، هامسًا:

- إنَّ واجبَ العبدِ هو أن يسعى للبقاء. تسمعين؟ أن يسعى للبقاء.

ذكَّرني كلامُه بكلامِ مان يايا، فسالت الدموع على امتدادِ خدَّيَّ. شربها جون الهنديّ واحدةً بعد أخرى، تابعًا مسارها المالح حتى داخلِ فمي. كنت

ألهث. لم يتبدَّد الحزنُ ولا المهانة اللذيْن شعرت بهما من سلوكه أمام سوزانا إنديكوت، لكنَّهما تحوَّلا إلى ضربٍ من السعارِ كان بمثابة مهمازٍ يهيِّجُ رغبتي فيه. عضضتُه بعنفٍ أسفلَ عنقه. أطلق ضحكته الجميلة، وصاح:

. تعالي يا مهرتي لأروِّضك.

ثم رفعني وحملني إلى غرفته، مَعْقِلِه المزخرف، المؤثَّثة بسرير ذي ستائر. وإذ ألفيت نفسي على السرير، الذي منحته إيَّاه على الأرجح سوزانا إنديكوت، تضاعف هياجي عشر مرَّاتٍ، فكانت لحظاتُ حبّنا الأولى أشبه بمصارعة!

صرت أنتظر بفارغ الصبر تلك اللحظات. كنت راضيةً.

وحين يهلكني التعب، كنت أستدير على جانبي، فأسمعُ تنهيدةً مريرة. كانت تلك أمِّي بلا شكٍّ، لكنِّي كنت أرفض التواصل معها.

مرَّ اليومان الأوَّلان كفتنةٍ عذْبَة. جون الهنديّ، الذي لم يكن ذا طبعٍ متسلِّطٍ أو متذمِّر، كان قد اعتاد أن يقوم بأموره كلّها بنفسه، فكان يعاملني كإلهة. هو من كان يعجن خبز الذرة، ويحضِّر اليخنة، ويقطِّع الأفوكادو، وثمار الجوَّافة الورديَّة القشر، والباباي ذا الرائحة شبه المنتنة. وكان يقدِّمُ لي الطعامَ على السرير، في آنيَّةٍ صُنِعت من ثمرة قرع، وملعقةٍ نحتها بنفسه وزيّنها برسومٍ مثلَّثة. كان يصير حكواتيًّا، يمثِّلُ وسط

حلقة خياليَّة.

. تيم، تيم، أيُّها الخشبُ الجافّ! هل نامَ الحضور (12)؟

كان يُخبِّل شعري، ثم يُعيد تمشيطه على طريقته. ويدعك جسدي بزيت جوز الهند، معطَّرًا باليلانغ.

لكنَّ اليوميْن لم يدوما إلَّا يوميْن.

صباح الأربعاء، دقَّت سوزانا إنديكوت باب كوخنا، وسمعناها تصيح بصوتها السليط:

. جون الهنديّ، هل ما زلت تذكرُ أنَّ اليومَ يومُ البريد؟ ما تزالُ منهمكًا في تسخين زوجتك!

قفز جون من السرير.

أمَّا أنا، فارتديت ملابسي على مهلٍ. وحين وصلتُ إلى ال؟يلَّا، كانت سوزانا إنديكوت تتناول فطورها في المطبخ. إناءٌ من حبوب الشوفان وقطعة خبزٍ أسمر. أشارت إلى شيءٍ مستديرٍ معلَّقٍ في الحائط، وسألتني:

. هل تُجيدين قراءة الساعة؟

. الساعة؟

. أجل أيَّتها البائسة، ما ترينَه هناك اسمُه البندول. وينبغي أن تبدئي العملَ كلّ يومٍ في السادسة

صباحًا!

ثم قالت مشيرةً إلى سطلٍ ومكنسةٍ وممسحة:

. إلى العمل!

كانت ال؟يلَّا تتألَّفُ من اثنتي عشرة غرفةً، فضلًا عن علِّيَّة رُوكمت فيها حقائبُ جلديَّة تحوي ملابس المرحوم جوزيف إنديكوت. الظاهرُ أنَّ الرجل كان مولعًا بأنيقِ الملابسِ.

حينما نزلتُ، أترنَّحُ تعبًا وفستاني يقطرُ عرقًا وماءً، كانت سوزانا إنديكوت تشربُ الشايَ مع صديقاتها، نصف دستةٍ من النساء، متشابهاتٍ وإيَّاها، بشراتهنَّ بلون اللّبن الرائب، وشعورهنَّ مشدودةٌ إلى الخلف، وأطرافُ شالاتهنَّ معقودةٌ عند مستوى الحزام.

حدَّقن فيَّ مرعوباتٍ بعيونّهنَّ المتنوِّعة الألوانِ:

. من أين خرجت هذه؟

أجابت سوزانا إنديكوت بنبرةٍ مهيبة ساخرة:

. إنَّها رفيقةُ جون الهنديّ!

ارتسمت على وجوه النساء أماراتُ التعجُّب نفسها، وقالت إحداهنَّ محتجَّةً:

. تحت سقفك! أرى أنَّكِ يا سوزانا إنديكوت تمنحين

هذا الشابَّ من الحرِّيَّة أكثر ممّا ينبغي! نسيتِ أنَّه زنجيّ؟!

هزَّت سوزانا إنديكوت كتفيْها بلامبالاة:

. حسنًا، أفضِّلُ أن يُشبع رغبته هنا في المنزل، على أن يجوب البلاد، ويُصيبه الوهنُ وهو يبذر زرعَه في كلِّ مكانٍ!

. أهيَ مسيحيَّةٌ على الأقلِّ؟

. سوف يعلِّمها جون الهنديّ الصلوات.

. وهل ستزوِّجينهما؟

ما أذهلني وجعلني أنتفضُ، ليس ما كنَّ يتفوَّهن به من عباراتٍ، وإنَّما الطريقة التي كُنَّ يتكلَّمن بها. كأنَّما لم أكن واقفةً هناك عند عتبة الغرفة. كنَّ يتحدَّثن عنِّي، وفي الآن نفسه، يتجاهلنني. يمسحنني من خارطة البشر. كنت عدمًا. شيئًا لامرئيًّا. أكثر لامرئيَّة من اللامرئيّين أنفسهم، ذاك أنَّهم هم على الأقلِّ يحوزون قدرةً يخشاها الجميع. أمّا تيتوبا، تيتوبا، فلم يكن لها من الوجود إلَّا قدر ما تُنعِمُ به عليها هؤلاء النّسوة.

كان أمرًا فظيعًا.

كانت تيتوبا قبيحةً، فظَّةً، وأدنى درجةً، لأنَّ هؤلاء النسوة قرَّرن ذلك. خرجتُ إلى الحديقة، وظلَّت تتناهى إلى سمعي ملاحظاتهنَّ التي تؤكِّدُ

أنَّهنَّ، وإن تظاهرن بتجاهلي، قد أشبعنني فحصًا وتقليبًا:

ـ لها نظرةٌ يفور لها الدمُ. وعيْناها عيْنا ساحرةٍ. احذري يا سوزانا إنديكوت.

عُدتُ إلى كوخي، وجلستُ، مقهورةً، في الفرندة.

وما هي إلَّا لحظةٌ حتى سمعتُ تنهيدةً. كانت أمِّي مجدَّدًا. وهذه المرَّة، استدرتُ شطرَها، وصحتُ فيها بشراسةٍ:

ـ ألم تعرفي الحبَّ حين كنتِ على هذه الأرض؟

هزَّت رأسها.

ـ أنا، حبُّ ياو لم ينقص من قدري. لا بل بالعكس. حبُّ ياو جعلني أستعيدُ تقديرَ نفسي والإيمانَ بها.

وإذ قالت قولها ذاك، انطوت على نفسها حزينةً أسفل شُجَيْرة ورودٍ حمراء قانية. وبقيت أنا ساكنةً. لم أكن بحاجةٍ إلى أن أفعل أكثر من حركاتٍ معدودةٍ: أقوم من مقامي، أحمل حزمة ملابسي الهيِّنةَ، أسحب البابَ خلفي، وأسلك عائدةً طريقَ نهر أورموند. واأسفًا! لم أكن أستطيع.

إنَّ العبيد الذين كان النخَّاسون ينزلونَهم زرافاتٍ، وتجتمع لتتفرَّج عليهم كلُّ ساكنة بريدجتاون الرفيعة، ساخرةً، في شكلٍ كورس، من هيئتهم

وملامحهم وطريقتهم في المشي، أولئك العبيد كانوا أكثر حرِّيَّةً منِّي. فهم لم يختاروا أغلالهم. لم يمشوا عن طيب خاطرٍ صوبَ البحر الهائل، كي يسلِّموا إلى النخَّاسين أنفسَهم، وإلى السياطِ ظهورَهم.

أمّا أنا، ففعلتُ.

ـ أؤمن بالربّ، الأبِ القدير، خالق السماوات والأرض، وأؤمن بعيسى المسيح، ابنه الأوحد، سيِّدنا...

هززتُ رأسي منتفضةً:

ـ جون الهنديّ، لا أستطيع أن أردِّدَ هذا!

ـ ردِّدي يا حبيبتي! إنَّ ما يهمّ بالنسبة إلى العبدِ هو أن يسعى للبقاء! ردِّدي يا مَلِكتي. هل تحسبين أنِّي أؤمن بأقاصيصهم عن الثالوث المقدَّس؟ ربٌّ واحدٌ في شخوصٍ ثلاثةٍ متفرِّقين؟ لكن لا أهمِّيَّة لذلك. يكفي أن نتظاهر. هيَّا، ردِّدي!

ـ لا أستطيع!

ـ ردِّدي يا مهرتي المورقةَ العرفِ! أليس المهمّ هو أن نكون معًا على هذا السرير الواسع، الأشبه بطَوْفٍ على منحدراتٍ مائيَّة؟

ـ لا أعرف! ما عدتُ أعرف!

.أؤكِّد لك يا حبيبتي، ويا ملكتي، أنْ لا شيء سوى ذلك يهمّ! هيَّا، ردِّدي خلفي!

ضمَّ جون الهنديّ يديّ بقوَّةٍ، فردَّدت خلفَه:

(أؤمن بالربّ، الأبِ القدير، خالق السماوات والأرض، وأؤمن...).

لكنَّ تلك العبارات ما كانت تعني لي شيئًا. فهي لم تكن تُشبه في شيءٍ تلك التي علَّمتني إيَّاها مان يايا.

وبما أنَّ سوزانا إنديكوت لم تكن تثق في جدِّيَّة جون الهنديّ، فقد أخذت على عاتقها تحفيظي دروس التعاليم المسيحيَّة، وأن تشرح لي كلام كتابها المقدَّس. عصر كلّ يومٍ، في الساعة الرابعة، كنتُ أجدها ضامَّةً يديْها أمام مجلَّدٍ سميك، ما كانت تفتحه قبل أن ترسم علامة الصليب، وتهمس بصلاةٍ قصيرة. وكنت أنا أقفُ أمامها مجاهدةً في أن أجد كلماتي.

ذاك أنِّي لا أستطيع أن أشرح التأثير الذي كانت تلك المرأة تخلِّفُه فيّ. كانت تشلّني. كانت تُرعبني.

كانت نظرتها الزرقاء البحريَّة تُجرِّدني من أسلحتي. لم أكن إلَّا ما تريدُه لي أن أكونَه. مجرَّد خرقاء ذات لونٍ منفِّرٍ. وعبثًا التمستُ عونَ أحبَّائيَ، لكنْ لا أحد بادر إلى عوْني. حينما أكون بعيدةً عن سوزانا

إنديكوت، كنتُ أنهالُ على نفسي بالتوبيخ، ألوم نفسي وأقسم أن أقاومَها في المرَّة المقبلة التي أقف فيها أمامَها. لا بل كنت أتخيّلُ حتى الردود الوقحة الماكرة التي سأردُّ بها على أسئلتها. واأسفًا! كان يكفي أن أقف أمامَها لكي أفقد كلّ غطرستي.

في ذلك اليوم، دفعتُ باب المطبخ حيث كانت تنتظرني لتعطيني الدرس اليوميّ. وعلى الفور، نبَّهتني نظرتُها، بهدوء، إلى أنَّها تتوفَّرُ على سلاحٍ خطيرٍ لن تبطئ في استعماله. على أنَّ الدرس بدأ كالعادة.

وبادرتُ إلى الكلامِ بشجاعةٍ:

أؤمن بالربّ، الأبِ القدير، خالق...

ولم تقاطعني.

تركتني أتمتم، أتأتئ، أتعثَّر على مقاطع الإنجليزيَّةِ الزَّلِقة. وإذ فرغت من تلاوتي، توقَّفتُ منقطعةَ النَفَسِ كأنَّما تسلَّقتُ هضبةً ركضًا.

قالت لي:

ـ ألستِ ابنة المدعوّةِ أَبِنا التي قتلت مُزارعًا؟

أجبتُها محتجَّةً:

ـ لم تقتله، يا سيِّدتي! إنَّما فقط جرحته!

ابتسمت سوزانا إنديكوت ابتسامةً تشي بأنَّ هذه الأمور لا تُحْدث في ميزانها فرقًا، وواصلت السؤال:

. ألم تتربِّي في كنف زنجيَّةٍ من النّاغو، ساحرة تُدعى مان يايا؟

تلعثمتُ:

. ساحرة! ساحرة! لقد كانت تعالجُ، وتشفي!

صارت ابتسامتُها أرفع، وارتعشت شفتاها الباهتتان:

. هل جون الهنديّ على علمٍ بكلِّ هذا؟

تمكَّنتُ من إجابتها:

. وهل في هذا ما يُخفى؟

خفضت عينيْها على كتابها. وفي تلك اللحظة، دخل جون الهنديّ حاملًا حطب المطبخ، ورآني منكسرةً، فأدرك أنَّ شيئًا خطيرًا يتهيَّأُ في الأفق. وأسفًا! لم أستطع أن أُسِرَّ إليه بما وقع إلَّا بعد ساعاتٍ طويلةٍ من وقوعه:

. إنَّها تعرفُ! تعرف من أنا!

صار جسده باردًا متصلِّبًا كجسد رجلٍ ماتَ البارحة.

غمغم:

. ماذا قالت لكِ؟

حكيتُ كلّ ما جرى، فزفر، وقال ذاهلًا:

. منذ أقلّ من سنة، أمر الحاكم دوتون بأن تُحرق في ساحة بريدجتاون عبدتان اتُّهمتا بخدمة الشيطان، لأنَّ ذاك تحديدًا ما يقصدهُ البيض حين ينعتون امرأةً ما بالساحرة...!

احتججتُ عليه:

. خدمة الشيطان! قبل أن أضع قدمي في هذا المنزل ما كنت حتى أعرفُ هذا الاسم.

قال مغمغمًا:

. حاولي أن تشرحي ذلك للمحكمة!

. في المحكمة؟

كان جون الهنديّ في حالٍ من الرُّعبِ، بحيث كنت أسمع قلبَه يدقُّ وهو يذرع الغرفة ركضًا.

صحت فيه:

. اشرح لي!

. لا تعرفين البيض! إن اقتنعوا بأنَّك ساحرة،

سينصبون محرقةً ويرمونك فيها!

منذ انتقلتُ للعيش مع جون الهنديّ، كانت تلك أوّل ليلةٍ لا يضاجعني فيها. كنت أتلوّى بجانبه، ملتهبة، أتلمّس بيدي الشيء الذي منحني الكثير من الملذّاتِ. لكنّه صدّني.

تطاول الليل.

سمعتُ الريح تزمجرُ، مارّةً من فوقِ رؤوس النّخل. سمعتُ اصطخابَ البحر. سمعت نباح الكلاب المدرّبة على اقتفاء آثار العبيد المتسكّعين. سمعتُ الديَكة تصيحُ مُنبِئةً بطلوع الفجر. ثم نهض جون الهنديّ ومن دون أن ينطق كلمةً، غلّف بملابسه الجسدَ الذي مَنعَنِيه. انهرت باكيةً.

عندما دخلت إلى المطبخ لأقوم بأعمالي الصباحيَّة، كانت سوزانا إنديكوت مستغرقةً في الحديث مع بتسي إنغرسول، زوجة القسّ. كانتا تتحدّثان عنّي، عرفت ذلك، رأساهما يقتربان حدّ التلامس فوق البخار الصاعد من إنائَي عصيدتهما. كان جون الهنديّ مُحِقًّا. ثمّة مؤامرةٌ تحاكُ.

في المحكمة، لا قيمةَ لكلام عبدٍ، لا بل لا قيمة حتى لكلام زنجيّ حرّ. عبثًا سيُبحّ صوتنا ونحن نصيحُ بأنّني لم أكن أعرف هذا المدعوّ الشيطان، ولا أحد سيهتمّ لما نقوله.

إذّاك، قرّرتُ أن أحميَ نفسي، من غير إبطاءٍ.

خرجتُ في عزِّ قيظِ الثالثةِ بعد الزوال، وما كنتُ أشعر بلدغات الشمس. نزلت الأرض المربَّعة الواقعة خلف كوخ جون الهنديّ، وأفنيتُ نفسي في الصلوات. هذا العالمُ لم يعد يحتملُ وجودنا معًا، أنا وسوزانا إنديكوت. إحدانا كانت فائضةً عن الحاجة، وهذه الفائضة عن الحاجة لم تكن أنا.

- 4 -

قضيتُ الليلة بأكملها أناديكِ. لِمَ لَمْ تأتِ إلَّا الآن؟

. كنتُ في الطرف الآخر من الجزيرة، أواسي عبدةً مات رفيقها تعذيبًا. لقد جلدوه. صبُّوا فلفلًا حارًّا على جروحه، ثم.. انتزعوا قضيبه.

حكايتها التي كانت في زمنٍ مضى لتجعلني أنتفض، لم تخلِّف فيّ أثرًا.

واصلتُ الكلام بحماسة:

. أريدها أن تموت على مهلٍ، أن تقاسي أفظع الآلام وهي عارفةٌ أنّي سبب آلامها.

هزَّت مان يايا رأسها:

. لا تتركي الرغبةَ في الانتقام تجرفكِ. ضعي علمكِ في خدمة ذويكِ وإراحتهم.

احتججتُ عليها:

. لكنّها أعلنت عليَّ الحرب! تريد أن تأخذ منِّي جون الهنديّ!

ضحكت مان يايا ضحكةً مريرة:

. سوف تفقدينَه في جميع الأحوال.

غمغمتُ:

. كيف؟

لم تحر جوابًا، وكأنَّما لم تُرِدْ أن تُضيف كلمةً إلى ما أفلت منها. وإذ رأت أمِّي التي كانت حاضرةً حديثنا شدَّةَ ضيقي، قالت هامسةً:

. الحقُّ أنَّها خسارةٌ مربحة؛ فهذا الزنجيّ سيُريكِ العجب!

رمتها مان يايا بنظرة عتابٍ، فصمتت. آثرتُ تجاهل كلام أمِّي، واستدرت شطر مان يايا، لا أسألُ غيرها:

. هل تقبلين مساعدتي؟

تكلَّمت أمِّي مجدَّدًا:

. ريحٌ وسفاهة! ما هذا الزنجيُّ إلَّا ريح، وسفاهة!

في نهاية المطاف، هزَّت مان يايا كتفيْها:

. وما الذي تريدين أن أفعل لكِ؟ ألم أعلِّمك كلَّ ما يمكنني أن أعلِّمَه؟ ثم إنِّي قريبًا سأصير عاجزةً عن أن أفعل لكِ أيّ شيء!

رفضتُ مواجهةَ الحقيقة، وسألتها:

. ماذا تقصدين؟

. سأكون بعيدةً جدًّا. سيلزمني وقتٌ طويلٌ لعبور الماء! ثم إنّ الأمرَ صعبٌ!

. لِمَ عليك أن تعبري الماء؟

انهارت أمِّي باكية. يا للعجب! هذه المرأة التي قلَّما أبدت لي جانب الحنان في حياتها، صارت لي، في عالم الغيب، حاميةً بل وشبه متسلِّطة في حمايتها. تملَّكني شيءٌ من استياءٍ، فولَّيت عنها بوجهي تمامًا، وسألت مان يايا مرَّةً أخرى:

. قولي لي يا مان يايا، لِمَ عليكِ أن تعبري الماء لرؤيتي؟

لم تُجبني مان يايا، فأدركت أنَّها على الرَّغم ممَّا تكنُّه لي من حبٍّ، تضطرُّها حالي الفانية إلى التحفُّظ في بعض الأمور. تقبَّلتُ صمتها، وعدت إلى انشغالاتي السابقة:

. أريد أن تموت سوزانا إنديكوت!

بحركة واحدةٍ، قامت أمِّي ومان يايا، وقالت الثانية بشيءٍ من السأم:

. حتى إن ماتت، لا مناصَّ من تحقُّق قدرك. لكنَّك ستكونين قد أفسدتِ قلبك. ستصيرين مثلهم، هم الذين لا يحسنون إلَّا القتل والتدمير. فلتكتفي بأن تسلُّطي عليها مرضًا عضالًا، مرضًا مهينًا!

اختفى الشبحانِ مبتعديْن، وظللتُ أنا في مكاني أقلِّبُ في ما عليَّ أن أختارَه. مرضٌ عضالٌ ومهينٌ؟ أيّ الأمراض أختار؟ حين أتاني الغروبُ بجون الهنديّ، لم أكن قد حسمتُ أمري بعد. كان يبدو أنَّ رجلي قد شُفيَ من مخاوفه، لا بل وأتاني بهديَّةٍ: شريطٌ من مخملٍ بنفسجيٍّ، اشتراه من تاجرٍ إنجليزيّ، ربطه بنفسه في شعري. تذكَّرتُ ما قالته في حقِّه مان يايا وأبِنا أمِّي من كلامٍ سيِّءٍ، فأردتُ أن أُطمئنَ نفسي:

ـ هل تحبّني يا جون الهنديّ؟

أجاب بعذوبةٍ:

ـ أكثر حتى من نفسي. أكثر من ذاك الربِّ الذي تُزعِج به سوزانا إنديكوت آذاننا! لكنَّني في الوقت نفسه أخشاكِ...

ـ لِمَ تخشاني؟

ـ لأنِّي أعرفك عنيفةً! كثيرًا ما أراك مثل إعصارٍ يجتاح الجزيرة، مُخضعًا أشجار جوز الهند، ورافعًا حتى السماء سيفًا رماديًّا بلون الرصاص.

ـ اصمت.. ضاجعني!

يوميْن بعد ذلك، أصيبت سوزانا إنديكوت بتشنُّجٍ عنيفٍ، بينما تقدِّمُ الشايَ لزوجة القسّ. وبالكاد، وجدتْ زوجة القسّ الوقتَ لتخرج أمام الباب، فتنادي على جون الهنديّ الذي كان منهمكًا

في تقطيع الخشب، حتى نزلَ على امتداد فخذَي راعيتنا سائلٌ كريهٌ، مشكِّلًا على الأرضيَّة بحيرةً مزبدةً.

استُدعيَ الدكتور فوكس، وهو رجلُ علمٍ درسَ في أوكسفورد، ونشر كتابًا عنوانُه Wonder of the Invisible World . ولم يكن اختيار هذا الدكتور بعيْنه اختيارًا بريئًا. ذاك أنَّ مرض سوزانا إنديكوت كان مباغتًا، بحيث ما كان يمكنه إلَّا أن يوقظ الشكوك. فعشيَّة اليوم السابق فقط، كانت حازمةً شالها حول جذعها الصلب، ومغطِّيةً شعرها بقلنسوةٍ، تلقِّنُ الأطفالَ تعاليمَ الدِّين المسيحيّ. عشيَّة اليوم السابق فقط، كانت بصليبٍ أزرقَ ترسمُ علامةَ الصليب على البيْض الذي ترسلُ جون الهنديّ ليبيعه في السوق. لربَّما كانت قد أفصحت لمحيطها عمَّا أوقظه فيها من شكوك، خاصَّةً وأنَّ فوكس أتى يفحصها من قدميْها إلى رأسِها. وعلى الرَّغم من نتانة الرائحة المنفِّرة المنبعثة من سريرها، إلَّا أنَّه لم يُبِن شيئًا، وغلَّق على نفسه عندها ثلاث ساعاتٍ. وحين نزل، سمعتُه يوشوش للقسّ وزمرةٍ من رعيَّته.

. بحثتُ في أكثر مناطق جسدها سرِّيّةٍ، ولم أعثر على أثرِ حلماتٍ، صغيرةٍ أو كبيرةٍ، يمكن أن يكون الشيطانُ قد مصَّها منها. وبالمثل، لم أجد أيّ بقعةٍ حمراء أو زرقاء شبيهةٍ بعضَّة برغوث. ولا علاماتٍ غير حسَّاسة، أقصد علاماتِ لدغاتٍ لا تُدمى. ولذا، لا أستطيع أن أقدِّمَ حجَّةً دامغة.

لشدّ ما كنت أودّ أن أحضُر انهيار عدوَّتي، وهي تتحوَّل إلى رضيعةٍ قذرةٍ مقمَّطةٍ بسراويل ملطَّخة! لكنَّ بابها ما كان يُفتَح إلَّا لِتلجَ منه، بهدوءٍ، إحدى صديقاتها الخُلَّص، نازلةً أو صاعدةً بصينيَّةٍ أو آنيَّة.

يقول المثلُ: (حين يغيبُ القطُّ، يرقص الفأر)!

في السبت الذي تلا رقود سوزانا إنديكوت، انطلق جون الهنديّ إلى الرقص! كنت أعلم أنَّه لم يكن مثلي، مخلوقًا كالحًا تربَّى في صحبةِ عجوزٍ لا يعرف سواها، لكنِّي ما كنت أتوقَّع أنّ له هذا العدد من الأصدقاء! لقد هبَّ أصدقاؤه من كلِّ جانبٍ، حتى من أبعد المقاطعات بسان ـ لوسي وسان ـ فيليب. أحد العبيد قضى يوميْن في الطريق من كوبلرز روك. ومن بين الزوَّار، كانت الشابينةُ الفارعة الطول صاحبة منديل المادراس. اكتفت بأن رمتني بنظرةٍ تتّقدُ غيظًا من دون أن تقترب منِّي، وكأنَّما كانت تُدرك أنَّها تواجه خصمًا خطيرًا. أحدُ الرجال كان قد اختلس من متجر سيِّده برميلَ رُم فتحناهُ بضربات مطرقة. وبعد أن دارت كأسان أو ثلاثٌ من يدٍ إلى أخرى، بدأت النفوسُ تسخن. قفز إلى طاولةٍ كونغوليٍّ يشبه لوحَ خشبٍ كثير العقد، وأخذ يصيحُ ملقيًا بالأحاجي:

ـ أصغوا إليَّ أيُّها الزنوج! أصغوا إليَّ جيِّدًا! ما أنا بملكٍ، ولا أنا بملكة. ومع ذلك أجعلُ العالم يضطربُ!

قهقه الحضور:

. الرُّم، الرُّم!

. مهما بلغت ضآلتي، أستطيعُ أن أُنيرَ كوخًا؟

. الشمعة، الشمعة!

. أرسلتُ ماتيلدا لتأتي بالخبز. جاء الخبز قبل ماتيلدا؟

. جوز الهند، جوز الهند!

كنت مرعوبةً، لأنِّي لم أعتد هذا الصخب الطافح، وشيئًا ما أحسُّ بالنفور من هذا الاختلاط. أمسكني جون الهنديّ من ذراعي:

. لا تقطِّبي هكذا، وإلَّا ظنَّ أصدقائي أنَّكِ متغطرسة. سيقولون إنَّ جلدك أسود، لكنَّك تحملين فوقه قناعًا أبيضَ...

زفرتُ:

. ليس هذا سبب تقطيبي، لكن ماذا لو أنّ أحدًا سمعَ جلبتكم، فأنى يستطلع الأمرَ؟

ضحك.

. وإن؟ المنتظر هو أنّ الزنوج يسكرون ويرقصون ما إن يوليهم سادتُهم الظهرَ. لنضطلع بدورنا كزنوجٍ على أكملِ وجهٍ.

لم يطمئنِّي كلامُه. ومع ذلك، أدار لي ظهرَه على الفور، وانخرط في رقصة مازوركا مجنونة.

بلغ الحفلُ ذروتَه حين تسلَّل العبيدُ إلى البيت الذي ترقد فيه سوزانا إنديكوت غارقةً في بولها، وعادوا محمَّلين بحُزَم من ملابس المرحوم زوجها. لبسوا لباسه، وصاروا يقلِّدون تصرُّفات بني جلدته المتَّسمة بالتكلُّف والأبَّهة. أحدهم ربطَ منديلًا حول عنقه ومثَّل دورَ قسّ. تظاهر بأنّه يفتح كتابًا، وشرع يقلِّبُ صفحاته وهو ينشدُ بنبرةِ صلاةٍ ترنيمةً داعرةً. ضحك الجميع حتى دمعت عيونهم، وجون الهنديّ أوَّلهم. بعد ذلك، قفز الرجل إلى برميلٍ، وضخَّم صوتَه:

ـ سأزوِّجكما يا تيتوبا وجون الهنديّ. إن كان ثمَّة من يرى مانعًا يحول دون هذا الارتباط، فليتقدَّم ويُفصح.

تقدَّمتِ الشّابينة الفارعة الطول المعتمرة منديلَ مادراس، ورفعت يدها:

ـ أنا أرى مانعًا دون إتمام الزواج! لقد خلَّفت من جون الهنديّ لقيطيْن يشبهانه، كما تتشابه قطعتان من فئة نصف بنس. ووعدني بالزواج.

كان يمكن لهذه الدعابة أن تعكِّر صفو الحفل، لكنْ لا شيء حدث. وسط عاصفة من ضحك، اتَّخذ القسّ هيئةَ المُلهَم، وقال مرتجلًا:

ـ في إفريقيا، بلدنا الذي أتينا منه جميعًا، من حقّ الرجل أن يتَّخذ من النساء بقدر ما تتَّسع ذراعاه لاحتضانهنَّ. اِمضِ في أمانٍ يا جون الهنديّ، وعِش مع زنجيَّتَيْك.

صفَّق الجميع، وألقى بنا أحدهم، أنا والشابينة، على صدر جون الهنديّ الذي أخذ يغمرنا بالقبل أنا وهي. تظاهرتُ بالضحك، لكنْ ينبغي أن أقول إنَّ دمي كان يغلي في جسدي. طارت الشابينة لتستقرّ على صدر راقصٍ آخر، بعدما ألقت إليَّ بهذه العبارة:

ـ الرجالُ يا عزيزتي خُلقوا لنتقاسمهم.

امتنعتُ عن إجابتها، وخرجت إلى الفرندة.

تواصلت العربدة حتى ساعات الصباح الأولى. والغريب أنْ لا أحد أتى يأمرنا بالصمت!

يومان بعد ذلك، استدعتنا سوزانا إنديكوت ـ أنا وجون الهنديّ. كانت جالسةً على السرير، وظهرها مستندٌ إلى وسائدها، وقد صار لونُ بشرتها في صفرة بولها، ووجهها مهزولًا وجامدًا. كانت النافذة مفتوحةً لطرد الرائحة عن أنوف الزائرين، وكانت رائحة البحر المطهَّرة تغطِّي على ما عداها من روائح. نظرت إليَّ وجهًا لوجهٍ، ومرَّةً أخرى لم أستطع مواجهة نظرتها. وقالت لي مشدِّدةً على كلّ مقطع:

ـ تيتوبا، أعرف أنَّك أنتِ من أنزل بي هذه الحالَ، بواسطة أعمال السحر. إنَّك من المهارة بحيث تستطيعين خداع فوكس وكلّ أولئك الذين يتلقُّون علومهم من الكتب. لكنْ أنا، لا تستطيعين خداعي. أريد فقط أن أقول لك إنَّك اليوم منتصرةٌ. وليكن! لكنْ، اعلمي أنَّ الغدَ ملكي أنا، وسوف أنتقم منكِ.. آه! سوف أنتقم منكِ!

أخذ جون الهنديّ يئنُّ، لكنَّها لم تُعرهُ أيّ اهتمام. واستدارت شطر النافذة معلنةً نهاية المقابلة.

بداية الظهيرة، أتى لزيارتها رجلٌ لم أرَ له مثيلًا من قبل في شوارع بريدجتاون، ولا في أيّ مكانٍ! كان طويلًا، طويلًا جدًّا، يرتدي السّوادَ من رأسه إلى قدميْه، وبشرته بيضاء بياض الطباشير. وإذ كان يتهيَّأ لصعود الدرج، وقع بصره عليَّ، وكنتُ واقفةً في الشفق حاملةً مكنستي وسطلي، فكدتُ أنزلق. لطالما تحدَّثتُ عن عينَي سوزانا إنديكوت. لكنْ هذه المرَّة! تخيّلوا حدقتيْن خضراويْن باردتيْن، يملأهما الدهاء والمكر، تُطلقان الشرّ لأنّهما تريانه في كلّ مكانٍ. كان الأمر أشبه بأن تلفي نفسك أمام ثعبانٍ، أو أحد الزواحف الشرِّيرة المؤذية. اقتنعتُ فورًا بأنَّ الشرِّير الذي صدَّعوا بذكره آذاننا، لا يمكن أن ينظرَ إلَّا كذلك إلى الأفراد الذين ينوي إغواءهم ثم إهلاكهم.

قال، وكان صوته كنظرته باردًا وثاقبًا:

ـ لِمَ تحدِّقين فيَّ هكذا يا زنجيّة؟

فررتُ من أمامه.

ثم، ما إن واتتني القدرة على الحركة، حتى ركضتُ صوبَ جون الهنديّ الذي كان منهمكًا في شحذ سكاكينَ في الفرندة مدندنًا بلحنٍ أنتيلي. ارتميت عليه، ثم استطعتُ أخيرًا أن أنطق متلعثمةً:

. جون الهنديّ، لقد قابلتُ الشيطان!

هزَّ كتفيْه:

. ها أنت ذي قد صرتِ تتحدَّثين كالمسيحيِّين!

ثم إذ لاحظ اضطرابي، ضمَّني إليه، وقال برقَّة:

. إنّ الشيطانَ لا يحبُّ النهار، لن تريه يسير في ضوء الشمس. إنَّه يحبُّ الليل.

قضيتُ الساعات اللاحقة في وجلٍ.

إنَّها المرَّة الأولى التي ألعنُ فيها عجزي. صنْعَتي كان ينقصها الكثير لتبلغ الكمال. لقد تركتْ مان يايا أرض البشر قبل أن تؤهِّلني للدرجة الثالثة من المعرفة، الدرجة الأعلى والأعقد.

فأنا وإن كنت قادرةً على أن اتَّصِل بقوى الغيب، وأن أطوِّع، بمساعدةٍ منها، الحاضرَ، فلم أكن أعرف كيف أفكّ إشاراتِ المستقبل. يظلُّ المستقبل بالنسبة إليَّ كوكبًا دائريًّا، تغطِّيه الأشجارُ المورقة

التي تتداخل أغصانُها، حتى أنْ لا ضوءَ ولا هواءَ يمرُّ من بينها.

استشعرتُ أخطارًا رهيبةً محدقةً بي، لكنَّني عجزتُ عن تعيينِها، لا أبِنا أمِّي، ولا مان يايا، كان بمقدورهما أن تتدخَّلا فتبيِّنا لي الأمرَ.

شهدت تلك الليلةُ إعصارًا.

كنت أسمعه قادمًا من بعيد، يزدادُ شدَّةً وقوَّةً. حاولتْ شجرةُ البمبقاوية بالحديقة أن تقاومَ، لكنَّها استسلمت حوالى منتصف الليل، تاركةً أغصانَها الأعلى تتساقطُ في حطامٍ رهيبٍ. أمَّا أشجار الموز، فقد انحنت طائعةً.. وفي الصباح، كان المشهدُ خرابًا عزَّ مثيلُه.

فوضى الطبيعة تلكَ زادت وعيدَ سوزانا إنديكوت رعبًا على رعبٍ. أَلَيْس الأَوْلى لي أن أُحاولَ إبطالَ ما صنعتْه، بشيءٍ من العجالةِ ربَّما، وأعالجَ راعية تبدو صعبة المراس؟

كنتُ هناك، أقلِّبُ الأمرَ، حين أتت بتسي إنغرسول تُخبرني أنَّ السيِّدةَ تطلبنا.

وقفتُ أمام المرأة المتسلِّطة وأنا في حالِ الموت. لم تبشِّرني بخيرٍ الابتسامةُ الماكرةُ في الفمِ الشاحبِ.

قالت:

. إنَّ ساعتي تدنو...

حسبَ جون الهنديّ أنَّ من واجبه إطلاقَ النحيب، لكنَّها لم تُعره اهتمامًا، وواصلت الكلامَ:

. وإنَّ واجبَ السيِّد في مثل هذه الملابساتِ أن يفكِّرَ في مستقبل أولئك الذين عهد الربُّ بهم إليه: أقصد أطفاله وعبيدَه. لم أعرف سعادةَ الإنجابِ. لكنْ، أنتما يا عبديَّ، قد وجدتُ لكما سيِّدًا جديدًا.

تمتم جون الهنديّ:

. سيِّد جديد، يا سيِّدتي!

. أجل، إنَّه رجلٌ ربَّانيٌّ سيعتني بروحيْكما. كاهنٌ يحمل اسمَ صامويل باريس. كان قد جرَّبَ التجارة هنا، لكنَّ أمورَه لم تسر كما ينبغي. لذا هو عائدٌ إلى بوسطن.

. إلى بوسطن يا سيِّدتي؟

. أجل، في المستعمرات الأميركيَّة. تجهَّزا للذهاب معه.

كان جون الهنديّ مرعوبًا. فهو مُذ وُلد، ألفى نفسه في ملكيَّة السيِّدة سوزانا إنديكوت. علَّمَته قراءة الصَّلوات والتوقيع باسمه. وكان على يقين أنَّه لا بدَّ بالغُ اليومَ الذي يجاهر فيه بخبر عتقه. ثم ها هي ذي بدلًا من عتقه تُغْلِمُه، من غيرٍ

مقدِّماتٍ، أنَّها تبيعُه. وتبيعه لمن يا ربَّاه؟ لرجلٍ غريبٍ سيعبرُ البحر، ناشدًا الثروةَ في أميركا... في أميركا؟ من ذا الذي سبق له أن ذهب إلى أميركا؟

أمَّا أنا، فأدركتُ ترتيبَ سوزانا إنديكوت الرهيبَ. كنتُ أنا المقصودة، أنا وحدي. أنا من كانت تُريد نفيها إلى أميركا! أنا من كانت سوزانا إنديكوت تباعد بينها وبين مسقط رأسها، وتفرِّقُ بينها وبين أحبَّتها الذين لا غنى لها عن صحبتهم. كانت تعرفُ حقَّ المعرفة أنَّني لا أملك أن أعترض. لم تكن تجهل الردّ الذي يمكن أن أحتجّ به. إذ بوسعي أن أقول:

«كلَّا، يا سوزانا إنديكوت! أنا رفيقة جون الهنديّ، لكنَّك لم تشتريني. لا تملكينَ أيّ صكّ ملكيَّةٍ يجعلني سواءً ومقاعدك، ومناضدك، وأسرَّتك، وألحفتك. وبالتالي، لا تستطيعين بيعي لهذا السيِّد من بوسطن، ولا هو يستطيع أن يضع يده على أملاكي».

نعم، لكن إن قلتُ ذلك فرَّقت بيني وبين جون الهنديّ! أليست سوزانا إنديكوت مبدعةً في القسوة؟ ومن فينا الأخطرُ، أنا أو هي؟ في نهاية المطاف، إنَّ المرض والموت مقدَّران ومكتوبان في سجلِّ حياةِ الإنسان، ولم أعمل أنا إلَّا على التعجيل بظهورهما في حياة سوزانا إنديكوت! أمَّا هي، فأيُّ عبثٍ تعبثُ بأيَّامي؟ سجد جون الهنديّ، ولفَّ السرير على أربعٍ. بلا فائدة! ظلَّت سوزانا صلبةً لا تلينُ، تحت ظُلَّةِ سريرها الذي كانت ستائرهُ

المُزاحةُ أشبه شيءٍ بإطارٍ من ثنيات مخمليَّة.

نزلنا من عندها ونحن في حالِ الموتِ.

في المطبخ، وأمام الموقد الذي تغلي فوقه شربةُ خضار، كان القسّ يتحدَّثُ مع رجلٍ. استدار الرجلُ لوقع خُطانا، فتعرَّفتُ، في صمتٍ مخيفٍ، الرجلَ الذي كان قد أرعبني أمس. اجتاحني شعورٌ رهيبٌ، أتت تؤكِّدُه كلماتُه التي نطقها بصوتٍ منتظمٍ، ومع ذلك قاطعٍ كساطورٍ. صوتٍ لا نبرةَ فيه، ومع ذلك محمَّلٍ بعنفٍ قاتل:

. على ركبتيْكما يا نفاية جهنَّم! أنا سيِّدكما الجديد! اسمي صامويل باريس. غدًا ما إن تفتح الشمسُ عينيْها، سننطلقُ على متن مركب بليسينغ. زوجتي وابنتي بِتسي وأبيغايل، ابنةُ أخي زوجتي المسكينةُ التي كفلناها بعد وفاة والديْها، كلَّهنّ قد صرنَ الآن على متن المركب.

- 5 -

على جسر المركب الشراعيّ، أجثاني سيِّدي الجديد على ركبتيّ، بين الحبال والبراميل والبحَّارة الساخرين، وصبَّ على جبهتي سيل ماءٍ صقيعيّ. ثم أمرني بأن ألحق به إلى كوثل السفينة، حيث يوجد جون الهنديّ. أمرنا بأن نجثو على ركبتيْنا جنبًا إلى جنب. ثم تقدَّم، وأخذ ظلُّه يغطِّينا حاجبًا نور الشمس.

- جون وتيتوبا الهنديّ، أعلنكما مرتبطيْن برابطة الزواج المقدَّسة، لتعيشا في سلام إلى أن يفرِّقكما الموت.

تمتم جون الهنديّ:

- آمين!

أمّا أنا، فما استطعتُ أن أنطق بكلمة. شفتاي كانتا ملتحمتيْن بعضهما ببعض. على الرَّغم من الحرِّ الخانق، كنت أشعر بالبرد. بين عظمتَي كتفيَّ، كان يتلألأ عرقٌ باردٌ، كأنَّما أنا مقبلة على أن أُصاب بالمالاريا أو الكوليرا أو التيفوئيد. ما كنت أجرؤ على النظر في اتِّجاه صامويل باريس لفرط ما كان يقذفه في نفسي من رُعب. حولنا، كان البحر أزرق غامقًا، والساحلُ الذي لا يُحدُّ أخضرَ كامدًا.

ـ 6 ـ

كان ثمَّة شخصٌ آخر يشاركني النفور من صامويل باريس، ولم أُبطئ في كشفه: زوجتُه إليزابيث.

كانت امرأةً ذات ملاحَةٍ عجيبة، شعرُها الجميلُ، المتستِّر بصرامةٍ تحت قلنسوةٍ، يحوط رأسَها كهالةٍ من نور. كانت مغلَّفة بالشالات والأغطية كأنَّما ترتجفُ بردًا، على الرَّغم من طقس المقصورة الدافئ والمعزول. ابتسمتْ لي وقالت بصوتٍ عذبٍ عذوبةَ نهر أورموند:

ـ هل أنتِ هي تيتوبا؟ ما أقسى فراق الأهل. فراق أبيك وأمّك وشعبك...

فاجأتني مواساتُها. فقلت بهدوء:

ـ لحسن الحظِّ، عندي جون الهنديّ.

انقلب وجهُها العذبُ:

ـ ما أسعدكِ إن كنتِ تعتقدين أنَّ الزوجَ يمكن أن يكون رفيقًا طيِّبًا، أو إن لم تكن تسري في ظهرك رجفةٌ، حين يضع يده عليكِ!

وعند هذا الحدِّ سكتَت، كأنَّما قالت أكثر ممَّا ينبغي لها.

سألتُها:

- سيِّدتي، لا تبدين في حالٍ جيِّدة! ممَّ تعانين؟

ضحكتْ ضحكةً لا أثر فيها لفرحٍ، وقالت:

- أكثر من عشرين طبيبًا تتالوا على الوقوف عند رأس سريري، ولا أحد منهم استطاع معرفةَ مكمن الداء. كلُّ ما أعرفُه هو أنَّ حياتي بأكملها عذاباتٌ لا تنقضي! حين أقفُ يدور رأسي. أحسّ بالغثيان كأنَّما أحملُ في أحشائي طفلًا، مع أنَّ السماء أنعمتْ عليَّ بطفلةٍ واحدةٍ فقط. أحيانًا، تجتاح بطني آلامٌ لا تُطاق. فتراتُ حيضي أشبه بالتعذيب، وقدمايَ على الدوامِ أشبهُ شيءٍ بقطعتَي جليد.

زفرتْ زفرةً، وعادت تستلقي على المرقد الضيِّق، وسحبتْ فوقها غطاءَ الصوف الخشن حتى عنُقها. دنوتُ منها، فأشارت إليَّ أن أجلسَ بقربها، وهمستْ لي:

- ما أجملك يا تيتوبا!

- جميلة؟

نطقتُ الكلمة غير مصدِّقةٍ، إذ إنَّ المرآة التي وضعها أمامي كلٌّ من سوزانا إنديكوت وصامويل باريس جعلتني أظنُّ العكسَ. شيءٌ ما انفرجَ داخلي، وقلت لها مدفوعةً برغبةٍ لا تُقاوم:

- سيِّدتي، دعيني أعالجك.

ـ كُثُرٌ قبلك حاولوا وما نجحوا! لكنَّ الحقَّ أنَّ يديْكِ رقيقتيْن. رقيقتيْن كزهورٍ مقطوفة.

قلتُ ساخرةً:

ـ هل سبق لكِ أن رأيتِ زهورًا سوداءَ؟

فكَّرت لحظةً، ثم قالت:

ـ كلَّا، لكن إن وُجدت، فستكون شبيهةً بيديْكِ.

وضعتُ يدي على جبينها، ويا للمفارقة: كانَ متجمِّدًا ومتفصِّدًا عرقًا. ممَّ كانت تُعاني؟ خمَّنتُ أنَّها الروحُ التي تجرُّ في طريقها الجسَد، مثلما هو الشأن دائمًا في أمراض بني البشر.

في تلك اللحظة، فُتح البابُ بدفعةٍ عنيفةٍ، ودخل صامويل باريس. ولن أستطيع أن أحدِّد أيُّنا كانت الأشدَّ رعبًا. لم يرتفع صوتُ صامويل باريس ولا درجة. ولم يصعد الدمُ إلى وجهه الطباشيريّ. اكتفى بأن قال:

ـ هل جُننتِ يا إليزابيث؟ كيف تسمحين لهذه الزنجيَّة بأن تجلس بجانبك؟ اخرجي يا تيتوبا، هيَّا بسرعة!

أطعتُ أمرَه.

الريحُ الباردة على جسر السفينة تفعلُ فيَّ فعلَ الموبِّخ. ماذا؟ لقد تركتُ هذا الرجل يعاملني

معاملةَ البهيمة، من غير أن أنبس بكلمة؟ كنت أتهيَّأ لأن أغيِّر رأيي، وأعود إلى المقصورة، وإذا بنظري يقع على نظرِ فتاتَيْن، متلفِّعتيْن في فستانيْن أسودَيْن طويليْن، عُلِّقت فوقهما مريلتان بيضاوان، وتعتمران قلنسوتيْن لا تتركان شعرةً واحدةً من رأسيْهما تظهرُ. لم يسبق لي أبدًا أن رأيتُ أطفالًا يرتدون ملابس بهذه الفظاعة. إحداهما كانت نسخةً مطابقةً للمسكينة المنعزلة التي تركتُها قبل قليل. سألتني:

. أنتِ هي تيتوبا؟

عرفت في كلامها نبرةَ أمّها اللطيفة.

أمَّا البنت الثانية، التي تكبرُ الأولى بسنتيْن أو ثلاث، فكانت تحدِّقُ فيّ بغطرسةٍ لا تُطاقُ.

قلت لهما بلطفٍ:

. هل أنتما طفلتا السيِّد باريس؟

أجابتني الكبرى:

. هي بِتسي باريس. أنا أبيغايل ويليامز، قريبة القسّ.

لم أعرف الطفولةَ. ظلُّ مشنقة أمِّي أظلمَ كلّ السنواتِ التي كنتُ لأعيشها في لهوٍ وخلوِّ بال. ولأسبابٍ مختلفةٍ قطعًا عن تلك التي عرفتُها، خمَّنتُ أنَّ بتسي باريس وأبيغايل وليامز كانتا هما

أيضًا محرومتيْن من طفولتهما، سُلب منهما إلى الأبد رأسمالُ الخفَّةِ والعذوبة. خمَّنتُ أنَّه لم تُغنَّ لهُما قطُّ تهويدةٌ، ولا حُكيت لهما حكايةٌ مفعمةٌ بمغامراتٍ متخيَّلةٍ، مغامراتٍ سحريَّة وخيِّرة. غمرتني شفقةٌ عميقةٌ نحوهُما، خاصَّةً الصغيرة بتسي، الجميلة جدًّا والمهيضة الجناح.

قلتُ لها:

ـ تعالَي، لأضعك في السرير، تبدين متعبةً جدًّا.

تدخَّلت الصبيَّةُ الأخرى:

ـ ماذا تقولين؟ إنَّها لم تصلِّ بعدُ صلواتها. هل تريدين أن يضربها عمِّي بالسَّوْط؟

هززتُ كتفيَّ وواصلتُ طريقي.

كان جون الهنديّ جالسًا في مؤخَّرِ جسر السفينة، وسط حلقةِ بحَّارةٍ، لا أدري أيَّ لغوٍ يلغو عليهم. الغريبُ أنَّ جون الهنديّ الذي أفرغ كلّ ما فيه من دموع وهو يرى جزيرتَنا الحبيبةَ باربادوس تنمحي خلف الضباب، ما لبث أن سلاها. كان ينجز للبحَّارة أعمالًا كثيرةً، فيحصل منهم على قِطَعٍ نقديَّة تمكِّنه من أن يخالطهم اللعبَ ومعاقرةَ الرُّم.

الآن، هوَذا يلقِّنُهم أغنيةَ عبيدٍ قديمة، يدندنُها بصوتِه الرخيم:

«موغوي (13)، إه، موغوي إه

هنا الديك غنّى كوكييوكو...»

آه! ما أطيَش هذا الرجُلَ الذي اختارَه جسدي! لكنْ، لربَّما ما كنت لأحبّه لو أنَّه كان مثلي قد خيطَ من نسيجِ حِدادٍ حزينٍ.

لمَّا رآني أقتربُ، أسرعَ إليَّ تاركًا خلفَه جوقةَ التلاميذ تحتجُّ في صخبٍ. أمسكني من ذراعي ووشوشني:

. ما أغربَه من رجلٍ مالكُنا الجديدُ هذا! تاجرٌ فشِلت تجارتُهُ فعادَ في عمرٍ متأخِّرٍ يستأنفُ حياتَه من حيثُ تركها...

قاطعتُه:

. لا رغبة عندي في سماع كلام النميمة.

دُرنا محيطَ جسرِ السفينة، ثم آوينا إلى موضعٍ خلفَ كومةٍ من براميل قصب السكَّر كانت متَّجهةً إلى ميناء بوسطن. كان القمرُ قد بزغَ، وبدا هذا الجُرمُ الخجولُ يُضاهي ضياءً جُرمَ النهارِ. لجأتُ إلى حضن جون الهنديّ، وبدأتْ أيدينا تتلمَّس جسدَيْنا، وإذا بنا نسمع وقعَ خطواتٍ ثقيلة يهتزّ لها خشبُ الأرضيَّة والبراميل. كانت تلك خطوات صامويل باريس. وإذ رأى الوضع الذي كنّا فيه، سرى في خدَّيْه الشّاحبيْن قليلٌ من الدمِ، وبصق مثل ثعبانٍ سامٍّ:

ـ لا ريب في أنَّ لونَ جلدِكما علامةٌ على لعنتكما الأبديَّة، لكنْ ما دمتما تحت سقفي، فستتصرَّفان كمسيحيَّيْن! هيّا إلى الصلاة!

أطعناه.

كانت السيِّدة باريس والبنتان، أبيغايل وبتسي، هناك جاثيات على ركبهنَّ في إحدى المقصورات. وقف السيِّد، رافعًا عينيْه إلى السقف، وجعلَ يصيحُ. وما كنت أنا أفقه كثيرًا ممَّا يقول، اللهمَّ إلَّا تلك الكلمات التي سمعتُها كثيرًا من قَبلُ: الخطيئة، الشرّ، الشرِّير، الشيطان، إبليس... وكانت اللحظةُ الأشقُّ عليَّ هي لحظة الاعتراف. كان على الجميع أن يعترفوا بملء الصوت بخطاياهم التي ارتكبوها نهارًا، فسمعتُ الطفلتيْن المسكينتيْن وهما تردِّدان متلعثمتيْن:

ـ لقد شاهدتُ جون الهنديّ يرقص على جسر السفينة.

ـ نزعتُ غطاء رأسي وتركتُ الشمس تداعبُ شعري.

وعلى طريقته المعتادة، اعترف جون الهنديّ بكلِّ التهريج الذي قام به، ونجا بنفسه، إذ اكتفى السيِّد بأن قال له:

ـ ليغفر لك الربُّ يا جون الهنديّ! اذهب ولا تعد إلى الخطيئة!

حين أتى دَوْري، اجتاحني ضربٌ من الغضب، هو

ليس قطعًا إلَّا الجانب الآخرَ من الخوف الذي يبثُّهُ صامويل باريس في نفسي، فقلتُ بصوتٍ حازمٍ:

ـ لِمَ عليَّ أن أعترف؟ إنَّ ما يجري في قلبي وعقلي لا يخصُّ أحدًا سوايَ.

لطمني.

يده الجافَّةُ القاطعة ضربت فمي فأدمته.

وحين رأت السيِّدة باريس خيط الدم يسيل من فمي، قامت واقفةً وصاحت بغضبٍ:

ـ صامويل، ليس من حقّك..!

بدورها، تلقَّت لطمة منه. أدماها هي أيضًا. رسَّخ الدمُ رباطَنا. أحيانًا، تُعطي أرضٌ قاحلةٌ مجدبة وردةً بديعة اللون، تُزيِّنُ وتُضيءُ المنظرَ [القاحلَ] حولَها. لا يمكنني أن أصف إلَّا على ذلك النحو، الصداقةَ التي ما لبثت أن ألَّفت بيني وبين السيِّدة باريس والصغيرة بتسي. معًا، اخترعنا ألفَ حيلةٍ لنتمكَّن من اللقاء في غيابِ الشيطان المدعوّ المبجَّلَ باريس. كنت أمشِّط شعرهما الذي ما إن ينفكّ من إسار الضفائر والكعكات حتى يبلغَ كاحليْهما. بزيتٍ، علَّمتني مان يايا سرَّهُ كنتُ أدعكُ بشرتيْهما العليلتيْن الشاحبتيْن، فتستعيدان تحت يديَّ نضارتهما، وتتحوَّلان شيئًا فشيئًا إلى اللون الذهبيّ.

وذات يومٍ، بينما أدعك جسدها، جرؤت على

سؤالها:

. سيِّدتي، ماذا يقول زوجك القاسي في التحوُّل الذي يشهده جسدُك؟

قهقهت:

. عزيزتي المسكينة تيتوبا، كيف له أن ينتبه؟

رفعت عينيّ إلى السماء:

. كنتُ أحسبُ أن لا أحد يملك أن يلاحظَ ذلك أفضل منه!

قهقهت بصوتٍ أعلى:

. لو تعلمين! إنَّه يجامعني من دون أن ينزع ملابسي أو ملابسه، مستعجلًا الانتهاء من هذا الفعل الدنس.

احتججتُ عليها:

. دنس؟ بالنسبة إليَّ هو أجملُ فعلٍ في هذا العالم. دفعت يدي بينما أواصلُ الشرح:

. أولَيس هو الفعل الذي يُديمُ الحياةَ؟

امتلأت عيْناها رعبًا ونفورًا:

. اصمتي، اصمتي! إنَّه بقايا الشيطانِ فينا.

بدت مصدومةً جدًّا، حتى إنِّي لم ألحَّ في القول. في العادة، لا تسلك أحاديثي والسيِّدة باريس هذا المسلك. كانت تروقها الحكايات التي أمتِّع بها بِتسي: حكاية العنكبوت أناناس، والمسوخ المتعاقدين (14)، والسوكونيانيّين (15)، ووحش مان إيبي الذي يخبُّ على ظهر حصانه ذي الأرجل الثلاث. كانت تُصغي إليَّ بالحماسة نفسها التي تُصغي بها إليَّ ابنتها، عيناها العسليَّتان تتلألأ فيهما نجومُ الفرح، وتسألني:

ـ معقول يا تيتوبا؟ هل من الممكن أن يخرج الإنسان من جلده ويصير روحًا تجولُ الأماكن طاويةً المسافات؟

أومئ برأسي موافقة:

ـ أجل، ذلك ممكن!

تلحُّ:

ـ لا بدّ من أنَّهم يتنقَّلون على عصا مكنسة؟

أضحكُ مقهقهة:

ـ يا لها من فكرةٍ حمقاءَ، فيمَ نحتاجُ عصا مكنسة؟

تظلُّ في حيرةٍ.

لم يكن يعجبني أن تأتي الصبيَّة أبيغايل فتنحشر

بيني وبين بِتسي. كان فيها قطعًا شيءٌ ما يقلقني. طريقتها في الإصغاء والنظر إليَّ، كأنَّما أنا شيءٌ مثيرٌ للشفقة وجذَّابٌ في آنٍ! بطريقةٍ آمرةٍ، كانت تطلب منِّي توضيحاتٍ عن كلّ شيءٍ:

. أيّ عباراتٍ ينطقها المتعاقدون قبل أن يبدِّلوا جلدَهم؟

. كيف يشرب السوكونيانيُّون دماءَ ضحاياهم؟

كنت أجيبها إجاباتٍ ملتوية. والحقُّ أنِّي كنت أخشى أن تنقل أحاديثنا لعمِّها، صامويل باريس، فيخبو شعاع المتعة الذي يُضيء حياتنا. لم تقل شيئًا. كانت تملك قدرةً عجيبةً على المواربة. لم تُلمح قطّ، أثناء صلوات المساء، إلى ما يُمكن أن يعدَّه باريس خطايا لا تُكفَّرُ. كانت تقصر اعترافها على:

. وقفتُ على جسر السفينة كي يرشّني الرذاذ.

. ألقيت بنصف عصيدتي في البحر.

فيبرِّئها صامويل باريس قائلًا:

. اذهبي يا أبيغايل، ولا تعودي إلى الخطيئة!

ثم شيئًا فشيئًا قبلتُ، مراعاةً لبيتس، بأن تنضمَّ إلى صحبتنا.

وذات صباحٍ بينما أصبُّ لسيِّدتي باريس قليلًا من

الشاي الذي يوائمُ معدتها أفضل من العصيدة، قالت لي بلطفٍ:

- لا تقصِّي على الطفلتيْن تلك القصص كلَّها! إنَّ القصص تجعلهما يحلمان، والحلمُ ليس بالأمر الجيِّد!

هززتُ كتفيَّ:

- ولِمَ الحلمُ ليس بالأمر الجيِّد؟ أليس الحلمُ بأفضل من الحقيقة؟

لم تحر جوابًا، وظلَّت صامتةً برهةً طويلةً، ثم ما لبثَتْ أن استأنفت الكلامَ:

- تيتوبا، ألا ترين أنَّ من اللعنة أن يكون الإنسانُ امرأةً؟

غضبتُ، وقلت:

- سيِّدتي باريس، أنتِ لا تتحدَّثين دومًا إلَّا عن اللعنة! أيّ شيءٍ أجملُ من جسد امرأةٍ! خاصَّةً حين يَيْنَع برغبةِ رجلٍ...

صاحت:

- اصمتي! اصمتي!

كانت تلك اللحظة الوحيدة التي تخاصمنا فيها. والحقّ أنّي لم أفهم لخصامنا سببًا.

وذات صباحٍ، وصلنا إلى بوسطن.

أقول إنَّ وقت وصولنا كان صباحًا، مع أنَّ لون النهار ما كان يفصح بذلك. ستارٌ رماديٌّ كان يهبط من السماء فيطوي في تضاعيفه غابة صواري السفنِ، وركام البضائع على الرصيف، وهيئةَ المستودعاتِ المصمتة. ريحٌ جليديَّةٌ تهبُّ، وأنا وجون الهنديّ نرتجف في ملابسنا القطنيَّة. وعلى الرَّغم ممَّا يرتدينَه من شالاتٍ، كان حالُ السيِّدة باريس والطفلتيْن مثل حالنا. وحده السيِّدُ كان يقفُ برأسٍ مرفوع تحت قبَّعته السوداء العريضة الحواشي، كأنَّه شبحٌ وسط الضوء المغبَّش المشوَّش. نزلنا إلى الرصيف، جون الهنديّ يسحقه ثقلُ البضائع، بينما تلطَّف صامويل باريس ودعا زوجته إلى أن تتأبَّط ذراعَه. أمَّا أنا، فأخذت بيدَي البنتيْن.

ما كنتُ لأتخيَّل أبدًا وجود مدينةٍ مثل بوسطن، مدينة تملؤها منازلُ بهذا العلوِّ، وحشدٌ هائلٌ من الناس يمشون في الطرقات المبلَّطة، وتضجُّ بالعربات التي تجرّها الثيران أو الأحصنة. رأيت العديد من الوجوه التي تماثلني لونًا، فأدركتُ أنَّ أبناء إفريقيا يدفعون هنا أيضًا حصَّتهم من الشقاء.

كان يبدو أنَّ صامويل باريس يعرف المكانَ حقَّ المعرفة، إذ لم يتوقَّف ولا مرَّةً واحدة ليسألَ عن الطريق. مبلَّلين حتى العظام، بلغنا أخيرًا منزلًا

واجهته مزيَّنةٌ بأعمدةٍ أفتحَ لونًا. ترك صامويل باريس ذراع زوجته، وقال كأنَّما يتحدَّثُ عن أجملِ منزلٍ في الدنيا:

ـ هنا!

كانت تملأ المكانَ رائحةُ الانغلاق والرطوبة. لوقع خطانا فرَّ جُرذَان، بينما قامَ بتكاسلٍ قطٌّ أسودُ، كان يغفو في الرماد والغبار، وانتقل إلى الغرفة المجاورة. وليس بمقدوري أن أصف الأثر الذي خلَّفَه هذا القطُّ الأسودُ المسكين في الطفلتيْن، كما في إليزابيث وصامويل باريس. لقد سارع السيِّدُ إلى كتاب صلواته، وانطلق في صلاةٍ لا نهايةً لها. وحين هدأت نفسه قليلًا، قامَ واقفًا وراح يُصدرُ الأوامرَ:

ـ تيتوبا، نظِّفي هذه الغرفة، ثم حضِّري الأسرَّةَ. وأنت يا جون الهنديّ، تعال معي نشتري حطبًا!

ومرَّةً أخرى، لجأ جون الهنديّ إلى تلك الأساليب التي لشدَّ ما كرهتها:

ـ نخرج، يا سيِّدي! في هذا الجوِّ العاصف الماطر! أتريد إذن أن تضيِّع نقودك قريبًا في شراءِ ألواحِ تابوتي؟

من دون أن ينبس بكلمةٍ، نزع صامويل باريس عن جسمه رداءَ القماش الأسود الذي كان يرتديه، وألقى به إلى جون الهنديّ.

وما كاد الرجلان يخرجان حتى تساءلتْ أبيغايل بصوتٍ لاهثٍ:

ـ خالتي، كانَ ذاك الشرِّير، أليس كذلك؟

تشنَّج وجه إليزابيث باريس، وقالت:

ـ اصمتي!

سألتُها وقد اعتراني الفضول:

ـ عمَّ تتحدَّثين؟

ـ عن القطّ! القطّ الأسود!

ـ ما الذي تقولينه؟ إنّه مجرَّد حيوانٍ، أثاره وصولنا! ولمَ تتحدَّثين دومًا عن الشرِّير؟ إنّ اللا ـ مرئيِّين الذين يُحيطون بنا، لا يؤذوننا إلّا إن نحنُ آذيناهم. والمؤكَّد أنَّ من في سنِّك لا ينبغي أن تخشى ذلك!

نفخت أبيغايل:

ـ كذّابة! أيَّتها الزنجيَّة البائسة الجاهلة! إنَّ الشرِّير يعذِّبنا جميعًا. كلّنا فرائسُ له. ستلحقنا اللعنة جميعًا، أليس كذلك يا خالتي؟

حين رأيتُ مبلغَ تأثيرِ كلامها في السيِّدة باريس، وخاصَّةً في الصغيرة بِتسي، قاطعتُها فورًا.

لا أدري ما إذا كان السببُ حوارنا ذاكَ، أو جوُّ البرد الذي ظلَّ مخيِّمًا على المنزل، على الرَّغم من النار التي أضرمها جون الهنديّ؛ المهمّ أنَّه في تلك الليلة، تدهورت صحَّةُ سيِّدتي باريس. أتى صامويل باريس يوقظني حوالي منتصف الليل:

ـ أعتقدُ أنَّها ستغادرنا!

لم يكن ثمَّة في صوته أيُّ نبرة تأثُّرٍ. إنَّما هي فقط نبرةُ من يُعاينُ واقعًا!

عزيزتي المسكينةُ اللطيفة إليزابيث ستموت؟ وتترك الطفلتيْن بمفردهما مع هذا الوحش؟ يموتُ حمَلِي الوديع المعذَّبُ، قبل أن يتعلَّم أنَّ الموت ليس إلَّا بابًا يعرفُ المطَّلعون كيف يتركونه مُشْرَعًا؟

هرعتُ بملابس النوم مستعجلةً إنقاذها. لكنَّ صامويل باريس أوقفني:

ـ ارتدي ملابسك!

بؤسًا لرجلٍ يفكِّرُ في الحشمةِ وزوجتُه على فراش الموت!

حتى اللحظة، لم ألجأ إلى أيِّ ظاهرةٍ فوق ـ طبيعيَّة لمعالجة إليزابيث باريس. كنت أكتفي بأن أدفِّئها، وأجبرها على ابتلاع مشروباتٍ حارقة. الحرِّيَّة الوحيدة التي سمحتُ لنفسي بها هي أن أدسَّ لها قليلًا من الرُّم في شاي الأعشاب. وتلك

الليلة، قرَّرتُ اللجوء إلى موهبتي.

مع أنِّي كنت أفتقر إلى العناصر الضروريَّة لصنعَتي: الأشجارُ ـ الأضرحة التي تأوي اللامرئيّين؛ التوابل الضروريَّة لأطباقهم المفضَّلة؛ والنباتات والجذور ذوات الخصائص العلاجيَّة.

ماذا عسايَ أن أفعل في هذا البلد الغريب الذي لا يرحم؟

قرَّرت أن أتوسَّل ببعض الحِيَل.

حلَّت محلَّ شجرةِ البمبقاويَّة شجرةُ قيقبٍ، مالت أوراقُها إلى الحمرةِ. وبدلًا من أعشاب غينيا، استعملتُ أوراقَ بَهشيَّةٍ حادَّة برّاقة. وعوَّضَت زهورٌ صفراءُ عديمةُ الرائحةِ نبتةَ السالابرتوس، التي تعدُّ ترياقًا لكلِّ أدواء الجسم، ولا تنبتُ إلَّا في منتصف ارتفاع الكثبان. وتكفَّلت صلواتي بما تبقَّى.

في الصباح، استعادت وجنتا سيِّدتي إليزابيث باريس لونهما. وحوالى منتصف النهار، تمكَّنت من أن تتغذَّى. وحين حلّ المساء، نامت كرضيعٍ.

ثلاثة أيَّامٍ بعد ذلك، ابتسمت لي ابتسامةً مرتبكةً، كالشمسِ حين تتسلَّلُ من المَناوِر.

ـ شكرًا يا تيتوبا! لقد أنقذتِ حياتي!

بقينا نحو عامٍ في بوسطن، ذاك أنَّ صامويل باريس كان ينتظر أن يعرض عليه إخوانُه في الدين، البيوريتانيين، أبرشيَّةً. للأسف، لم يتلقَّ عرضًا! وسبب ذلك، على ما أظنُّ، شخصيَّةُ باريس نفسها. فعلى الرَّغم من شدَّة تعصُّب إخوانه في العقيدة وظلاميَّتهم، إلَّا أنَّهم لا يضاهونه البتَّة في ذلك؛ فضلًا عن أنَّ سيماءَه الغضوبَ، ودوام التوبيخ والوعظِ في فمه، كانت تبثّ الرعبَ. وما لبث المال القليل الذي ادَّخره من سياحته التجاريَّة في باربادوس أن ذاب كشمعةٍ، فألفينا أنفسنا في أقسى المصاعب. حتى إنَّنا أحيانًا ما كنَّا نجد ما نأكله إلَّا التفَّاح المجفَّف. وما كان لدينا حطبٌ نصطلي به، فنظلُّ نرتجفُ بردًا.

إذّاك تمكَّن جون الهنديّ من أن يعمل أجيرًا في حانة تُسمَّى The Black Horse . كانت مهمَّته تعهّدَ النار في مدفآتٍ هائلة يستدفئ بها الزبائنُ، وكنسَ المكانِ، والتخلُّص من النفايات. أتاني مع أوَّل أشعَّة الصباحِ، يفوح برائحة البراندي أو الستوت، وقد أخفى في ملابسه جبالًا من الطعام. حكى لي بصوتٍ ثقيلٍ نعسان:

- لو ترين، يا ملكتي، أيّ حياةٍ يعيشُها القومُ هنا في مدينة بوسطن هذه، على بعد خطواتٍ من رقباء الكنيسة أمثال صاحبنا صامويل باريس، لما صدَّقتِ عينيْك أو أذنيْك! مومساتٌ، بحَّارةٌ، بأقراطٍ في الآذان، وقباطنةٌ بشعرٍ دهنيٍّ تحت قبَّعاتهم

ذوات الحواشي الثلاث، بل وحتى رجالٌ محترمون من العارفين بالكتاب المقدَّس، ممَّن لديهم بيتٌ وزوجةٌ وأبناء. كلّ أولئك الناسُ يسكرون ويشتمون، ويزنون. آهٍ يا تيتوبا، إنَّك لن تستطيعي أبدًا أن تفهمي نفاق عالمِ البِيض!

وضعتُه في السرير وهو ما يزالُ يثرثر.

بفضل طبعه المرح، ما لبث أن صار لديه الكثير من الأصدقاء، وكان ينقل إليَّ ما يدور بينهم من أحاديث. أخبرني أنَّ تجارة الرقيق ما انفكَّت تتزايدُ. صار الآن أبناء جلدتنا يُؤخذون من إفريقيا بالآلاف. وأخبرني أنَّنا لم نكن الشعبَ الوحيدَ الذي يستعبدُه البيضُ، وإنَّما يفعلون ذلك أيضًا مع الهنود، سكَّانَ أميركا الأصليِّين مثلما هو الشأن مع بلدنا العزيز باربادوس.

كنت أنصتُ إليه مذهولةً ثائرة، وهو يقول:

- في حانةBlack Horse ، يعملُ هنديَّانِ. لو تَرَيْن كيف يعاملونهما. لقد أخبراني كيف انتزع البيضُ الأراضي، وأبادوا القطعان، ونشروا بين الناس «ماء النار(16)» الذي يقود المرء سريعًا إلى قبره. آهٍ من البيضِ!

كانت تلك القصص تتركني حائرةً، فأحاولُ أن أفهم:

- ربّما لفرطِ ما فعلوه من شرٍّ بكلِّ البشرِ، بهؤلاء

لأنَّهم سودُ البشرةِ، وبأولئك لأنَّهم حُمر البشرة، يعتريهم إحساسٌ شديدٌ بأنَّهم ملعونون؟

كان جون الهنديّ عاجزًا عن الإجابة عن تلك التساؤلات التي لم تخطرُ له أصلًا ببالٍ. من بيننا، نحن الاثنيْن، كان هو قطعًا الأقلَّ شقاءً!

مؤكَّدٌ أنّ صامويل باريس لم يكن يُسِرُّ إليَّ بخواطره، لكنْ لرؤيته محبوسًا في البيت كحيوانٍ في قفص، يصلّي بلا توقُّف أو يتصفَّح كتابه الخطيرَ، كان يسهل عليَّ أن أخمِّن مجريات الأمور! حضوره الدائمُ كان يفعلُ فينا فعلَ جرعةٍ مريرة. ما عادت تجمعنا الأحاديثُ المختلسة العذبة، ولا القصصُ المرويَّةُ على عجلٍ، ولا الأغاني الخافتة! بدلًا من ذلك، قرَّر أن يعلِّم بِتسي القراءة والكتابة، واختار تقطيعًا أبجديًّا عجيبًا:

أ ـ أبونا آدم، في إثر سقطته،

كلّنا ساقطون.

ب ـ بالكتاب وحده،

يمكنُ أن ننقذ حياتنَا.

ج ـ الجروُ يلهو،

لكنْ بعد السلخ...

وهكذا.. أخذت المسكينة بِتسي، وهي الهشَّة

والحسَّاسة جدًّا، تشحبُ وترتجفُ.

كان علينا انتظار منتصف أبريل، حينَ صفا الجوُّ، لكي يتَّخذَ عادةَ الخروج في جولاتٍ قصيرة بعد الغداء. وكنت أغتنم الفرصة، فآخذ الطفلتيْن إلى الحديقةِ الممتدَّةِ خلف البيت، وننخرطُ في ألعابٍ، وأيّ ألعابٍ! أيّ جولاتٍ جامحةٍ! كنت أنزع عنهما القلنسوات القبيحة التي تضفي عليهما منظرَ امرأتيْن مسنَّتيْن، وأفكّ أحزمتها كي يدور الدم في جسمهما، ويُغرِقَ العرقُ الصحِّيُّ جسديْهما. وكانت إليزابيث باريس، واقفةً عند عتبة الباب، تنصحني بصوتٍ واهنٍ:

. انتبهي يا تيتوبا! إيَّاكِ أن يرقصا!

ومع ذلك، ما تكاد تمرُّ لحظةٌ بعد تحذيرها ذاك، حتى نلفيها منخرطةً معنا، تضربُ بحماسةٍ على إيقاع رقصاتنا.

سُمح لي بأن آخذ الصغيرتيْن حتى رصيف لانغ وارف، حيث كنَّا نتابعُ المراكبَ في البحر. في الجانبِ الآخرَ من هذا السائلِ الممتدّ، ثمَّةَ نقطةٌ: بربادوس.

ما أعجبهُ حُبَّ الوطن! نحملُه معنا كما نحملُ دماءنا، كما نحملُ أعضاءنا. ويكفي أن يُفرَّقَ بيننا وبين أرضنا، لنُحسَّ وجعًا يصعدُ من أعمقِ أعماقِ كياننا، وجعًا لا يهدأ. كنت أرى مزارع دارنيل ديفيز، المسكنَ المتغطرسَ وأعمدته على قمَّة الكثيبِ،

وشوارعَ أكواخِ الزنوج التي تعجُّ بالمعاناةِ والحركة، والأطفال ذوي البطون المنتفخة، والنسوةَ اللواتي شِخنَ قبل الأوان، والرجالَ ذوي الأطراف المبتورة، فيصير هذا الإطارُ العامُّ الكئيبُ الذي فقدتُه عزيزًا، وتسيل على خدَّيَّ دموعي.

أمّا الطفلتان، اللتان لا تشاركانني مزاجي، فكانتا تلعبان، تتقافزان في بِركِ الماء المالحة، وتتدافعان، وتسقطان بين الحبال، فلا أستطيعُ أن أمنع نفسي من تخيُّلِ ملامحِ صامويل باريس إن هو حضرَ مثل هذه المشاهد. كانت تتحرَّرُ كلّ تلك الحيويَّة التي كُبتت يومًا عن يومٍ، وساعةً عن ساعةٍ، فتنطلقُ كأنَّما ذاك الشرِّيرُ الذي يخشاه الجميعُ قد تلبَّسهما وسيطر عليهما. ومن بين الاثنتيْن، كانت أبيغايل الأشدّ عنفوانًا وانطلاقًا؛ ومرَّةً أخرى كنت مُعجبةً بقدرتها على المواربة. فما إن نعودَ إلى المنزل حتى تصيرَ أمام خالها صموتًا وصلبةً حدَّ الكمال! وتُردِّدُ خلفه كلمات كتابهم المقدَّس! وتصير أدنى حركاتها مطبوعةً بالمحافظةِ والورع!

وذات يومٍ، في طريق عودتنا من لانغ وارف، حضرنا مشهدًا لن ينمحيَ أبدًا الانطباعُ الرهيبُ الذي خلّفَه في نفسي. كنَّا قد بلغنا رأسَ الشارع حين رأينا الساحةَ، الواقعةَ بين السجنِ والمحكمةِ والمَجْمع، غاصَّةً بالبشر. كانوا يحضِّرون لعمليَّة إعدامٍ. كان الحشدُ يتزاحمُ عند المنصَّةِ المرتفعة التي نُصبت عليها المشنقة. وحولها يتحرَّكُ رجالٌ رهيبون يعتمرون قبَّعاتٍ عريضةَ الحواشي. ولمَّا

اقتربنا، لم نرَ إلَّا امرأةً، عجوزًا، واقفةً وعلى عنقها لُفَّ حبلٌ. وبغتةً، أبعد رجلٌ قطعةَ الخشبِ التي كانت تستند إليها قدماها. اشتدَّ جسدُها كوَتَر قوس. سمعنا صيحةً رهيبةً، ثم هوى رأسُها جانبًا.

وأنا نفسي، صرختُ وسقطتُ على ركبتيَّ وسط الحشدِ المستثارِ، الفضوليّ، الذي يكاد يكون سعيدًا.

وكأنَّما حُكِمَ عليَّ بأن أشهدَ مجدَّدًا إعدامَ أمِّي! كلَّا، لم تكن امرأةً عجوزًا تلك المتأرجحةُ هناك! إنَّما هي أبِنا في عزِّ شبابها ونضارةِ جسدها! نعم، كانت هي، وكنت أنا مجدَّدًا في السادسة من عمري! كنت أصرخُ، وكلَّما صرختُ، زادت رغبتي في أن أصرخ. أصرخ وجعي، ثورتي، غضبي العاجز. أيّ عالمٍ هذا الذي جعل منِّي عبدةً، يتيمةً، منبوذة؟! أيّ عالمٍ هذا الذي أجبرني على العيش وسْط أُناسٍ لا أتكلَّمُ لسانَهم، ولا أشاركهم دينهم، في بلدٍ رذيلٍ وغير مريح؟!

هرعتْ إليَّ بِتسي، تضمُّني بذراعيْها المرهفتيْن:

ـ اصمتي! اصمتي يا تيتوبا!

أمَّا أبيغايل التي كانت قد ذهبت تلتقطُ الأخبار وسط الحشد، فقد عادت إلينا، وقالت ببرود:

ـ أجل، اصمتي! لم تأخذ إلَّا ما تستحقّه، لأنَّها ساحرة! لقد سحرتْ أطفالَ أسرةٍ شريفة!

تمكَّنت من أن أقف وأسلك طريق العودة. لم يكن حديث المدينة كلّها إلّا ذاك الإعدام. من حضروه كانوا يصفون لمن لم يحضروا، كيف كانت المرأةُ المكفَّنةُ الرأس تصرخ وهي ترى الموت، تصرخ ككلبٍ يعوي للقمر، وكيف خرجت روحُها في هيأة خُفَّاشٍ، بينما زبدٌ مثيرٌ للغثَيان يسيلُ على امتداد ساقيْها، علامةً على شناعة روحها. أمّا أنا، فلم أرَ شيئًا من ذلك. إنَّما حضرتُ مشهدًا همجيًّا صرفًا.

بعد ذلك، اكتشفتُ أنّي أحملُ في أحشائي طفلًا، فقرَّرتُ أن أقتله.

باستثناء القُبلِ المختلسةِ من بِتسي، والأسرارِ المتبادلة مع إليزابيث باريس، كانت لحظاتُ السعادة الوحيدة ضمن وجودي الحزين هي تلك التي أقضيها مع جون الهنديّ. موحلًا، مقرورًا من البرد، ثملًا من التعب، كان رَجُلي يُمارس معي الحبَّ كلّ يومٍ. كنّا ننامُ في ركنٍ مجاورٍ لغرفةِ نوم سيِّدي وسيِّدتي باريس، فكان لزامًا الحرصُ على ألَّا تندَّ عنّا أيّ أنّةٍ، أيّ زفرة من شأنها أن تكشف طبيعة الممارسة المنخرطَيْن فيها. والمفارقةُ أنَّ ممارستنا المحمومة تلك لم تكن تزدادُ إلّا حلاوةً.

بالنسبة إلى عبدةٍ، ليس الحَمْلُ مصدرَ سعادةٍ. أن تحمل، معناه أن تُخرجَ إلى عالمِ استعبادٍ ودناءةٍ مخلوقًا بريئًا لا سبيل له إلى تغيير مصيره. طوال سني طفولتي، كنتُ أرى العبيد يقتلون مواليدهم الحديثين، يعمدون إلى شوكةٍ فيدخلونها في بيضةِ رؤوسهم وهي بعدُ بضَّة، أو يحزُّون حبلهم

السرِّيّ بشفرةٍ مسمومة، أو يتركونهم ليلًا في مكانٍ تجوبه الأرواحُ الهائجة. طوال طفولتي، سمعتُ عبيدًا يتبادلون وصفات عقاقيرَ أو مراهم، أو حُقنًا تجعلُ الأرحام عاقرًا إلى الأبد، وتحوِّلها إلى قبورٍ مبطَّنةٍ بأكفانَ قرمزيَّة.

في باربادوس، وضمن بيئةٍ أعرفُ فيها كلّ نبتةٍ باسمها، ما كنت لأجد صعوبة في التخلُّص من ثمرةٍ ثقيلة. لكن، هنا في بوسطن، ما العمل؟

على بعد أقلّ من نصف فرسخٍ من مخرج بوسطن، كانت ترتفعُ غاباتٌ كثيفةٌ، قرَّرتُ أن أستكشفها. وذات ظهيرةٍ، استطعتُ أن أتسلَّل من المنزل تاركةً بِتسي تُصارعُ تقطيعها الأبجديّ المرعبَ، وأبيغايل، قرب سيِّدتي باريس، منهمكةَ الأصابعِ في نول الحياكةِ، ومنشغلةَ الذهنِ بشيءٍ آخرَ.

وما إن صرتُ خارج المدينة حتى فوجئتُ باكتشافِ عذوبة الأجواء هناك. الأشجار وقد صارت منذ زمنٍ هياكلَ مجرَّدةً، كانت أشبه بعُمْدانٍ حزينة، تزيِّنُها براعمُ. والأزهارُ تتخلَّلُ المروجَ الخضراءَ الممتدَّةَ إلى ما لا نهايةَ كأنَّها بحرٌ هادئ.

وأنا أتهيَّأُ لدخول الغابة، صاح بي رجلٌ ذو هيأةٍ سوداءَ صارمة، يمتطي جوادًا، ووجهه غارقٌ في ظلِّ قبَّعته:

ـ هيه! أنتِ أيَّتها الزنجيَّة! ألا تخشَيْنَ الهنود؟

الهنود؟ إنّي لأخشى هؤلاء «المتوحِّشين» أقلَّ من خشيتي الرجال المتحضِّرين الذين يشنقون العجائزَ في الأشجار.

انحنيتُ على شجيرةٍ عَطِرة تُشبه كثيرًا حشيشةَ الليمون ذاتَ الفوائد الجمَّة؛ وإذا بي أسمع اسمي يُنادى به:

. تيتوبا!

انتفضتُ. كانت امرأةً عجوزًا ذات وجهٍ شائهٍ كرغيف خبزٍ، لكنّه مع ذلك ودود.

تعجّبتُ:

. كيف عرفتِ اسمي؟

أجابت بابتسامةٍ غامضة:

. لقد شهدتُ ولادتَك!

زادت دهشتي:

. أأنتِ من باربادوس؟

زادت ابتسامتُها حدَّةً:

. أنا لم أترك بوسطن يومًا. أتيتُ إليها مع أوائل الحجَّاج، وما تركتُها. حسنًا، يكفينا ثرثرةً! إن تأخَّرتِ كثيرًا، سينتبه إلى الأمر صامويل باريس، فتقضين

ربعَ ساعةٍ منغَّصةً!

تسلَّحتُ بالثبات:

. أنا لا أعرفكِ. ما الذي تريدينه منِّي؟

أخذَت تخطو حثيثًا متوغِّلةً في الغابة، وإذ ظللتُ ساكنةً في مكاني، استدارتْ إليَّ قائلةً:

. لا تتبلَّدي! أنا صديقةُ لمان يايا واسمي جودا وايت!

بيَّنت لي العجوز جودا كلّ نبتةٍ وخصائصها. ودوَّنتُ في ذهني بعض الوصفات التي أفصحتْ لي عنها:

للتخلُّص من التآليل، ادعكي موضعها بجلد علجوم حيّ إلى أن يمتصّها الحيوانُ.

إبّان الشتاء، للوقاية من مشاكل البرد، اشربي منقوع الشوكران (لكن احذري، إنّ المشروب سامٌّ، وقد يُستخدم لأغراض أخرى).

لتجنُّب التهاب المفاصل، ضعي في بنصر يسراك خاتمًا من البطاطس النيئة.

كلّ الجروح يمكن أن تُعالج بضمَّاداتٍ من أوراق الملفوف، والقروح بواسطة عصيدةِ اللفت نيئًا.

في حال التهابٍ صدريٍّ حادٍّ، ضعي جلد قطٍّ أسود على صدر المريض.

في حالِ ألمِ الأسنان: امضغي إن أمكن أوراقَ التبغ. والشيء نفسه في حالِ أوجاعِ الأذن.

لكلِّ أشكال الإسهال: ثلاث مرّات في اليوم، جرعات ثمار علّيق.

عدت إلى بوسطن مرتاحةً بعض ارتياحٍ، وقد تعلَّمتُ أن أرى في الحيوانات أصدقاء، تلك الحيوانات التي ما كنت فيما سبق أنتبه إلى وجودها: القطُّ ذو الفراء الأسود، الدعسوقةُ، والشحرورُ المعروف بالطائر الساخر.

ردَّدتُ في رأسي كلام جودا: «من دوننا نحنُ، كيف سيكون العالم؟ قولي؟ كيف سيكون؟ إنَّ الناس يكرهوننا، مع أنَّنا نمدُّهم بالوسائل التي لولاها لكانت حياتهم كئيبةً ومحدودة. بفضلنا، يستطيعون تغييرَ الحاضر، وأحيانًا قراءة المستقبل. بفضلنا، يمكنهم الأملُ. نحن ملحُ الأرضِ يا تيتوبا».

تلك الليلة، جرفَ سيلُ دمٍ أسود طفلي خارجَ رحمي. رأيتُه يضرب بيديْه كشرغوفٍ ضائعٍ فانفجرتُ دموعًا. وكذلك بكى جون الهنديّ الذي لم أُعطِه علمًا بالأمر، وظنَّ أنّ الأمرَ من تدبير القدر مرَّةً أخرى. صحيحٌ أنَّه كان ثملًا، لفرطِ ما عبَّ من كؤوس، وخاصّةً أنَّه شربها مع البحَّارة الذين يقصدون حانةَ بلاك هورس.

ـ مَلِكتي! هي ذي عصا شيخوختنا قد كُسرت،

فعلامَ عسانا سنستندُ حين يصير في ظهر كلٍّ منَّا حدبةٌ، في هذا البلد الذي ليس بين فصوله صيف؟

لم أتجاوز قتلَ طفلي إلَّا بمشقَّةٍ. كنت أعرفُ أنِّي فعلتُ ما فيه خيرُه. ومع ذلك، ظلَّت تسكنني صورةُ الوجه الصغير الذي لم أعرف قطُّ ملامحه الحقيقيَّة. بعبثيَّةٍ غريبة، كان يبدو لي أنَّ تلك الصرخة التي أطلقتها المرأةُ المغطَّاةُ الوجه وهي تُساقُ إلى الإعدام، إنَّما هي صرخةٌ آتيةٌ من أحشاء طفلي الذي نكّل به المجتمعُ نفسُه الذي نكّل بها، وحكم عليه القضاةُ ذاتهم الذين حكموا عليها. وإذ لاحظتْ بِتسي وإليزابيث باريس حالتي النفسيَّة، ضاعفتا من اهتمامهما بي ولطفهما معي، لطفًا واهتمامًا ما كانا ليفلتا من صامويل باريس لو أنّنا كنَّا في ظروفٍ أخرى، لكنَّ الحالُ أنَّه كان ما ينفكّ يغرقُ أكثرَ فأكثر في مزاجٍ سوداويّ، إذ كانت أموره تسير من سيّءٍ إلى أسوأ. لم تكن تدخل البيتَ إلَّا النقودُ التي يكسبها جون الهنديّ من النفخ على النار في مدفآت بلاك هورس. لذا كنَّا حرفيًّا نموتُ من الجوع. هزل وجها الطفلتيْن، وغدا بَدَناهُما يلعبان في ملابسهما.

ثم أتى الصيفُ.

وأتت الشمسُ تُضيءُ أسقفَ بوسطن الرماديَّةَ الزرقاء. كانت الشمسُ تُزيِّنُ أغصانَ الأشجار بالأوراق، وتغرز في ماء البحر إبر نارٍ طويلةً. وعلى الرَّغم من الكآبة المخيِّمة على حياتنا، كانت الشمس ترقِّصُ الدماءَ في عروقنا.

أسابيع قبل ذلك، كان صامويل باريس قد أعلن علينا بصوتٍ كئيبٍ أنّه قَبِل العمل بأبرشيَّةٍ عُرضتْ عليه، وأنَّنا سنذهبُ إلى قرية سالم؛ على بعد عشرين مترًا تقريبًا من بوسطن. وقد بيَّن لي جون الهنديّ، المطَّلع كالعادة على كلِّ شيءٍ، لما كان صامويل باريس غير متحمِّسٍ للأمر. إنَّ قرية سالم لها صيتٌ سيِّءٌ في مستعمرة خليج ماساتشوستس. مرَّتيْن طُردَ كاهنان: المبجَّل جيمس بايلي والمبجَّل جورج بوروز، بتحريض من طرف جزءٍ كبيرٍ من أبناء الأبرشيَّة الذين رفضوا عنايتهما. كان الراتبُ المحدَّد في ستَّة وستِّين جنيْهًا أقرب إلى الصَدَقة منه إلى الراتب، خاصَّةً أنَّ الحطبَ لا يُعطى، والشتاءَ قاسٍ في الغابة. وأخيرًا، كان يعيش في أرباض قرية سالم هنودٌ، متوحِّشونَ وهَمَجٌ، أقسموا أن يحتزُّوا فروةَ كلّ رأسٍ يتوغَّلُ صوبهم.

ـ سيِّدنا لم يُنْهِ بعد دراساتِه...

ـ دراساته؟

ـ أجل دراساته اللاهوتيَّة، ليصير قسًّا. غير أنَّه يريدنا أن نعامله مثلما يُعاملُ المبجَّل إنكريس ماتر أو جون كوتُن نفسُه.

ـ مَنْ هؤلاء الناس؟

هنا، اضطرب جون الهنديّ:

- لا علم لي يا حسنائي! إنَّما فقط أسمع الناسَ يردِّدون أسماءهم.

قضينا المزيد من الأسابيع الطويلة في بوسطن. واستطعت خلال ذلك أن أستذكر أهمّ نصائح جودا وايت:

قبل أن أسكن منزلًا، أو حالما أسكنه، عليَّ أن أضع في أركانِ كلّ غرفةٍ من الغرف أغصانَ دبقٍ وأوراقَ المردقوش. أن أكنس الغبارَ من الغرب إلى الشرق، وأحرقه بعنايةٍ قبل أن أُلقي بالرماد إلى الخارج. وأن أرشّ على الأرض باليد اليُسرى قليلًا من البول الطازج.

ومع غروب الشمس، أحرق أعواد القنا مع ملحٍ خشن.

والأهمّ من ذلك كلّه، أن أهيِّئَ الحديقة، وأجمع فيها كلّ الأصناف الضروريَّة. وفي حال تعذَّر ذلك، أستنبتها في صناديق مملوءةٍ بالتراب.

ألَّا أنسى البصق إلى فوق أربع مرَّاتٍ عند الاستيقاظ.

لا أُخفي أنّني، عديد المرّات، كان يبدو لي كلُّ ذلك صبيانيًّا. إنَّ علمنا نحنُ في جزر الأنتيل كان أكثر نُبلًا، كان يرتكز على القوى أكثر ممَّا يرتكز على الأشياء. لكنْ، المهمّ كما كانت تقول لي مان يايا: «إن دخلتِ بلد المقعدين، فجُرِّي نفسَك على

الأرض!»

- ٨ -

مرثاةٌ إلى طفلي المفقود:

«حجرُ القمرِ سقط في الماء،

ماء النّهر.

ويداي ما استطاعتا انتشالَه،

ما أتعسني!

حجرُ القمر سقط.

جالسةً على ضفَّة النهر

أبكي وأرثي لحالي.

آهٍ! أيُّها الحجرُ الناعمُ البرّاقُ،

إنَّك لتلمَعُ في قعر النهر.

مرّ الصيّادُ،

حاملًا سهامَه وكنائنَه:

حسناء، يا حسناء، ماذا يُبكيكِ؟

أبكي، لأنَّ حجرَ قمري يرقد في قعر الماء.

حسناء، يا حسناء، إن كان هذا فقط،

فسوف أساعدك.

لكنَّ الصيَّاد ارتمى في الماء، وغرِقَ»

لقَّنتُ بِتسي المرثاةَ، وصرنا ندندنها في صمتٍ في أثناء اللحظات النادرة التي تجمعنا رأسًا لرأس. صوتُها الصغيرُ الجميل والعذبُ والشاكي، يصاحبُ صوتي كأفضل ما تكون المصاحبة.

ذات يومٍ، دهِشةً، سمعتُ أبيغايل تغنِّي الترنيمة أيضًا! أردتُ أن أنهرَ بِتسي، أن أنصحها بأن تحتفظ لنفسها بالأشياء التي أعلِّمها إيَّاها. لكنَّني هذه المرَّة أيضًا، سُررتُ. أليست أبيغايل رفيقة لعبِها الوحيدة؟ أليست هي أيضًا طفلةً؟ لا يمكن لطفلةٍ أن تكون خطيرة.

- 9 -

إنَّ قريةَ سالم، التي لا ينبغي أن يُخلط بينها وبين المدينة التي تحمل الاسم نفسه، والتي تبدو لي جذَّابةً بما يكفي، أقولُ إنَّ قرية سالم كانت معزولة وسط الغابة، كبقعة صلعٍ وسط فروةِ رأسٍ غزيرِ الشَّعر.

كان صامويل قد اكترى ثلاثة أحصنةٍ وعربةً، وكنَّا نبدو في صورةٍ تبعث على الرثاء! لحسن الحظِّ، لم يستقبلنا أحدٌ. ففي تلك الساعة، يُفترض أن يكون الرجال في الحقول يعملونَ، والنساءُ قد ذهبنَ يحملن إليهم ما يشربونه وما يأكلونه. أرانا صامويل باريس مقرّ المَجْمَع، وهو بنايةٌ ضخمةٌ، بابُها الهائلُ صُنع من عوارض خشبيَّة مجمَّعة؛ ثم أكملنا طريقنا. كم من الساكنة تضمُّ سالم؟ بالكاد ألفيْن ما بين مقيمٍ فيها وزائرٍ من بوسطن، كان المكان يبدو حقًّا حفرةً. أبقارٌ تعبرُ الشارع الرئيسيّ على غير هدًى، محرِّكةً الأجراسَ المعلَّقةَ في أعناقها؛ ولاحظتُ مندهشةً أنَّ على قرونها قد رُبطت خِرَقُ قماشٍ حمراء. ومن حظيرةٍ، تفوح الرائحة النتنة لنصف دستةٍ من الخنازير التي كانت تتمرَّغ في وحلٍ مُسودٍّ.

وصلنا أمام المنزل المخصَّص لإقامتنا. كان المنزل يبدو منكفئًا قليلًا وسط حديقةٍ شاسعة، تغزوها الأعشابُ الضارَّة. شجرتا قيقبٍ كانتا تُحدّانِه كشمعتيْن، وفي الآن نفسه، تبتعدان عنه كأنَّما تنفران منه بعدائيَّة. أعان صامويل باريس

زوجته على النزول من على ظهر الحصان ـ زوجته المسكينة التي لشدّ ما عانت وعثاءَ السفر. وأنزلتُ إلى الأرض صغيرتي بِتسي، بينما قفزت أبيغايل من دون أن تنتظر أيّ مساعدة، وهرعتْ صوب باب المدخل. لكنّ صامويل باريس أوقفَ ركضَها، وصاح:

ـ لا تركضي هكذا يا أبيغايل! هل تلبَّسك الشيطان؟

وعلى الرَّغم من أنَّني لا أمحض أبيغايل كبيرَ حبٍّ، إلَّا أنَّ قلبي أوجعني وأنا أرى أثر جملته فيها.

كان داخلُ المنزلِ على صورة خارجه. مظلمًا وغير ودود. غير أنَّ يدَ عنايةٍ كانت قد أوقدت النار في كلِّ المدفآت، وألسنةُ اللهبِ تلتهمُ قطع الخشب بخفَّةٍ.

تساءلت إليزابيث باريس:

ـ كم غرفةً بالمنزل؟ تفقَّديها يا تيتوبا، وانظري أيَّها أفضل موقعًا!

وحتى هنا، وجد صامويل باريس ما يُعارض به زوجتَه. ساحقًا إليزابيث بثقل نظرته، قال:

ـ أليست الغرفة الوحيدة الجيِّدة موقعًا هي القبرُ في الظلِّ الذي سيرقد فيه كلّ واحدٍ منَّا يومًا ما؟

ثم ركع على ركبتيْه شكرًا للربّ الذي حمانا من

الذئاب وغيرها من الوحوش الضواري التي تملأ الغابات الفاصلة بيننا وبين بوسطن. ولم يوقف صَلاته التي لا تُحدّ إلّا حين فُتح باب المدخل بصريرٍ جعلنا ننتفضُ جميعًا. دلفتْ إلى الغرفة امرأةٌ ضئيلةُ الجسم، زريَّةُ الملبس على شاكلة ملابس البيوريتانيِّين، لكنْ بشوشُ الوجه:

ـ أنا الأخت ماري سيبلي، أنا من أَوْقَد النّارَ. كما تركت لكم في المطبخ قطعةً من لحم العجل، وجزرًا، ولفتًا، ودستة بيض.

بالكاد شكرها صامويل باريس، ثم انطلَق يسألُ:

ـ هل أنتِ امرأةٌ ممثّلةٌ للجماعة؟

ابتسمت ماري سيبلي، وقالت:

ـ إنَّ الوصيَّة الرابعة تأمرنا بأن نعملَ ونريق عرقَ جبيننا. إنّ الرجالَ في الحقول. ما إن يرجعوا حتى يأتي الشمَّاس إنغرسول، والرقيب توماس بوتنام، والقبطان والكوت، وآخرون.

إذّاك، قصدتُ المطبخ، وأنا أفكِّر في معدتَي الطفلتيْن المسكينتيْن، لكي أحضِّرَ قطعة لحم العجل المملَّحة التي أحسنت الأخت ماري سيبلي بإحضارها. بعد برهةٍ، لحقتْ بي، أخذتْ تتفرَّس فيَّ:

ـ كيف لصامويل باريس أن يستخدمَ زنجيًّا وزنجيَّة؟

كان في صوتها من الفضول البريء أكثر ممَّا فيه من عدوانيَّة.

لذا أجبتها بهدوءٍ:

. أليس الأجدَرُ سؤالَه هو؟

ظلَّت برهةً صامتةً، ثم قالت:

. إنَّه أمرٌ مستغربٌ من كاهنٍ!

صمتت برهةً، ثم عادت إلى القصف:

. ما أشدَّ شحوبَ إليزابيث باريس! ممَّ تشكو؟

قلتُ:

. لا أحد يعرفُ بالضبط علَّتَها!

. أخشى أنَّ مُقامها في هذا المنزل لن يجلب لها الراحة! (ثم أخفضتْ صوتَها وواصلت الكلامَ) لقد ماتت امرأتان في الغرفة العلْويَّة. ماري بايلي، زوجة أوَّل قسٍّ لهذه الأبرشيَّة. وجودا بوروز، زوجة القسّ الثاني.

رغمًا عنِّي، أطلقت زفرة قلق. ذاك أنِّي لم أكن أجهل مقدارَ الإزعاج الذي قد يسبِّبهُ للأحياءِ ميِّتٌ غير مرتاح. أليس حريًّا بي أن أُقيمَ حفلَ تطهير وأمنح هذه الأرواح ما يُرضيها؟ لحسن الحظّ، كانت تحوطُ المنزل حديقةٌ كبيرة، وكان بوسعي أن

أتحرَّك فيها كما يطيبُ لي. تابعت ماري سيبلي اتِّجاه نظرتي، وقالت بصوتٍ مضطرب:

ـ أوه، أجل القطط! إنَّها في كلّ مكانٍ بسالم. لا نكفُّ عن قتلها!

وبالفعل، كان ثمَّة حشدٌ من القطط يتراكض فوق العشب. كانت القطط تموء، وتنام على ظهورها، وترفع سيقانها العصبيَّة التي تنتهي أطرافُها بمخالب حادَّة. طوال أسابيعَ من قبلُ، ما كنت أرى في المشهد أيَّ شيءٍ غير طبيعيّ. أمَّا بعد أن تلقَّيتُ تعاليمَ جودا وايت الطيِّبةِ، فقد أدركت أنَّ أرواح المكان ترحِّب بي. ما أشدَّ سذاجةَ هؤلاء الناس ذوي البشرة البيضاء إذ يُظهرون قوَّتهم عبر حيواناتٍ كالقطط! أمَّا نحنُ، فنفضِّلُ حيواناتٍ ذات أبعادٍ مختلفة؛ على سبيل المثال: الثعبان، الزاحف المذهل ذا الحلقات المظلمة!

ما إن وطئت قدماي سالم حتى أدركتُ أنَّني لن أكون سعيدةً فيها أبدًا. شعرتُ أنَّ حياتي هنا ستعصف بها محنٌ رهيبة، وأنَّ أحداثًا لا قِبلَ لي بأوجاعها، ستشيِّبُ منِّي الشّعرَ!

حين هبط الليل، عاد الرجالُ من الحقول وامتلأ المنزل بالزوَّار. آن بوتنام وزوجها توماس، ماردٌ بطول عشرة أقدامٍ، وابنتهما آن التي انتحت على الفور بأبيغايل جانبًا، وأخذتا توشوشان؛ ثم سارة هولتن، وجون وإليزابيث بروكتور، وآخرون لا يسعني ذكرُ أسمائهم. كنت أشعر أنَّ ما كان

يدفع هؤلاء الناس إلى القدوم هو الفضول، وليس الودّ؛ وأنّهم كانوا يأتون ليقيِّموا القشّ ويقدِّروا أيّ دورٍ سيلعبه في حياة القرية.

لم ينتبه صامويل باريس للأمر، وأظهر نفسه على طبيعته: بغيضًا! كان يتذمَّر من أنّهم لم يحسبوا حسابَ قدومه، فيقطعوا له أكوامًا من الحطب يملأونَ بها حظيرته. يتذمَّرُ من أنَّ المنزل متداعٍ، وأنَّ العشب في الحديقة يصل حتى الركبة، وأنَّ الضفادع تجرُّ ضجيجها حتى نوافذ بيته.

ومع ذلك، كان في مُقامنا بسالم سعادةٌ ما ظننتها عابرةً. كان المنزل شاسعًا، بحيث يمكن أن تكون لكلّ واحدٍ منّا غرفته الخاصَّة. استطعنا أنا وجون الهنديّ أن نلجأ إلى غرفةٍ علْويَّة شنيعة، سقفُها مسنودٌ بحزمةٍ من الأعمدة نخرَها السوس. وفي تلك العزلة، استطعنا أن نحبَّ بعضنا مجدَّدًا دونما كابحٍ أو حدٍّ، ومن غير أن نخشى أن نُسمعَ.

في لحظات الانعزال العظيمة تلك، لم أستطع منع نفسي من أن أُسِرَّ لجون الهنديّ:

ـ جون الهنديّ، أنا خائفة!

داعب كتفي قائلًا:

ـ كيف سيصير العالمُ إن خافت نساؤنا؟ سينهارُ العالمُ! ستنهارُ قبّتُه، والنجوم التي تزيّنُها

ستسقط معفَّرةً في ترابِ الطرقات! أنت خائفة؟ وممَّ؟

ـ خائفةٌ من الغد الذي ينتظرنا...

ـ نامي يا أميرتي! إنَّ للغد الذي ينتظرنا ابتسامةَ الوليد.

أمَّا ثاني سعادةٍ حملتْها لي قرية سالم، فهي أنَّ صامويل باريس، المستغرق في واجباته وأعماله، كان دائمًا في الخارج. بالكاد نراه في صلاتَي الصباح والمساء. وحين يكون في المنزل، يكون دومًا مُحاطًا بجماعةٍ من الرجال يتداول معهم بمرارةٍ أمورًا تبدو غير متعلِّقة بالعقيدة.

ـ إنَّ مبلغ الـ ٦٦ جنيهًا الذي أتقاضاه راتبًا يأتي من مساهمات سكَّانِ القرية جميعًا، كلٌّ بحسب مساحة أرضه.

ـ يجب أن تزوِّدوني بخشب التدفئة.

ـ يوم السبت المقدَّس، ينبغي أن تؤدَّى المساهماتُ ورقًا نقديًّا... إلخ.

ومن وراء ظهره، كانت حياتنا تستعيد مجراها الطبيعيّ.

صار لي الآن مطبخي الخاصّ الضاجّ بالصبايا.

لم أكن أحبّهنَّ جميعًا. تحديدًا، لم أكن أحبُّ آن

بوتنام، والخادمة الصغيرة التي كانت تقاربها سنًّا، وترافقها حيثما حلَّت وارتحلت، وأيضًا مرسي لويس. كان في تينك الطفلتيْن شيءٌ ما يدفعني إلى الشكِّ في براءة الطفولة. من يدري، ربَّما الأطفال أيضًا ليسوا في منأى عن رضّاتِ الكبارِ وأمراضهم؟ على أيِّ حال، كانت آن ومرسي تُعيدان إلى ذاكرتي دومًا خُطب صامويل باريس عن الشرِّ الذي سكن كلًّا منَّا. والحالُ نفسه ينسحبُ على أبيغايل. لم أكن أشكّ في العنف الذي تنطوي عليه، في قدرة خيالها على أن يصبغ معنًى خاصًّا على أدنى الحوادث اليوميَّة، وفي الكراهية، (كلَّا، ليست الكلمة بالقوَّة الكافية)، التي تحملها تجاه عالم الكبار، كأنَّما لم تسامحه أبدًا أن سجنَ شبابها في تابوت.

لكنْ، حتى وإن لم أكن أُحبُّهنَّ جميعًا، فقد كنتُ أرثي لحالهنَّ، ببشراتهنَّ الشمعيَّة، وأجسادهنَّ المفعمة بالوعود، لكنَّها أجسادٌ بتراء، كهذه الأشجار التي يجهد البستانيُّون في سبيل تقزيمها! بشكلٍ متباينٍ، يبدو أطفالُنا نحنُ العبيد، وإن تعاظمت مرارتهم، مشرقين، تُنيرهم الشمس التي فيها يلعبون ويتجوَّلون ويتسكَّعون. كنَّا نصنع زوارقَ من لحاءِ قصبِ السكَّر، ونُطلقها تجري في الجداول. كنَّا نشوي أسماكًا صفراء وورديَّةً فوق أعواد خشبٍ خضراء. وكنَّا نرقص. تلك الشفقة التي لا أستطيع أن أمنع نفسي منها، هي ما كانت تدفعني إلى التساهل مع أولئك الصبايا وتركهنَّ يلتففن حولي، والسعي إلى إسعادهنَّ. لم أكن أتوقَّف إلَّا حين أتمكَّن من جعل

إحداهنَّ تضحك مقهقهةً حدّ الاختناق:

. تيتوبا، أوه، تيتوبا!

قصصهنَّ المفضَّلة كانت قصص المسوخ المتعاقدين. كنَّ يجلسن متحلِّقاتٍ حولي، فتغزو أنفي رائحةُ أجسادهنَّ الحامضة لفرط تقتيرهم في النظافة. وكنَّ يُصْمِمْن أذنيَّ بأسئلتهنَّ:

. تيتوبا، هل تعتقدين أنَّ ثمَّة مسوخًا متعاقدين في سالم؟

أومأتُ موافقةً بضحكة:

. أجل، أظنُّ أنَّ سارة غود منهم!

سارة غود كانت امرأةً ما تزال شابَّةً، لكنَّها متداعية وشبه متسوِّلةٍ، وكان الأطفال يخشونَها بسبب الغليون النتن الذي تحشره دومًا بين أسنانها، والعباراتِ الملتبسة التي لا تكفّ عن التذمُّر بها، وكأنَّما تترنَّم بابتهالاتٍ لا يفهمها أحدٌ سواها. عدا ذلك، كانت كريمةً، أقلّهُ ذاك ما أعتقد!

أخذت البنات يزقزقن حولي:

. تظنِّين ذلك يا تيتوبا! وماذا عن سارة أوسبورن، هل هي أيضًا منهم؟

كانت سارة أوسبورن عجوزًا، ليست متسوِّلةً كالأخرى، لا بل كانت مترفةً، تملك منزلًا مبنيًّا من

أعمدة السنديان، وكانت موصومةً بجرمٍ لا علم لي به، جرمٍ ارتكبتْه في سِنِي شبابها.

أخذتُ نَفَسًا عميقًا، وتظاهرتُ بالتفكير، تاركةً إيَّاهنَّ ينتقعن في مرقِ الفضول، قبل أن أعلن بصوتٍ مهيب:

. ربَّما!

ألحَّت أبيغايل:

. هل سبق أن رأيتِ إحداهما تطير في الهواء، بجسدٍ مسلوخ؟

وأضافت إليزابيث بروكتور:

. هل سبق أن رأيتهما؟ هل سبق أن رأيتهما؟

أبديت الحزمَ، لأنَّ سيِّدتي بروكتور كانت من بين أفضل نساء القرية، كانت الوحيدةَ التي تكلَّمتْ معي في العبوديَّة والبلاد التي أتيتُ منها وسكَّانها.

. تعرفين أنّني أمزح يا أبيغايل!

وصرفت الجميع. وإذ بقينا بمفردنا، أنا وبِتسي، سألتني بصوتها العذب كناي:

. تيتوبا، هل المسوخ المتعاقدون موجودون فعلًا؟

ضممتُها إليَّ:

. وفيمَ يهمّ ذلك؟ ألستُ هنا لأحميكنَّ إن حاولوا إيذاءكنَّ؟

حدَّقتْ فيَّ، وفي إنسانِ عَينَيْها يرقصُ شبحٌ جاهدتُ لتبديده:

. إنَّ تيتوبا تعرفُ الكلمات التي تشفي كلّ الأمراض، تبري كلّ الجروح، وتحلُّ كلّ العقد! ألا تعلمين ذلك؟

ظلَّت صامتةً واختلاجاتُ جسدها تمضي متسارعةً، على الرَّغم من كلماتي المطَمئنة. ضممتها إليَّ وقلبُها يضربُ ضربَ الأجنحةِ اليائسة، كأنَّهُ عصفورٌ في قفصٍ، بينما أردِّد:

. تيتوبا تقدر على كلِّ شيء. ترى كلّ شيء.

ثم ما لبثتْ دائرةُ الفتيات أن اتَّسعت. بتحفيزٍ من أبيغايل، أتى لفيف من الفتيات الكبيرات اللواتي تشفُّ معاطفهنَّ عن صدورهنَّ، ولا أشكّ في أنَّ الدم يلوِّنُ أفخاذهنَّ على فتراتٍ. لم أكن أُحبّهنَّ البتَّة. لا ماري والكوت، ولا إليزابيث بوث، ولا سوزانا شيلدون. عيونهنَّ كانت تحملُ كلّ الحقد الذي يكنُّه آباؤهنَّ لأبناء جلدتي. وفي الآن نفسه، كنَّ يحتجنني لتتبيل مرقِ حياتهنَّ عديمِ الطعمِ. فكنَّ، بدلًا من أن يترجَّيْنني، يأمرنني:

. تيتوبا، غنِّي لنا أغنية!

ـ تيتوبا، احكي لنا حكاية. كلَّا، لا نريد هذه. احكي لنا حكاية المسوخ المتعاقدين.

وذات يومٍ، سَرَت الأمور مسرًى خاطئًا.

أخذت البدينةُ ماري والكوت تحوم حولي، ثم انتهى بها المطاف إلى أن قالت:

ـ تيتوبا، هل صحيحٌ أنّك تعرفين كلّ شيء، وترين كلّ شيء، وتقدرين على كلّ شيء؟ أنت إذن ساحرةٌ؟

أبديت غضبًا شديدًا:

ـ لا تستعملي كلماتٍ تجهلين معناها؟ هل تعرفين على الأقلِّ ما معنى ساحرة؟

تدخَّلت آن بوتنام:

ـ بالطبع نعرف! إنَّ الساحرة شخصٌ وقَّع عقدًا مع الشيطان. إنَّ ماري محقَّة؛ هل أنت ساحرةٌ يا تيتوبا؟ أرجِّحُ ذلك.

طفح الكيل! طردتُ من مطبخي تلك الأفاعي جميعًا، ولاحقتهنَّ حتى الشارع:

ـ لا أريد أن أراكنَّ هنا مرَّة أخرى، أبدًا، أبدًا!

وحين تفرَّقن، انتحيتُ جانبًا بالصغيرة بِتسي

ونهرتُها:

. لِمَ تكرِّرين على أسماع الآخرين كلّ ما أُخبركِ به؟ ألا تريْن أنَّهم يُسيئون تأويل الكلام؟

احمرَّتِ الطفلةُ، والتفَّت حولي معانقةً:

. آسفة، يا تيتوبا! لن أقول لهم شيئًا.

مُذ صرنا في سالم، تغيَّرتْ بِتسي! صارت عصبيَّة، مستثارةً، تبكي لأتفه الأسباب، وتحدِّق في الفراغ على الدوام بعينيْها الجاحظتيْن، الواسعتيْن كعملتيْن من فئة نصف بنس! وانتهى بي المطافُ إلى القلق. ألا يكون هذا الكائنُ الهشُّ، فريسةً لرُوحَي المرحومتيْن المقتولتيْن في الطابق الأوَّل في ظروفٍ نجهلها؟ ألا يُفترضُ بي أن أحميَ الطفلة كما حميتُ أمّها من قبلُ؟

آهٍ، لا شيءَ يُعجبني في حياتي الجديدة! يومًا عن يومٍ، تتنامى مخاوفي، وتنزلُ على كاهلي بثقلٍ لا طاقة لي به. ثقلٍ أنامُ معه، فيتمطَّى ويتمدَّد عليَّ من فوقِ جسدِ جون الهنديّ بعضلاته المفتولة. وفي الصباح، يُثقل خطوي في الدرج، ويبطِّئُ يديَّ وأنا أحضِّرُ للفطور الشوفانَ عديمَ الطعم.

ما عدتُ أنا.

التماسًا للراحة، لجأتُ إلى وصفة. كنتُ أعمدُ إلى إناءٍ فأملأه بالماء، وأضعه قرب النافذة بحيثُ

أستطيع أن أُراقبه بينما أتحرَّك في مطبخي، ووضعتُ فيه بلدي باربادوس. استطعتُ أن أجعل بلدي كلّه في إناءٍ، بلدي بصخب حقوله، حقول القصب، الذي هو امتدادٌ لصخب أمواج البحر، وأشجار الجوز المنحنية على ضفاف البحر، وأشجار قضب اللوز المثقلة بثمارٍ حمراء أو خضراء غامقة. وإن كنتُ أجد صعوبةً في تمييز الناس، إلَّا أنّني كنت أُبصر بوضوحٍ التضاريسَ، والأكواخَ، وطواحين السكَّر، وعرباتِ الثيران التي تجلدُها أيادٍ غير مرئيَّة. كنت أُبصر مساكنَ السادة وقبورَهم. كلّ ذلك كان يموجُ داخل إنائي، غارقًا في أعلى درجات الصمت، ولكنَّ حضوره كان يدفِّئُ منِّي القلبَ.

أحيانًا، كانت أبيغايل أو بِتسي أو سيِّدتي باريس يباغِتْنَني وأنا غارقةٌ في تأمُّلي ذاك:

ـ إلامَ تنظرين يا تيتوبا؟

مرَّاتٍ كثيرة، حاولت أن أُشرك في سرِّي بِتسي وسيِّدتي باريس، اللتيْن أعرفُ أنَّهما تتحسَّران كثيرًا على باربادوس. وكلّ مرَّةٍ، أحجم عن الأمر بباعثٍ من حذرٍ أكسَبَنِيه محيطيَ الجديدُ. ثم، أسأل نفسي، هل يمكن أن تُقارنَ حسرتهما وحنينهما بحسرتي وحنيني أنا؟ إنَّ ما يتحسَّران على فقده هو حياةٌ كانت أسهلَ، حياةُ بِيضٍ يخدمهم العبيدُ. وحتى إن انتهى المطاف بسيِّدي باريس إلى خسارة كلّ أمواله وآماله، فإنَّ الأيَّام التي كانتا قد قضتاها في باربادوس كانت أيَّامًا من رفاهٍ ومتعة. أمّا أنا، فعلامَ كنتُ أتحسَّرُ؟ مسرَّاتِ العبيد

الهشَّة. الفُتات الذي يتساقط من خبز أيَّامهم القاسية، فيصنعون منه حلاوتهم. لحظات اللهوِ الممنوعِ العابرة.

إنَّنا لا ننتمي إلى العالمِ نفسه، أنا وسيِّدتي باريس، وبِتسي، وكلّ العطف الذي أحمله لهما، لن يستطيع أن يغيِّر هذا الواقع. بدايات ديسمبر، تجاوز سهوُ بِتسي وذهولها كلّ حدٍّ، (ألم تصرّ عاجزةً عن تلاوة الصلاة، فنالت، كما هو بديهيّ، ضرباتٍ من صامويل باريس؟)، فقرَّرت أن أمنحها حمّامًا مطهِّرًا (17).

جعلتها تُقسمُ أن تكتمَ السرّ، وما إن حلَّ الليلُ حتى غطَّستُها إلى العنق في سائلٍ منحتُه كلَّ خصائص السائلِ السلوي. واحتجت أربعة أيَّامٍ كاملةً من العمل في ظروف المنفى الصعبة، لأنجح في ذلك. لكنِّي كنتُ فخورةً بالنتيجة. وإذ أغطستُ بِتسي في الحمَّامِ الحارق، بدا لي أنَّ اليديْن نفسهما اللتيْن زرعتا الموت أيَّامًا من قبلُ، تزرعان اليومَ الحياة، وأنَّني أتطهَّرُ من قتل طفلي. جعلتُها تردِّد خلفي الكلمات الطقوسيَّة قبل أن أُغرق رأسَها في الماء، ثم بغتةً أخرجتُها منه، مختنقةً وعيْناها مضمَّختان بالدموع. ثم لففتُ جسدَها القرمزيَّ في غطاءٍ واسعٍ قبل أن أحملها إلى سريرها. نامت، كجمادٍ، نومًا لم تعرف له مثيلًا منذُ أمدٍ بعيدٍ، ذاك أنَّها منذ ليالٍ وهي تناديني غير ما مرَّةٍ بصوتها الواهنِ الحزين:

«تيتوبا، تيتوبا! تعالَي»!

قُبَيْل منتصف الليل، وإذ تيقَّنتُ من أنَّني لن أُصادف في الشارعِ روحًا حيًّا، خرجتُ أُلقي مياهَ الحمَّامِ المطهِّر عند مفترق الطرق، كما هو موصًى به.

لشدَّ ما يتغيَّرُ الليلُ بحسب البلد الذي نعيش فيه! في بلدي، الليلُ بطنٌ في ظلِّه نصير بلا قوَّةٍ وتعترينا الرجفة، لكنْ للمفارقة، تتحرَّرُ حواسُنا، وتصير متيقِّظةً لالتقاط أدنى وشوشةٍ تُصدرها الكائناتُ أو الأشياء. أمَّا في سالم، فالليلُ جدارُ عدائيَّة أسودُ، أسير فيه مرتطمةً به. وحوشٌ كامنةٌ في الأشجار تصيحُ بي غاضبةً وأنا أمرُّ، بينما آلافُ العيون الشرِّيرة تتابعني. صادفتُ هيئةً معروفةً عندي، قطًّا أسود. الغريبُ أنَّ القطّ الذي كان يُفترضُ أن يحيِّيني بكلمةٍ تطمئنُني، ماءَ بشراسةٍ وقوَّسَ ظهره تحت القمر.

مشيتُ بخطًى حثيثةٍ حتى مفترقِ دوبّان. وهناك، أنزلتُ أرضًا السطل الذي كنت أحمله متوازنًا على رأسي، ثم برفقٍ وحرصٍ شديدٍ أهرقتُ محتواه على الأرض المبيضَّة من الصقيع. وفي اللحظة التي تسلَّلتْ فيها آخرُ قطرةٍ من السائلِ إلى الأرض، سمعتُ ما يشبه الحفيفَ في عشبِ المنحدر. كنت أعرف أنَّ مان يايا وأبِنا أمِّي لم تكونا بعيدتيْن. ومع ذلك، لم تظهرا لي هذه المرَّة أيضًا، وكان عليَّ أن أكتفي باستشفاف حضورِهِما الصامت.

ثم ما لبث فصل الشتاء أن أحاط بإساره سالم. بلغ مستوى الثلج دعاماتِ النوافذَ. كلّ صباحٍ، كنت

أصارعه بضرْباتٍ قويَّةٍ من ماءٍ ساخنٍ وملح. عبثًا، كانت له دومًا الكلمة العُليا. ثم ما لبثت الشمسُ أن أضربت عن الظهور. صارت الأيَّامُ تمرُّ في ضيقٍ مظلم.

- 10 -

قبل أن أعيش في سالم، ما كنتُ أقدِّرُ حقَّ التقدير الخرابَ الذي تُحدثه ديانةُ صامويل باريس، ولا حتى أُدرك طبيعتَها الحقّ. تخيَّلوا مجموعةً صغيرةً من الرجال والنساء يُثقل وجودَهم حضورُ الشيطانِ بينهم، ويسعون إلى ملاحقته في كلِّ تجلِّياته. بقرةٌ تموت، طفلٌ يُبدي تشنُّجاتٍ، فتاةٌ تأخَّرت عنها الدورة الشهريَّة، كلُّها تصير موضوعًا لتكهُّناتٍ لا تنتهي. من ذا الذي وقَّع عقدًا مع العدوِّ، فأدَّى إلى وقوعِ كلّ تلك المصائب؟ أليست بريدجيت بيشوب التي لم يظهر لها أثرٌ في المَجْمَع لأحَدَيْن متتاليَيْن. كلَّا، أليس بالأحرى جيل كورسي الذي رُئيَ يُطعمُ بهيمةً هائمةً يوم السبت المقدَّس؟ أنا نفسي سمَّمني هذا الجوّ المؤذي، فصرتُ أُلفي نفسي، لأتفه الأسباب، أتلو ابتهالاتٍ مُنجِّيةٍ أو أقوم بأفعالٍ مطهِّرة؛ فضلًا عن أنَّه كان لديَّ أسبابٌ محدَّدةٌ جدًّا لأقلق. في بريدجتاون، كانت سوزانا إنديكوت قد نبَّهتني إلى أنَّ لوني، بالنسبة إليها، علامةٌ على ارتباطي الحميم بالشيطان. كلامٌ كنتُ آنذاك أستطيع أن أقابله بابتسامةٍ، معتبرةً إيَّاه كلامَ امرأةٍ سليطةٍ، زادتها مرارةً العزلةُ ودنوُّ الشيخوخة. أمَّا في سالم، فقد كان رأيًا يتشاركه الجميعُ.

كان ثمَّة خادمان أسودان أو ثلاثة في المنطقة، لا أدري حقًّا كيف وصلوا إلى هنا! وجميعنا لم نكن ملاعين فحسب، وإنَّما رُسُلًا للشيطان. لذا، كانوا يأتون إلينا خلسةً سعيًا إلى إطفاء رغبةٍ

جامحة في الانتقام، إلى إطلاق كراهيةٍ وحقدٍ لا يُتصوَّرانِ، باذلِين في الأذى كلَّ الجهد: كأن نتصوَّرَ زوجًا مخلصًا لا يحلمُ إلَّا بموتِ زوجته! أو كأن نتصوَّرَ أشدَّ الزوجات وفاءً لزوجها مستعدَّةً لأن تبيع أرواح أطفالِها مقابل التخلُّص من أبيهم. الجارُ يريدُ هلاكَ جارته، والأخُ هلاكَ أخته. لم يكن ثمَّة أحدٌ، بما في ذلك الأطفالُ، لا يتمنَّى التخلُّص، بأشنع الطرق، من أحد أقربائه. وإنَّ تلك الرائحة النتنة، رائحة الجرائم التي لا تطلبُ إلَّا أن تُحقَّق، هي ما وضع اللمسة الأخيرة على تحوُّلي إلى امرأةٍ أخرى. عبثًا كنتُ أحدِّقُ في الماء الأزرق الرقراق في إنائي، مسافرةً بخاطري إلى ضفاف نهر أورموند! كان ثمَّة شيءٌ بداخلي يتشوَّهُ على مهلٍ، لكنْ بخطًى واثقة.

أجل، كنتُ أصير امرأةً أخرى. امرأةً غريبةً عنِّي!

وكان حدثٌ هو ما أكملَ تحوُّلي. قطعًا بسبب حاجته الماسَّة إلى المال، وعجزه عن شراء مركوبٍ، أجَّرَ صامويل باريس جونَ الهنديَّ إلى ديكون أنغرسول ليساعده في أعمال الحقل. فما عاد جون الهندي يأتي لينام بجانبي إلَّا يوم السبت، عشيَّة السبت المقدَّس، حيثُ الربُّ يأمرُ بالراحةِ حتى الزنوجَ. فكنتُ يومًا بعد يومٍ أتكوَّرُ على نفسي تحت غطاءٍ رقيقٍ جدًّا في غرفةٍ بلا نارٍ، وأنا أشتعل رغبةً في رجلٍ غائبٍ. كثيرًا ما كان جون الهنديّ حين عودته، وعلى الرَّغمِ من قوَّة بنيته التي أسعدتني حتى ذلك الوقت، يأتي في حالٍ من الإرهاقِ لفرط ما اشتغلَ كبهيمةٍ، لدرجة أنَّه

ينامُ ما إن يضع أنفه على نهدي. كنت أداعب شعرَه الخشنَ الأجعد، ونفسي مليئةٌ بالشفقة والثورة على مصيرنا!

صَنعةُ مَنْ هذا العالم، صَنعةُ مَنْ؟

في غمرة عجزي ويأسي، بدأتْ تعتمل في نفسي فكرةُ الانتقام. لكنْ كيف؟ كنتُ أرسم خططًا ما ألبثُ أن أمحوها مع مطلع النهار، لأُعيدَ رسمَها ليلًا. ما عدت آكلُ بالمرَّة. وما عدتُ أشرب. أسيرُ كجسدٍ بلا روح، متلفِّعةً بشالَي الصوف الرديء، متبوعةً بقطٍّ أسودَ أو قطَّيْن أسوديْن، لا شكَّ أنَّهما مبعوثان من عند جودا وايت الطيِّبة، لتذكِّرني بأنَّني لستُ وحيدةً! لا عجب في أنَّ سكَّان سالم كانوا يخشونني، كنتُ مُخيفةً! مُخيفةً وقبيحة! شعري الذي ما عدتُ أمشِّطه صار يحوط رأسي كعُرفٍ. خدَّايَ ينحفران، وفمي ينفجرُ وقاحةً، شاقًّا عن لثَّتي المتورِّمة.

حين يكون جون الهنديّ بجانبي، يشتكي بلطفٍ:

ـ إنَّكِ تُهملين نفسكِ يا امرأتي! فيما مضى كنتِ مرجًا أرعى فيه. واليوم يكاد يصدُّني عنك نَبتُ عانتِكِ الطويلُ والغاباتُ تحت إبطيْكِ!

ـ سامحني يا جون الهنديّ، وظلَّ على حبّك لي حتى وإن صرتُ لا شيء.

اعتدتُ أن أسير بخطًى حثيثةٍ عبر الغابة، ذاك أنِّي

كنتُ أظنُّ أنَّ في إنهاك جسدي إنهاكًا لروحي أيضًا، وبالتالي قد تنعم بقليلٍ من النوم! كان الثلجُ يغطِّي ببياضه الممرَّات والأشجارَ الشبيهةَ بهياكلَ عظميَّة. وذات يومٍ، إذ توغَّلتُ في فُرجةٍ، انتابني الانطباع بأنَّني دخلت سجنًا تضيق عليّ جدرانُه الرخامُ. كنت أبصر فوق رأسي السماءَ البيضاء يرصِّعها ثقبٌ لامعٌ ضيِّقٌ، فظننتُ أنَّ حياتي ستنتهي هناك، مغلَّفةً في هذا الكفن البرَّاق. وإذن، هل ستعرفُ روحي الطريقَ إلى بربادوس؟ وحتى إن اهتدتْ إليها، هل ستصير محكومةً بأن تهيمَ، عاجزةً، خرساءَ، كمان يايا وأبِنا أُمِّي؟ تذكَّرت كلامهما: «ستكونين بعيدةً جدًّا. سيلزمُ وقتٌ طويلٌ لعبور الماء!»

آه! كان عليَّ أن أُلحَّ عليهما بالأسئلة! كان ينبغي أن أُجبرهما على أن يَخْرُقا قواعدهما ويكشفا لي عمَّا لم أستطع التكهُّن به! ذاك أنَّ خاطرةً ما انفكَّت تستحوذ عليَّ: إذا ما كان جسدي يخضع لناموسِ طبيعتنا، فهل ستتَّجه روحي حين تنعتق إلى بلدي الأمّ؟ كنت أستشرفُ الأرضَ التي فقدتُها. أعود إلى بشاعة ثلُومها المقفرة. أتعرَّفُها من رائحتها. رائحةِ العرقِ والمعاناةِ والكدّ. لكنَّها، ويا للمفارقة، رائحةٌ قويَّةٌ ودافئة، رائحةٌ تُريحني. مرَّةً أو مرَّتين، بينما أهيمُ في الغابة، صادفتُ سكَّانَ القرية منحنين على أعشابٍ أو نباتاتٍ، بهيئاتٍ شبحيَّةٍ تعكسُ ما في قلوبهم. وكان الأمرُ يسلِّيني غاية التسلية. إنَّ فنَّ الأذيَّة فنٌّ معقَّدٌ. فإن كان هذا الفنُّ يعتمدُ على معرفة النباتات، فإنَّ هذه المعرفة ينبغي أن تُقرنَ

بالقدرةِ على تسخير قوًى؛ وهذه القوى إنَّما تكون منفلتةً كالهواء، وفي ابتداء أمرها دومًا متمرِّدةً، وينبغي استحضارها وتسخيرها. ليس أيّ كان يستطيعُ أن يكون ساحرةً!

ذات يومٍ، بينما أجلسُ على الأرضِ المتلألئةِ بالصقيع، شادَّةً حولي طيَّاتِ تنُّورتي، أبصرتُ هيئةً ذاهلةً وألوفًا تخرجُ من بين الأشجار. كانت تلك سارة، عبدةَ جوزيف هندرسون السوداء. ولمَّا رأتني، ندَّت عنها حركةُ استعدادٍ للهروب، ثم ما لبثت أن غيَّرت رأيها، واقتربت.

سبق أن قلتُ إنَّ السودَ ليس هم ما ينقص سالم، مستغَلّين يُكدَحُ عليهم أشقَّ الكدح، ويُعامَلون معاملةً أسوأَ من معاملة البهائم التي يرعونها في الغالب الأعمّ.

جوزيف هندرسون، الذي كان هو نفسه قادمًا من رولي، تزوَّج من شابَّة من عائلة بوتنام، أهمّ العوائلِ بالقرية. ربَّما كانت زيجةً محسوبةً، لكنَّها في جميع الأحوال انتهت غيرَ مربحةٍ. لأسبابٍ دنيئةٍ لم يحصِّل الزوجان الأملاك التي كانا يطمعان فيها، وكانا يعيشان في بؤس. ربَّما لهذا السبب كانت السيِّدة بريسيلا هندرسون دومًا أوَّلَ من يجتاز عتبة المَجْمَع، وأوَّلَ من يبدأ ترتيل الصلوات، والأشدَّ سُعارًا في ضربِ خادمتها. لم يعد أحدٌ يتعجَّبُ من الكدمات التي تزيِّنُ وجه سارة، ولا من الرائحة النفَّاذة للثوم الذي تحاول أن تعالجَ به نفسها. تهاوت بقربي، وقالت:

. تيتوبا، ساعديني!

أمسكتُ يدها الصغيرة، القاسية الخشنة كأنَّها خشبٌ غير صقيلٍ، وسألتها:

. كيف أساعدُكِ؟

زاغت نظرتُها:

. الجميع يعرف أنَّك حُبيتِ مواهبَ عظيمة. ساعديني لأتخلَّص منها.

ظللت صامتةً برهةً، ثم هززتُ رأسي:

. لا أستطيع أن أفعلَ ما لا يجرؤ قلبُك حتى على التصريح به. إنَّ المرأةَ التي نقلتْ إليَّ عِلمَها، علَّمتني أن أداويَ وأُريحَ أكثرَ من أن أُؤذيَ. وحين راودتني مرَّةً الخواطرُ التي تراودك الآن حذَّرتني: «لا تصيري مثلهم، هم الذين لا يعرفون إلَّا الشرَّ!»

هزَّت كتفيْها السّقيمتيْن تحت شالها البَشِع:

. على التعاليم أن تتكيَّفَ بحسب المجتمعات. أنتِ لم تعودي الآن في باربادوس بين إخواننا وأخواتنا الأشقياء. وإنَّما أنتِ الآن بين وحوشٍ يسعوْنَ في هلاكنا.

إذ كنتُ أنصت إلى هذا الكلامِ، كنتُ أتساءَل عمّا إذا كانت الصغيرةُ سارة هي من يتحدَّث أمامي، أم

أنّه ليس إلّا رجع أفكاري يتردّدُ في صمت الغابة. أن أنتقم؛ أن ننتقم؛ أنا، وجون الهنديّ، وماري بلاك، وسارة والآخرون جميعًا. أن نطلق النار، أن نطلق العاصفة من عقالها. أن نصبُغَ بالقرمزيِّ بياضَ الثلج الكفنيَّ.

قلت بصوتٍ راجفٍ:

ـ لا تتكلّمي هكذا يا سارة، تعالَي إليَّ في مطبخي. لديَّ تفّاحٌ مجفّفٌ، إن كنتِ جائعةً.

قامت واقفةً، وأحرقتني كالحمْض نظرتُها المحتقِرة.

عدتُ إلى القرية غير مستعجلة.

أوَليستْ سارة في الواقع تنقل إليَّ كلامَ الغيبِ، ويجدر بي بالتالي أن أمضيَ ثلاثَ ليالٍ في الصلاة، أنادي بكلِّ ما أوتيتُ من قوّة:

«اعبروا الماءَ، أيا آبائي..

اعبرن الماء، أيا أمَّهاتي..

ما أشدّ وحدتي في هذه البلاد البعيدة!

اعبروا الماء؟

غارقةً في خواطري المقلقة تلك، مررتُ من غير أن أتوقّف أمام منزل السيِّدة ريبيكا نورس، فإذا

بي أسمع اسمي يُنادى به. كانت السيِّدة ريبيكا نورس تسير في سنِّها الواحدة والسبعين، ولم أرَ قطُّ امرأةً شلَّتها الأمراضُ بهذا القدرِ. أحيانًا، كانت قدماها تتورَّمان حتى لا يعود بمقدورها تحريكهما قيد أنملة، فتظلُّ راقدةً في سريرها على شاكلةِ تلك الحيتان التي نلمحها من سُفنِ تجارةِ الرقيقِ أحيانًا في عُرض البحر. أكثر من مرَّةٍ لجأ إليَّ أبناؤها، ودائمًا ما كنت أتمكَّن من إراحتها. ذلك اليوم، بدا لي وجهها أفضلَ عافيةً، وابتسمت لي قائلةً:

ـ هاتِ ذراعك يا تيتوبا حتى أخطو معك خطواتٍ.

أطعتُها. هبطنا طولَ الشارع المُفضي إلى مركز القريةِ الذي ما يزالُ مُضاءً بشمسٍ شاحبة. وكنت قد عدتُ إلى السقوط في حيرتي المربكة، حين سمعتُ صوتَ ريبيكا نورس يهمس لي:

ـ ألا تستطيعين معاقبتهم يا تيتوبا؟ إنَّهم آل هولتون مَن أهملوا وثاق خنازيرهم، لقد عاثوا فسادًا في بستان خضراواتنا.

ظللتُ برهةً غير مستوعبة. ثم أدركتُ ما تريده منِّي. تملَّكني الغضبُ فأفلتُّ ذراعها، وتركتها واقفةً مائلة أمام السياجِ.

كلَّا.. لن تصيِّرني مثلهم! لن أنقاد. لن أسبِّبَ الأذى!

أيَّامًا بعد ذلك، مرضتْ بِتسي.

لم أعجبْ لمرضها. ذاك أنِّي أهملتها كثيرًا في الأسابيع الماضية، منكفئةً بأنانيَّةٍ على نفسي وضِيقها. ما عدتُ أذكر حتى إذا ما كنتُ قد صلَّيتُ لها صلاةً صباحيَّةً، وأطعمتها جرعةَ عافيةٍ. الحقّ أنِّي ما عدتُ أراها. لقد صارت تقضي أغلب وقتها مع آن بوتنام، ومِرسي لويس، وماري والكوت، والبقيَّة ممَّن طردتهنَّ من مطبخي فلُذن بالطابق الأوَّل، يغلقن فيه على أنفسهنَّ وينخرطن في ألعابٍ ما كان يخفى عليَّ طابعها المريبُ. ذات يومٍ، أرتني أبيغايل لعبةَ ورقٍ وحده الربُّ يعلم كيف حصلتْ عليها، وسألتني:

- هل تعتقدين أنَّنا نستطيع قراءة المستقبل بواسطة هذا؟

هززتُ كتفيَّ:

- يا عزيزتي أبيغايل، ليست قطعُ كرتونٍ ملوَّنة بالكافية لذلك.

فمدَّت إذَّاك يدها، بكفِّها المنتفخة وبالكاد متورِّدة، حيثُ ترتسمُ الخطوطُ منحفرةً:

- وهنا؟ هل نستطيع أن نقرأ المستقبل هنا؟

هززت كفَّيَّ من دون أن أنطق بكلمة.

أجل، كنتُ أعرف أنَّ الصبايا يمارسن لُعبًا خطيرةً.

لكنِّي كنتُ أغمض عينيَّ عن ذلك. ألمْ يكن كلُّ ذلك الهراء، وتلك الوشوشاتُ، ونوباتُ الضَّحكِ، وسيلتهنَّ في الانتقام من رتابةِ وجودهنَّ الرهيبة!

«في خطيئة آدم

نغرقُ جميعًا...»

«وصمة العار على جبيننا جميعًا

لا نستطيع مسحها» إلخ.

على الأقلِّ، لبضع ساعاتٍ تصرنَ حُرَّاتٍ ومتخفِّفات.

وذات مساءٍ إذن، بعد العشاء، سقطتْ بِتسي على الأرض متصلِّبةً، وظلَّت ممدَّدة هناك، يداها في شكل صليب، وعيْناها زائغتان، وعلى شفتيْها ابتسامةٌ متشنِّجةٌ تكشفُ عن أسنانها الحليبيَّة. هرعتُ إليها لأُنقذها. وما كادت يدي تمسّ ذراعها حتى تراجعت مطلقةً صيحةً. ظللتُ صامتةً مذهولة. وإذَّاك، هرعت السيِّدة باريس وضمَّتها إليها، وأخذتْ تغمرها بالقُبل.

أمّا أنا، فعدت إلى مطبخي.

حين حلَّ الليل، وانسحب كلٌّ إلى فراشه، انتظرت حريصةً لحظاتٍ، ثم نزلت الدرجَ الخشبيّ بخطواتِ لصٍّ. كاتمةً أنفاسي، فتحتُ بهدوءٍ باب غرفة بِتسي، لكنْ، لدهشتي، كانت الغرفة فارغةً،

وكأنَّما والداها قد استشعرا خطرًا وشيكًا، فأخذاها لتنام معهما في غرفتهما.

لم أستطع أن أمنع نفسي من تذكُّر النظرة التي رمتني بها سيِّدتي باريس. إنَّ الداءَ المجهولَ الذي أصاب بِتسي لا يمكن أن يأتي إلَّا منِّي أنا.

يا لجحود الأمَّهات!

مُذ غادرنا بريدجتاون، نذرتُ إخلاصي لخدمةِ سيِّدتي باريس وبِتسي. كنت أترصَّدُ أدنى عطسةٍ تصيبهما، وأقيهما من أقلِّ كحَّة. كنتُ أنسِّم حبوبَهما، وأتبِّلُ حساءهما. وأَخرج في الجوِّ العاصف ألتمسُ لهما رطلًا من دبس. واجهتُ الثلجَ للحصول على بعضِ أكواز ذرة.

ثم في لحظةٍ مُسحَ كلُّ ذلك، وصرتُ عدوًّا. لربَّما في الواقع، كنتُ دومًا كذلك، وكانت سيِّدتي باريس تغارُ من الوشائج التي صارت تربطُ بيني وبين ابنتها!

لو أنِّي كنت أقلَّ اضطرابًا لحاولتُ التوسُّل بعقلي لفهمِ سببِ هذا الانقلاب. كانت إليزابيث باريس تعيش منذ شهورٍ وسط أجواء سالمِ المؤذية، وبين أُناسٍ يعتبرونني وكيلًا للشيطان، ولا يجدون غضاضةً في التعبير عن ذلك، مستغربين كيف لبيتٍ مسيحيٍّ أن يأوينا ـ أنا وجون الهنديّ. على الأرجح، قد أُصيبت السيِّدة بعدوى تلك الأفكار، حتى وإن كانت قد دفعتها عن نفسها بقوَّةٍ في بداية

الأمر. لكنِّي ما كنت قادرة على أخذِ مسافةٍ، مع ما يعتصرني من حزن. مُعذَّبةً عدتُ إلى غرفتي، ورقدتُ في سريري مع وحدتي وحزني. مرَّ الليلُ.

في اليوم التالي، كنتُ أوَّل النازلين، على عادتي، كي أحضِّر طعام الفطور. كانت ثمَّة بيضاتٌ جيِّدةٌ باضتها الدجاجاتُ حديثًا، وكنتُ أخفقها لأصنع منها عجَّةً، حين نزلتِ العائلةُ وجلستْ حول المائدة لتصلِّي صلاتها اليوميَّة. ارتفع صوتُ صامويل باريس مناديًا:

. تيتوبا!

كان يناديني كذلك كلّ صباحٍ. غير أنَّ صوته هذه المرَّة كان يرنُّ بنبرةٍ مختلفة، نبرةٍ متوعِّدة! هرعتُ إليه ملبِّيةً.

وما إن بدا شبحي داخل إطار الباب، لافَّةً حوليَ شالي، إذ كانت النار الموقدة حديثًا ما تزال تُدخِّنُ من دون أن تُدفِئَ، حتى قفزت صغيرتي بِتسي من مقعدها، وأخذت تصيحُ وهي تتلوَّى على الأرض.

تلك الصيحاتُ لم تكن تُشبه في شيءٍ صيحات البشر!

اعتاد العبيدُ كلّ عامٍ أن يسمِّنوا خنزيرًا، يقتلونَه يومَيْن قبل وجبة الميلاد، ويرقِّدَ في منقوع الليمون وأوراقِ عودِ الهند، حتى يتخلَّص لحمه من

قذاراته كلّها. كنّا نذبح الحيوان فجرًا ونعلّقه من قدمه في أغصان شجرة كاليباسييه. وبينما يسيلُ دمه، في دفقٍ كبيرٍ بداية الأمرِ، ثم شيئًا فشيئًا قطراتٍ قطرات، يصيحُ صيحاتٍ حادَّة لا تُطاقُ، يوقفُها صمتُ الموتِ بغتة.

كذلك كانت تصرخُ بِتسي. كأنَّما جسدُ الطفلة قد تحوَّل فجأةً إلى حيوانٍ خسيسٍ تلبَّسته قوَّةٌ وحشيَّة.

ظلَّت أبيغايل في البداية واقفةً، مذهولةً. ثم ما لبثت نظرتها التي لا تفلت شيئًا، أن جاست متنقِّلةً من وجه صامويل باريس المتَّهِم، إلى وجه السيِّدة الذي يعكس أقسى درجات الرعب، إلى وجهي أنا الذي لا بدَّ من أن يعكس الذهولَ الأقصى. وإذ أدركَتْ ما يجري، قفزتْ من مقعدها، مثل متهوِّرٍ يقفز في بركةٍ من دون علمٍ بما يختفي تحت سطحها الأخضر، وأخذت تتلوَّى أرضًا مطلقةً صرخاتٍ مماثلةً.

دامَ الحفلُ المزعجُ دقائق. ثم بدا أنَّ الطفلتيْن قد سقطتا في نوبة إغماءٍ تخشُّبيّ.

قال صامويل باريس إذّاك:

ـ ماذا فعلتِ بهما يا تيتوبا؟

وددتُ لو أجبته بضحكةِ ازدراءٍ مجلجلةٍ قبل أن أعود إلى مطبخي، لكنَّني بدلًا من ذلك، ظللتُ جاثيةً

على الأرض، مرعوبةً، أحدّق في البنتيْن، عاجزةً عن النطق بكلمة.

في النهاية، قالت سيِّدتي باريس بصوتٍ متذمِّر:

. أرأيت أثرَ شعوذاتك!

إذّاك، انطلقتُ:

. سيِّدتي باريس، عندما كنتِ مريضةً، ألم أعالجْكِ؟ وفي المنزل البائس ببوسطن، حين أوشكت على الهلاك، مَنْ جعلَ شمسَ العافية تُشرق عليكِ مجدَّدًا؟ ألستُ أنا؟ ومع ذلك، تتحدَّثين عن شعوذات؟

دار صامويل باريس حول نفسه مثلَ وحشٍ ضارٍ رصدَ فريسةً جديدةً، وأرعد:

. تكلَّمي يا إليزابيث باريس! أأنتِ أيضًا استسلمتِ إلى ألاعيب الشيطانِ هذه؟

ترنَّحت المخلوقةُ المسكينةُ قبل أن تجثو على ركبتيْها عند قدميْ زوجها:

. سامحني يا صامويل باريس، لم أكن أعرفُ ما أفعل!

لا أدري أيَّ جرمٍ كان ليرتكبه صامويل باريس في حقِّها، لولا أنَّ بِتسي وأبيغايل في تلك اللحظة خرجتا من حال التصلُّبِ، وعادتا تصيحان بأشدّ ما

يكون الصياح، كأنَّما أصابتهما لعنة.

ما لبث أن تردَّد طرْقُ ضرْباتٍ على خشبِ بابِ المدخل، كانت ضرْبات قبضاتِ جيراننا المحتشدين. انقلب وجه صامويل باريس. وضع إصبعه على شفتيْه، ثم أمسك البنتيْن كحزمتَي حطبٍ، وحملهما إلى الطابق الأوَّل. وبعد برهةٍ، عدَّلت سيِّدتي باريس هيئتها وفتحت الباب للفضوليِّين، وهي تتمتم بكلماتٍ مُطْمئنة:

- لا شيء، لا شيء. إنَّما السيِّد باريس قد قرَّر هذا الصباح تأديب ابنتيْه.

أمَّن القادمون على كلامها في جَلَبة:

- إنَّه لأمرٌ ينبغي أن يُفعلَ كثيرًا!

السيِّدةُ شيلدون التي كانت ابنتها سوزانا ممَّن يغلِّقن على أنفسهنَّ يوميًّا مع بِتسي وأبيغايل، هي أوَّلُ من أطلقَ نغمةً نشازًا:

- إنَّ لصوتهما رنينًا مثل رنين صوت أطفالِ غودووين. نرجو أن لا تكونا مسحورتيْن!

ولا ريب في أنَّها، إذ كانت تتحدَّثُ على هذا النحو، كانت تحدِّقُ فيَّ بنظرتها الشاحبة القاسية.

تمكَّنت السيِّدة باريس من أن تصطنعَ ضحكةً:

- ماذا تقولين يا سيِّدة شلدون؟ أَمَا علمتِ أنَّ

الأطفال كالخبز الذي ينبغي أن ندعكه وفق هوانا؟ وصدِّقيني، إنَّ صامويل باريس خيرُ خبّازٍ!

انفضَّ الجميع. وعدتُ أنا إلى مطبخي. وبقليلٍ من التفكير، تجلَّت لي الأمورُ واضحةً. عن قصدٍ أو بغير قصدٍ، بوعيٍ أو من غير وعيٍ، شيءُ ما، أو شخصٌ ما، حمَل بِتسي عليَّ، ذاك أنّ أبيغايل لم تكن إلّا كومبارسًا ماهرًا في تصيُّد الفائدة التي يمكن أن يجنيها من دورٍ جيِّد. كان عليَّ إذن أن أستعيدَ ثقةَ الطفلة، وهو أمرٌ لا أشكّ في قدرتي على الاضطلاعِ به إن تمكَّنتُ من الانفرادِ بها.

ثم ينبغي أن أحميَ نفسي، وهو أمرٌ تأخَّرت في القيام به! ينبغي أن أردّ السنّ بالسنّ والعين بالعين. لا مكان لدروس مان يايا التي أكل عليها الدهر وشرب. إنَّ ما يُحيط بي لا يقلّ ضراوةً عن الذئاب التي تعوي بالموت في غابات بوسطن، وعليَّ أن أُجاريها في العَواء.

على أنَّ ثمَّة شيئًا كنت أجهلُهُ: إنَّ الشراسةَ موهبةٌ تمنحُ للإنسانِ بالولادة. إنَّها لا تُكتسبُ. من لم يأتِ منّا إلى العالم مسلَّحًا بالمخالب والأنياب، سيخسر كلّ معركةٍ يخوضها.

- 11 -

طيلة السنوات التي جمعتنا، وأنا أتأمَّلكِ يا امرأتي الكسيرة، وأقول لنفسي إنَّكِ لا تفهمين عالم البِيض الذي نعيش فيه. إنَّك تُجيزين استثناءات. تحسبين أنَّ فيهم من يمكن أن يقدِّرنا، أن يحبّنا. لشدّ ما أنتِ مخطئة! ينبغي أن تكرهي بلا تمييز.

ـ كم يليق بكَ هذا الحديث يا جون الهنديّ! أنت الذي تشبه الدمية بين أيديهم. أشدُّ هذا الخيطَ، فتُشدّ أنت...

إنَّما ألبسُ مضطرًّا أقنعةً يا امرأتي! أقنعةً ألوِّنها كما يشتهون. عيْنان حمراوان وجاحظتان؟ «حاضر، يا سيِّدي!» فمٌ مرتخٍ وأرجوانيّ؟ «حاضر، يا سيِّدتي!» أنفٌ أفطس كأنفِ علجوم؟ «أمركم يا سادتي ـ سيِّداتي!» وخلف الأقنعة أكون أنا، حرًّا، جون الهنديّ! أتأمَّلكِ تمصِّين الصغيرة بِتسي كحلوى بالعسل، وأقول لنفسي: «أتمنَّى ألَّا تُصابي بخيبة!»

ـ تظنّ إذن أنَّها لا تحبّني؟

ـ نحن عبيدٌ يا تيتوبا! العالم بأكمله لا يحفل بنا!

كنت أصطدم بجدار جون الهنديّ، ذاك أنَّ كلامه كان شديدَ القسوة. وانتهى بي المطاف إلى أن تمتمت:

ـ ما الذي سيحدث الآن؟

فكَّر ثم قال:

ـ إنَّ صامويل باريس حريصٌ أكثر من أيِّ شخص آخر على ألَّا تتردَّد في سالم شائعةُ إصابة ابنتيْه بالسِّحْر. سيستدعي الطبيب غريغس آملًا في أن يكون مرضُ ابنتيْه معروفًا وعاديًّا. لن تتعقَّد الأمور إلَّا متى فشل الطبيب في علاجهما!

قلت زافرةً:

ـ إنَّ بِتسي لا يمكن أن تكون مريضةً يا جون الهنديّ. لقد حميْتها من كلّ...

قاطعني:

ـ تلك هي المصيبة! أردتِ أن تحميها، فحكت التفاصيل ـ ببراءةٍ في البداية، على ما أظنُّ ـ لأبيغايل وعصبة الفاجرات الصغيرات اللاتي كنَّ يصنعن من تفاصيلكِ سُمًّا! وللأسف، كانت هي أوَّل من سُمِّم!

أجهشتُ باكيةً. لم يُرِحني جون الهنديّ، بل زاد بصوتٍ جافٍّ:

ـ هل تذكرين أنّك ابنةُ أبِنا؟

أعادتني هذه الجملة إلى رشدي قليلًا. وكان الصباح يتسلَّل من المنور الضيِّق المتّسخ كمنشفة. كان عليَّ أن أستيقظَ، أن أعودَ إلى رتابة الأشياء.

كان صامويل باريس قد استيقظ ويتهيَّأ لأن يذهب إلى المَجْمَع، إذ كان اليومُ يوافق السبتَ المقدَّس. كانت قبَّعته السوداء تلتهم نصف جبهته، محوِّلةً وجهه إلى مثلَّث قاسي الملامح. استدار نحوي قائلًا:

- تيتوبا، أنا لا أتَّهم من غير قرائن. لذا أعلِّق حكمي. لكنْ إن خلُص الدكتور غريغس إلى وجود تأثير شيطانيّ، فسوف أريكِ وجهي الحقيقيّ.

قلتُ متهكِّمةً:

- ما الذي تقصده بالقرائن؟

ظلَّ يحدِّق فيَّ:

- سأجعلكِ تعترفين بما فعلته بطفلتيَّ، وأشنقك. ما أطيبها من ثمرةٍ ستحملها أشجار ماساتشوستس!

في تلك اللحظة، اقتحمتِ المكانَ السيِّدةُ باريس والبنتان، وكانت أبيغايل تحملُ بين يديْها كتابَ الصلوات.

وكانت البادئة إلى السقوط على الأرض، وأخذت تصيح. وللحظةٍ، ظلَّت بِتسي واقفةً، وجهُها محمرٌّ، وهي متردِّدة، على ما بدا لي، بين المودَّة والرعب. ثم سقطتْ بجانب أبيغايل.

صحتُ بدوري:

ـ كُفّا، كُفّا! تعلمان أنّي لم أفعل لكما سوءًا يا بِتسي ويا أبيغايل! وخاصّة أنت يا بِتسي.. لم أرد بكِ إلّا خيرًا!

تقدَّم صامويل باريس إليَّ، وكانت كراهيته من القوّة بحيث ترنَّحتُ، كأنّما ضربني:

ـ اشرحي! لقد كشفتِ أكثر ممّا ينبغي. ماذا فعلتِ بهما؟

وهذه المرّة أيضًا أنقذني حشدُ الجيران الذين تجمهروا كاليوم السابق بسبب الجَلَبة. شكَّلوا حلقةً وقورًا صموتًا حولَ الطفلتيْن اللتيْن واصلتا تشنُّجاتِهما البذيئة. جون الهنديّ، وقد نزل بدوره، لم يتفوَّه بكلمة وهرع إلى المطبخ، ثم عاد حاملًا دلوَ ماء، وأفرغه على مَمْسوسَتَيْنَا الصغيرتيْن. هدّأهما الماءُ. قامتا، تقطرانِ ماءً، شبه نادمتيْن. قصدنا المَجْمَع.

بدأت الجَلَبة مجدَّدًا حين اتَّخذنا موضعنا في مقاعد الصلاة. اعتاد جون الهنديّ أن يكون أوَّل من يدخل، وفي إثره أكون أنا ثم السيِّدة باريس وبيننا البنتان. وحين أتى دورُ أبيغايل كي تتقدَّم فتجثو على ركبتيْها بجانبي، توقَّفتْ، ثم قفزتْ إلى الخلف قفزةً بلغت بها حتى الشارع الرئيسيّ، وأطلقت العنان لصياحها.

تخيَّلوا قدّاس الأحد بسالم! كانوا جميعًا هناك: جون بوتنام بائعُ الرُّم، الشمّاس توماس بوتنام وزوجته آن، جيل كوري وزوجته مارثا وابنتيْهما، وجوهانا شيبوم، وناثَنيال إنغرسول، وجون بروكتور وإلزابيث... وغيرهم، وغيرهم...! وتنبَّهتُ كذلك إلى الوجوه التي تلمع عيونها إثارةً، وجوهِ البناتِ رفيقات بِتسي وأبيغايل في الألعاب الخطيرة. لشدّ ما كنَّ يتحرَّقن أيضًا إلى الارتماء أرضًا وجذب أنظار المَجْمَع! كنت أستشعر الأمر، لن يبطئنَ في اقتحامِ حلبة الرقص!

وهذه المرَّة، كانت أبيغايل وحدها من أصرَّت على الخداع ومواصلة الضوضاء. لم تقلِّدها بِتسي. لذا ما لبثت أن صمتت بعد برهةٍ وظلَّت مهزومةً، ومنديل رأسها قد انزاح عن نصفِ شعرها. قام جون الهنديّ، وخرج من صفِّ المقاعد، فحملها بين ذراعيْه، ثم اتَّخذ طريق المنزل. مرَّ ما تبقَّى من الوقت من دون أيّ حادثة تُذكر.

أعترفُ بأنِّي كنت ساذجةً. كنت مقتنعةً بأنَّه حتى العِرْقُ الخسيسُ المجرم قد يخلِّفُ نسلًا لطيفًا طيِّبًا، تمامًا مثلما قد تحمل الشجرة بعد توقُّف نموِّها ثمارًا طيِّبةً. كنتُ أؤمن في طيبة بِتسي، التي زاغت موقَّتًا بفعلِ فاعلٍ أجهله، وأنِّي لا شكّ قادرةٌ على استعادة ثقتها. استغللت لحظةً نزلت فيها السيِّدة باريس لكي تستقبلَ دفقَ القادمين لتقصِّي أخبار البنتيْن، فصعدتُ إلى غرفتها.

كانت جالسةً لصق النافذة، أصابعها ساكنةٌ على

نوْل النسيج. وفي ضوء الشفق، كان وجهها الصغير قد اصطبغ بتعبيرٍ بليغٍ جعل قلبي ينقبض. استدارت لوقع خطايَ، وما إن وقعت عيناها عليَّ حتى رسمت على شفتيْها دائرةً، واستعدَّت لإطلاق صرخة. سارعتُ إلى إقفال فمها. عضَّتني بقوَّةٍ حتى نزفتُ، وظللنا نتبادل النظر، بينما جدولُ الدم القرمزيّ يتشكَّلُ على الأرضيَّة.

على الرَّغم من ألمي، قلت بأهدأ ما أستطيع:

ـ بِتسي، من ذا الذي شحنك ضدِّي؟

هزَّت رأسها نافية:

ـ لا أحد، لا أحد.

ألححتُ في السؤال:

ـ أهيَ أبيغايل؟

واصلت هزّ رأسها بتشنُّجٍ:

ـ كلَّا، كلَّا، لقد قالوا لي فقط إنَّ ما أقوم به سيِّءٌ!

سألتُها بالنبرة نفسها:

ـ لِمَ أخبرتِهم؟ ألم أقل لكِ إنَّ كلّ شيء ينبغي أن يبقى سرًّا بيننا؟

ـ لم أستطع، لم أستطع! كلّ تلك الأشياء التي كنتِ تفعلينها بي!

ـ أَلم أبيِّن لكِ أنَّ كلّ ذلك كان فيه خيرٌ لكِ؟

لوت شفتها العليا في ابتسامةٍ قبيحةٍ تكشف عن لثَّتها المريضة:

ـ أنتِ تفعلين خيرًا يا تيتوبا؟ أنتِ زنجيَّةٌ! لا تستطيعين فعلَ إلَّا الشرّ. أنتِ الشرّ!

تلك الكلمات سبق لي أن سمعتُها، أو على الأقلّ قرأتها في النظرات، لكنْ لم أتخيَّل يومًا أنِّي سأسمعها من فمٍ عزيز جدًّا!

ظللتُ مشدوهةً.

فَحَّت بِتسي كثعبان المامبا الأخضر:

ـ ذاك الحمَّام الذي غسلِتني فيه، ما كان يحتوي؟ دم رضيعٍ قتلتِه بخبثك؟

أصابتني في مقتل.

القطّ الذي تطعمينه كلّ يوم؟ كان هو، أليس كذلك؟

أجهشتُ باكيةً.

ـ وعندما تقصدين الغابة؟ هل تذهبين للقائهنَّ

هناك؟ أقصد الساحرات أمثالك، وترقصين معهنّ، أليس كذلك؟

تمكّنت من استجماع قوايَ والخروجِ من الغرفة.

قطعتُ غرفةَ الطعام المليئةَ بالنساء المستثارات الثرثارات، ولُذتُ بمطبخي. أحدُهم أخذ الإناءَ الذي كنت أتأمّل فيه بلدي باربادوس؛ جلستُ على مقعدٍ وقد كسرني الحزنُ. وإذ ظللتُ هناك، منكفئةً على نفسي، أتت إليّ ماري سيبلي. لم أكن أحمل لها من المودّة أكثرَ ممّا أحمله لأغلبِ نساءِ القرية. غير أنّي أُقرّ بأنّها مرّةً أو مرّتيْن تحدّثتْ إليّ بقدرٍ من التعاطف مع السود إزاء المصير الذي أنزله بهم الرجالُ البِيض. أمسكتني من ذراعي، وقالت:

ـ اسمعي يا تيتوبا! قريبًا ستنقضُّ عليك عشيرةُ الذئاب، سوف يمزِّقونك، ويسارعون إلى لعق أشلائك قبل أن يتلكّد الدّم ويفقد نكهته. يجب أن تدافعي عن نفسك وتبرهني على أنَّ الطفلاتِ لسنَ مسحورات.

أصابتني الدهشة، وقلت حذرةً من هذه العناية غير المتوقَّعة:

ـ وُدِّي لو أقدرُ. لكنِّي للأسف، لا أعرف كيف.

خفّضت صوتها:

ـ أنتِ حقًّا الوحيدة التي تجهل ذلك. يكفي أن تصنعي لهنَّ حلوى. الفرق أنّك بدلًا من أن تخلطي

الدقيق بالماء، ستخلطينه بالبول. وحين تنضج الحلوى أطعميهنَّ منها...

قاطعتها:

ـ سيِّدتي سيبلي، مع كلِّ الاحترام الواجب لكِ، احكي هذه الترَّهات في مكانٍ آخر!

انتقلتْ إلى جون الهنديّ الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة:

ـ أَعَلى علمٍ هي بما نفعله بالساحرات؟ إنِّي لأبذلُ كلّ جهدي لمساعدتها، وهي تقابل جهدي بالسخرية!

أخذ جون الهنديّ يُدير عينيْه يُمنةً ويُسرةً، ثم نطق بصوتٍ باكٍ:

ـ أوه، أجل يا سيِّدتي سيبلي! ساعديني، أرجوكِ! ساعدي المسكينة تيتوبا، والمسكين جون الهنديّ.

لكنِّي تمسَّكت بكلامي:

ـ احكِ ترَّهاتك في مكانٍ آخر يا سيِّدتي سيبلي!

خرجتْ مستاءةً جدًّا، وفي إثرها جون الهنديّ الذي كان يحاول عبثًا تهدئتها. ونحو نهاية النهار، دخلت عليَّ المطبخ، واحدةً تلو أخرى، أولئك اللواتي كنتُ قد طردْتهنَّ منه. لقد أتين

جميعهنَّ: آن بوتنام. ماري والكوت. إليزابيث هوبارد. ماري وارِن. مرسي لويس. إليزابيث بووث. سوزانا شلدون. سارة تشرشل. وأدركتُ أنَّهنَّ أتين يتهكَّمن منِّي، يتلذَّذن بمشهد هزيمتي. آه، لم تكن تلك سوى البداية! سوف أهوي أبعدَ فأبعد. تنتظرني أذيَّةٌ أكبر. وفي استباقهنَّ السعيدِ هزيمتي، كانت عيونهنَّ تبرق قسوةً. صرن تقريبًا جميلاتٍ في أزيائهنَّ المضحكة! صرنَ تقريبًا مثيراتٍ، ماري والكوت بعجيزتها الشبيهة بالصندوق، وإليزابيث وارن بثديَيْها الشبيهيْن بإجَّاصتيْن ذبُلتا قبل الأوان. وإليزابيث هوبارد بأسنانها الشبيهة بأحجار الرَّحى والتي تطلّ خارجةً من فمها.

تلك الليلة، حلمت بسوزانا إنديكوت وتذكَّرتُ كلامها:

. سألاحقكِ حيَّةً وميتةً!

أهذا إذن انتقامها؟ هل ماتت ودُفنت في مقبرة بريدجتاون؟ هل بيع منزلها لمن دفع أكثرَ، ووُزِّعت أملاكُها على الفقراء كما كانت ترغب؟

أهذا إذن انتقامها؟

كان جون الهنديّ قد عاد إلى خدمة ديكون أنغرسول، وعاد سريري باردًا كالقبر الذي يحفره لي أحدهم. أزحتُ الستار ولمحتُ القمر متربِّعًا وسط السماء. إيشاربٌ من الغيوم يلفّ عنقه،

والسماءُ حوله اصطبغت بلون الحبر.

ارتجفتُ، وعدت إلى النوم.

قُبَيْل منتصف الليل، فُتح بابي، فألفيتُني في حالٍ من الإثارة والقلق لدرجة أنِّي قفزت جالسةً على سريري. كان زائري الليليّ صامويل باريس. لم ينبس بكلمة، وظلَّ واقفًا عند الباب يتلو صلواتٍ لم أتبيَّنها. لمدَّةٍ بدت لي لانهائيَّة، ظلَّت هيئته الممشوقة ساكنةً عند العتبة. ثم انسحبَ مثلما أتى، وخِلتُني قد حلمتُ به هو أيضًا.

في الصباح، انتهى النوم بأن أخذني بين ذراعيْه الكريمتيْن. كان عطوفًا بي. منحني جولةً عبر تضاريس بلدي باربادوس. رأيتُ مجدَّدًا الكوخ الذي شهدتُ فيه أيَّامًا سعيدة، في وحدتي التي أُدرك اليوم أنَّها كانت أعلى درجات الرضا. كوخي لم يتغيَّر! بالكاد تضعضع. بالكاد عَلَتْه الطحالبُ. شجرة التفَّاح المتعرِّشة كانت مثقلة بالثمار. وشجرة الكاليباسييه تعرض استداراتها كأنَّها امرأةٌ حامل. نهر أورموند يشدو كوليدٍ حديثٍ.

بلدي، يا بلدي المفقود! هل سأستعيدك يومًا؟

ـ 12 ـ

كانت تجمعني والدكتور غريغز علاقاتٌ ممتازة. كان على علمٍ بالمجهود الرائع الذي بذْلتُه في سبيل شفاء السيِّدة باريس من سقمها، حتى صارت بفضلي قادرةً على أن تنشد الترانيم بالمجمع يوم الأحد. كان يعلم كذلك أنِّي شفيت البنتيْن من السُّعال والالتهابِ الصدريّ. حتى إنَّه كان قد أتاني مرَّةً يسألني ضمَّادات لجرحٍ خطيرٍ أوقعه ابنُه بِنفسِه.

حتى تلك اللحظة، لم يكن يبدو عليه أنَّه يرى في مواهبي شرًّا. ومع ذلك، حين دفع باب صامويل باريس ذاك الصباح، تفادى النظر إليَّ، فأدركتُ أنَّه يستعدّ للالتحاق بصفوف المتَّهِمين. ارتقى الدّرَج المُفضي إلى الطابق الأوَّل؛ وعلى الجناح، سمعتهُ يتحدَّث إلى السيِّديْن باريس بصوتٍ خافت. وبعد برهةٍ، تردَّد صوتُ صامويل باريس:

ـ تيتوبا، يجب أن تحضري.

أطعته.

كانت بِتسي وأبيغايل في غرفة والديْهما، جالستيْن جنبًا إلى جنبٍ على السرير المغطَّى بلحافٍ. وما كدتُ أدخل الغرفة حتى ارتمتا أرضًا في تناغمٍ بليغ، مطلقتيْن صرخاتٍ مصطَنعة. لم تُثبَط عزيمةُ الدكتور غريغز. وضع على طاولة مجموعة من الكتب الضخمة المجلَّدة، وفتحها على صفحاتٍ كان قد عيَّنها بعنايةٍ شديدة، وجعل

يقرأ بصوتٍ بالغ الجدِّيَّة. ثم استدار شطر السيِّدة باريس، وأمرَها:

ـ جرِّديهما من ملابسهما!

بدت المسكينةُ مرعوبةً، وتذكَّرت ما كانت قد أسرَّت به إليَّ في شأن زوجها: «عزيزتي تيتوبا، إنَّه يجامعني من دون أن ينزع ملابسي أو ملابسه!»

هؤلاء الناس لا يطيقون العريَ، حتى وإن كان عُريَ طفلٍ!

أعاد الدكتور غريغز بنبرةٍ لا تقبل أيَّ مماطلةٍ أو اعتراضٍ:

ـ جرِّديهما من ملابسهما!

اضطرَّت إلى تنفيذ الأمر.

سأضرب صفحًا عمَّا لاقته من صعوبة في تعرية البنتيْن اللتين كانتا تتلوَّيان كدودتيْن قُطعتا نصفيْن، وتصرخان كأنَّما تُسلخان حيَّتيْن!

ومع ذلك، تمكَّنت من إنجاز المهمَّة، وتجلَّى جسدا البنتيْن، جسد بِتسي الطفولي جدًّا، وجسد أبيغايل الذي تترصَّدُه المراهقةُ بوَبْر عانتها القبيح وحلمات نهديْها الورديّتيْن. فحصهما الدكتور غريغُز بعنايةٍ على الرَّغم من النعوت البذيئة التي كان تغرقه بها أبيغايل، ذاك أنَّها قد صارت تزاوج الصراخ بأقبح السباب. وانتهى إلى أن استدار شطر

صامويل باريس، وقال بنبرةِ أسفٍ:

ـ لم ألمس أيَّ اختلالٍ في الطحال أو الكبد، ولا احتقان في الصفراء، ولا ارتفاع حرارة الدم. بصريح العبارة: لا أرى أيَّ سببٍ فيزيولوجيّ. فلا بدَّ لي من أن أخلص إلى القول: إنَّ يد الشرِّير قد طالتهما.

استُقبل كلامه بسيلٍ من النباح والزئير والصياح. رافعًا من صوته كي يهيمن على الجَلَبة، واصلَ الدكتور غريغز:

ـ على أنّي لستُ إلَّا حكيمَ ريفٍ بسيطًا. حبًّا بالحقيقة الأسمى، أرسلوا في طلب زملائي الأشدّ منِّي علمًا.

وإذّاك، لملم كتبه وانصرف.

فجأةً، ساد الغرفةَ الصمتُ، كأنَّما أدركتْ بِتسي وأبيغايل جسامةَ ما نُطق به للتوّ. ثم انخرطت بِتسي في نحيبٍ مزرٍ بدت من خلاله كأنَّما داخَلَها الخوفُ والنّدمُ وتعبٌ لا حدَّ له!

التحق بي صامويل باريس على الجناح، وبصفعةٍ منه جعلني أصطدم بالجدار الفاصل. ثم خطا فوقي وأمسك بي من كتفيَّ. ولم أكن قد انتبهت من قبل إلى مدى قوَّته، كانت يداه أشبه بمخالب الطيور الجارحة، ولم يسبق لي قطُّ أن استنشقتُ بهذا القدر من القرب رائحةَ جسدِه

النتنة.

قال مشدِّدًا على كلّ حرفٍ:

ـ تيتوبا، أكرِّر لك، إن ثَبُتَ أنَّك أنت مَن سَحَر طفلتيَّ، فسأشنقك!

تمكَّنت من أن أُجيب محتجَّةً:

ـ لِمَ أنا أوَّل من يخطر على بالك ما إن يتعلَّق الأمر بالسِّحْر؟ لِمَ لا تفكِّر في جيرانك؟ ماري سيبلي تبدو على اطّلاعٍ بالمجال! استجوبها!

صرتُ أتصرَّف كحيوانٍ محاصرٍ، حيوانٍ يعضُّ ويخمش من استطاع إليه سبيلًا!

صار وجه صامويل باريس جامدًا، وتحوَّل فمه إلى خطٍّ رفيعٍ متعطِّشٍ للدم. أرخى خناقه:

ـ ماري سيبلي؟

ومع ذلك، كان بيِّنًا أنَّه لن يستطيع استيضاحَ الأمر منها، لأنَّ في تلك اللحظة، دخل في لغطٍ إلى الطابق السُفليّ سربٌ من النساء السليطات. كان الداء يستشري، وقد أصاب فتياتٍ أخرياتٍ بالقرية. واحدةً تلو أخرى، سقطت آن بوتنام، ومرسي لويس، وماري والكوت، صريعات ما اتُّفِقَ على تسميته سطوةَ الشرِّير.

من شمال سالم إلى جنوبها، من فوق سجون

البيوتِ الخشبيَّة، من فوقِ محابسِ المواشي، وحقولِ العرعار والأقحوان، كانت ترتفع ضوضاءُ صوتٍ لا شكل له. أصواتُ «المَقْسوسات». أصواتُ الآباء المرعوبين. أصواتُ الخدم أو الأقارب وهم يهرعون لتقديم المساعدة. كان يبدو أنَّ صامويل باريس قد عيلت حيلتُه:

. غدًا سأذهب إلى بوسطن ألتمس النصح من أصحابِ السلطة. ما الذي سأخسره؟

رافعةً تنانيري فوق نعل الخشب الذي كان يحصر الدم في قدميّ، ركضتُ عند آن وتوماس بوتنام. كان توماس بوتنام قطعًا أحد أغنى الرجال بسالم. كان هذا الماردُ المذهلُ، بقبَّعته التي يبلغ محيطها مترًا، وعباءتِهِ المصنوعةِ من القماش الإنجليزيّ الثقيل، يشكِّلُ مع زوجته ثنائيًّا متباينًا على نحوٍ معتبر، تباينًا يتَّفق الجميعُ، همسًا، على لامنطقيَّته. وفي غير مرَّةٍ أفصحت لي ابنتهُما، الصغيرة آن، عن رغبة والدتها في أن تتحدَّث معي في شأن الرؤى التي تعرض لها.

. أيّ رؤى؟

. ترى بعضُهم يُشوى في النار!

ولا أحتاج أن أبيِّن أنَّني بعد عبارتها تلك، فضَّلت أن أتجنَّب أيّ اتِّصال بآن بوتنام!

في غمرة الحشد الذي ازدحم به الطابقُ السفليُّ

من بيت آل بوتنام، لم يتنبَّه إليَّ أحد، واستطعتُ أن أتأمَّل، ما طاب لي، اختلاجات جسد الصغيرة آن. في لحظةٍ ما، انتصبت، وأشارت بإصبعها إلى الحائط قائلةً بصوتٍ مسرحيّ:

ـ هناك، هناك، إنَّني أراه بأنفه الشبيه بمنقار نسرٍ، وعينيْه ككرتَيْن من اللّهب، وجسمه المغطَّى بشعرٍ طويل. هناك، هناك، إنَّني أراه!

ما الذي كان منتظرًا؟ أن ينخرط الحشد في الضحك، قبل أن يهدِّؤوا من مخاوفها الطفوليَّة؟ بدلًا من ذلك، هرعوا في كلِّ اتِّجاهٍ، وجثوا على رِكَبهم يتلون ابتهالاتٍ وصلواتٍ. وحدها سارة غود استلقت على ظهرها مطلقةً صهيلًا من الضحك. لا بل بلغ بها الحدّ أن قالت:

ـ ما الذي تنتظرون لكي تذهبوا وترقصوا معه؟ إذا ما كان ثمَّة من وحوشٍ في هذا المكانِ، فلعمري إنَّكم منها!

ثم أخذت صغيرتها دوركاس من يدها، وانسحبت. وكان عليَّ أن أفعل مثل فعلها. لأنَّ في خضمِّ الجَلَبة التي أحدثها رحيلها بعد ما أطلقته من كلامٍ ساخر، نظر كلُّ واحدٍ جهةَ جاره، فاكتشفوا وجودي في الركن الذي كنتُ قد لذتُ به.

وكانت السيِّدة بوب هي من رماني بأوَّل حجر:

ـ ما أروعها من عضوةٍ جديدة ضمَّها إلينا السيِّدُ

صامويل باريس! الحقّ أنَّ الرجلَ قد فشل في استنبات الذهب، فوقع على هذه التينة الملعونة!

كانت السيِّدة بوب امرأةً غير متزوِّجة، وكانت تقضي أغلبَ وقتها متنقِّلةً بين بيوت سالم حاملةً سلَّةً ملأى بالنميمة. كان لديها دومًا الخبرُ: لمَ هلك هذا الرضيعُ، ولِم ما يزالُ بطن تلك المرأة المتزوِّجة فارغًا... وعمومًا كان الجميع يتحاشوْنَها. على أنَّها قد حازت هذه المرَّة الإجماعَ. حذت السيِّدة هونتشينسون حذوها، وألقمتني ثانيَ حجرٍ:

. ما إن ظهر في القرية، ومعه وجوه الموت تلك، حتى أدركتُ أنَّه قد فتح علينا باب الشؤم! والآن ها قد حلَّت بنا اللعنة!

ما الذي كان بوسعي أن أقوله دفاعًا عن نفسي؟

ولدهشتي، جرؤت السيِّدة إلزابيث بروكتور التي كانت تتابع المشهد بأسًى عظيمٍ، على أن ترفع صوتها:

. حذارِ أن تدينوا قبل أن تحكموا! إنَّنا لا ندري بعد ما إذا كان الأمرُ سحرًا...

غطَّت على صوتها أصواتٌ:

. بلى! إنَّه سحر. وقد أكَّده الدكتور غريغز!

هزَّت السيِّدة بروكتور كتفيْها بشجاعة:

ـ وماذا بعد؟ ألم يحدث أن أخطأ طبيبٌ من قبلُ؟ أوليس هذا الطبيبُ غريغز هو نفسه سبب رقود زوجة ناثانيال بايلي في المقبرةِ، إذ عالج حلقها حين كانت تعاني تسمُّمَ الدم؟

قلتُ لها:

ـ لا تتعبي نفسك في الدفاع عنِّي يا سيِّدتي بروكتور! إنَّ لعابَ العُلجوم أبدًا لا ينتقص من عطر الوردة!

قطعًا كان عليَّ أن أختار مقارنةً أفضل، وذاك ما لم يفُت أعدائي الانتباه إليه، فتضاحكوا:

ـ مَن الوردة؟ أنتِ يا تيتوبا؟ إنَّكِ مخطئة يا مسكينة، إنَّكِ مخطئةٌ في شأن لونك.

على الرَّغم من أنَّ مان يايا وأبِنا أمِّي ما عادتا تكلِّمانني، إلَّا أنَّني كنت أستشعر حضورهما بجانبي بين الفينة والأخرى. كثيرًا ما كان يحدث، في الصباح، أن يتعلَّق شبحٌ واهنٌ بأستارِ غرفتي، قبل أن يأتي عند طرفِ سريري فيتكوَّم على نفسِهِ كثعبانٍ، ويغمرني، وإن كنت لا أراه، بدفءٍ مذهلٍ. فأتعرَّف إذّاك على أبِنا من أريج زهرة العسلة الذي كانت تضوع به غرفتي البائسة. أمَّا ريح مان يايا، فكانت أقوى، ريحٌ شبه حرِّيفة، وأشدُّ إغواءً. لم تكن مان يايا تغمرني بالدفء، لكنَّها كانت تَهَب روحي ضربًا من الخِفَّة، اقتناعًا بأنَّ

في نهاية المطاف، لا شيء يستطيعُ تدميري. إن أردت أن ألخِّص القولَ، سأقول إنَّ مان يايا كانت تحمل إليَّ الأملَ، وأبِنا أمِّي الحنانَ. غير أنَّنا سنتَّفق على أنَّني إزاء الخطر الكبير الذي كان يتهدَّدُني، كنتُ أحتاج تواصلًا أوثَق. كنت أحتاج تواصلًا من كلامٍ. أحيانًا لا شيءَ يساوي الكلمات. فعلى الرَّغم من أنَّها تكون في الغالب الأعمّ كذَّابةً، خدّاعةً، إلَّا أنَّها تظلُّ بلسمًا لا غنًى عنه.

في خمٍّ بناهُ جون الهنديّ خلف بيتنا، كنت أربِّي طيورًا. وكثيرًا ما قدَّمت بعضَها قربانًا لأحبَّتي اللامرئيِّين. لكنَّني الآن، أحتاجُ رُسلًا من نوعٍ آخرَ. على بعد منزليْن من بيتنا، كانت السيِّدة العجوز هونتشينستون تفخر بقطيعها من الخرفان، وخاصَّةً منها خروفًا نقيًّا من أيِّ دنسٍ، وعلى جبينه غرَّة. فجرًا، حين يرتفع صوتُ البوق الذي يُعلن لسكَّان سالم أنَّه قد حان وقتُ الانصرافِ إلى العمل تمجيدًا للربّ، كان ينطلقُ راعٍ، تستأجر خدمتَه السيِّدة هونتشينستون، سالكًا طريق المرعى الجماعيّ الواقع عند طرف القرية، وفي إثره كلبان أو ثلاثة. ولم تسلم السيِّدة هونتشينستون من شجاراتٍ لأنَّها رفضت أداء ضريبة المرعى. تلكم كانت قرية سالم! مجمَّعٌ بشريّ حيث النهبُ والخِداعُ والسرقةُ تتستَّرُ جميعًا بمعطف الربّ. وعبثًا وصم القانونُ جباهَ اللصوص بحرف B(18)، وجلدَ الأبدانَ، وجذعَ الآذان، وقطعَ الألسنة، إذ ظلَّت الجريمة تزدهرُ!

كلّ ما سبق كي أشرح أنَّني لم أجد أيَّ غضاضةٍ

في أن أسرقَ سارقةً!

فككتُ حبل الزريبة، وانسللت بين البهائم النائمة، التي ما لبث أن سرى بينها القلق. أمسكت الخروف. بدأ يقاوِم بين يديَّ، متراجعًا إلى الخلف. لكنَّني كنت الأقوى، فاضُطرَّ إلى مسايَرتي.

قدتُه إلى حافَّة الغابة.

للحظةٍ ظللنا نتبادل النظرَ، هو الضحيَّة وأنا الجلَّاد، لكنَّني كنت أرتعد وأتوسَّل إليه أن يسامحني ويحملَ صلواتي إلى حيث يصل دمُه المضحَّى به. ثم ذبحته بضربةٍ واحدة، من دون أن أحزَّ. خرَّ أرضًا بينما التراب حول قدميَّ يبتلّ بالدَّمْ. عفَّرتُ جبيني بدمِهِ الطازَج. ثم أخرجت أحشاءه، من دون أن أهتمّ لنتانة الأعضاء والمصران. قطعتُ جزرَتَه أربعَ قطعٍ متساويةٍ وجَّهتُها شطرَ جهات العالم الأربع، قبل أن أتركها قربانًا لذويَّ.

ثم ظللتُ، بعد ذلك، ساجدةً تتزاحم في رأسي الصلوات والترانيم. هل ستكلِّمانني؟ المرأتان اللتان منهما استللتُ حياتي؟ إنِّي أحتاجهما. لقد فقدتُ أرضي. فقدتُ رَجُلي. واضطررتُ إلى قتل طفلي. لذا، أحتاجهما، أحتاج من أنجبتاني. مرَّ وقتٌ لا أستطيعُ تقديرَه. ثم حدث صوتٌ في الأجمة. صارت أمامي مان يايا وأبِنا أمِّي. هل ستخرقان الصمتَ الذي كنَّا نضربُ به أنفسنا كالجدارِ؟ كان قلبي يخفقُ بكلِّ ما أوتي من جهدٍ. وأخيرًا، نطقت مان يايا:

. لا تجزعي يا تيتوبا! أنت تعلمين أنَّ النحسَ توأمُ الزنجيّ! يولد معه، يشاركه الفراشَ، وينازعه الثدْيَ اليابسَ نفسه. يأكل من إنائه. ومع ذلك، فإنَّ الزنجيَّ يقاوم! فلا ينالُ من يريدون هلاكَه مرادَهم. من بين الجميع، لن ينجو سواكِ!

رجوتُها:

. هل سأعود إلى باربادوس؟

هزَّت مان يايا كتفيْها، واكتفت بالقول:

. أهذا سؤال؟

ثم بحركةٍ خفيفة من يدها، اختفت. أمَّا أبِنا أمِّي، فبقيت مدَّةً أطولَ، مطلقةً حصَّتها المعتادة من الزفرات. ثم ما لبثت أن اختفت بدورها، من غير أن تزيدني وضوحًا.

قمت من مكاني أكثر اطمئنانًا. على الرَّغم من البَرْد، بدأت تطنُّ ذباباتٌ استدرجَتْها رائحةُ الدمِ واللحمِ الطريّ. عدتُ إلى القرية التي كان نفير الاستيقاظ قد بدأ يدوِّي فيها. لم أنتبه إلى أنِّي قضيت كلّ ذلك الوقت في الصلاة. كانت سارة هونتشينتسون، وقد استلَّها من سريرها الراعي بعدما لاحظ اختفاء أفضل بهائمها، قد حشرت شعرها في منديلٍ على عجلٍ، وجعلت تصرخ غاضبةً:

ـ يومًا ما سيحيق بسكَّان سالم عذابُ الربِّ، كما حاقَ بسكَّان سَدوم، وتمامًا كما في سَدوم لن يكون ثمَّة عشرةُ خيِّرين ليجنِّبوا المدينة العذابَ الأكبر. لصوص، كهفُ لصوصٍ!

بلغ بي النِّفاقُ حدّ أن أتوقَّف أمام بيتها كأنَّما أواسيها في مُصابها، فكان أن سحبتني إلى ركنٍ من حديقتها، وهمستْ لي:

ـ ساعديني يا تيتوبا في إيجاد من أساء إليَّ، وعاقبيه! ليهلك أكبر أبنائه، إن كان لديه أبناءٌ، بداءٍ يُشبه الجدريَّ. وإن لم يكن لديه أبناء، فاجعلي امرأته لا تحملُ أبدًا! إنَّك تقدرين، أعلمُ ذلك. في كلِّ مكانٍ يردِّدونَ أنْ لا ساحرةٌ أخطرُ منكِ!

نظرتُ في عينيْها، وأنا مفعمةٌ بالغطرسة العابرة التي بثَّتها في نفسي مان يايا وأبِنا أمِّي، وقلت:

ـ إنَّ الأخطرَ ليسوا أولئك الذين نذكرهم بالاسم. لقد عشتِ بما يكفي يا سيِّدتي هونتشينتسون، لكي تُدركي أنَّ على المرء ألَّا ينصت إلى كلِّ ما يُقال!

ضحكت ضحكةً شرِّيرة:

ـ ها أنتِ ذي تنطقين بالحِكَم يا زنجيَّتي! لن تكوني بهذا القَدْر من الحِكْمة حين تتأرجحين في حبل.

مرتجفةً رغمًا عنِّي، عدتُ إلى منزلي.

قد يعجبُ المرء من كوني أرتجفُ لفكرة الموت. لكنَّه اللبس الملازمُ لأبناء جنسي. إنَّنا نملك جسدًا فانيًا، وبالتالي نقع فريسةً لكلِّ المخاوف التي تهاجم عامَّة الناس. مثلنا مثلهم نخشى الألم. ومثلهم نرتعبُ من الرُّدهةِ الرهيبةِ التي تنتهي إليها الحياةُ الدنيا. مهما عَلِمنا أنَّ الأبواب ستُفتح أمامنا لنعانق شكلًا آخر من الوجود، وجودًا أبديًّا، نظلُّ نختنق قلقًا. وحتى أُعيد السكينة إلى قلبي وروحي، كان عليَّ أن أردِّد كلمات مان يايا:

. من بين الجميع، لن ينجو سواكِ!

II

- 1 -

مثل طيورٍ جوارح، استقرَّ الشمامسةُ الثلاثة في حُجرة الطعام. أحدهما أتى من أبرشيَّة بي؟رلي، والآخران من سالم. مدُّوا أقدامهم البارزةَ العظام شطرَ النار التي كانت تتلألأُ وهَّاجةً متَّقدةً في المدفأة. ثم بسطوا راحات أكُفِّهم إلى النار. وأخيرًا رفع أحدهم، وكان أصغرهم سنًّا واسمه صامويل آلِن، عينَيْه نحو صامويل باريس، وسأله:

- أين الطفلات؟

أجابه صامويل باريس:

- ينتظرن في الطابق الأوَّل.

- جميعهنَّ هناك؟

هزَّ صامويل باريس رأسَه، وقال:

- لقد طلبت من آبائهنَّ اقتيادهنَّ إلى هنا منذ الصباح الباكر. وهم أنفسهم ينتظرون في المجمع رافعين إلى الربِّ صلواتهم.

قام الشمامسةُ الثلاثة:

- لِنَحْذُ حذوهم إذن، فالمهمَّة الموكولون بها تتطلَّبُ رعايةَ الربِّ!

فتح صامويل باريس كتابه، وبدأ القراءة بتلك النبرةِ الحماسيَّةِ المزيدة المحبَّبة عندَه:

«هكذا يقول ربّنا الأزليُّ:

السماءُ عرشي

والأرضُ موطئُ قدميَّ.

أيّ بيتٍ ستبنونَ لي؟

وأيّ مكانٍ ستجعلونَه مقاميَ؟

وكلّ ما يوجدُ هو صنعةُ يدي...»

قرأ كذلك لدقائقَ ثم أقفلَ الكتابَ، وقال:

. سِفْر إشعياء، الإصحاح السادس والستُّون.

وكان إدوارد بايسون القادم من بي؟رلي هو من أصدر الأمرَ:

. أنزلْهنَّ!

وبينما يغادرُ صامويل باريس على عجلٍ، استدار نحوي، وقال بطيبةٍ غريبة:

. إن كُنتِ بريئةً، فليس ثمَّة ما تخشينَه!

أجبته بصوتٍ جاهدتُ في جعلِهِ مطمئنًا، لكنَّه كان يرنُّ مرتجفًا أجشَّ:

. أنا بريئة.

دخلت الطفلات إلى الحجرة. ولم يكن صامويل باريس قد قال الحقيقة حين ادَّعى حضورهنَّ جميعًا، فالواقع أنَّه لم يكن ثمَّة إلَّا بِتسي وأبيغايل وآن بوتنام. فأدركتُ أنَّه من بين كلّ البنات لم يختَر إلَّا أصغرَ المَمْسوسات، كما يُسمَّيْنَ. لم يختر إلَّا الأكثرَ مدعاةً للشفقة، أولئك اللواتي ليس في قلوب آبائهنَّ وأزواجهنَّ إلَّا الرغبة في إراحة آلامهنَّ ووضع حدٍّ لعذابهنَّ.

بدا لي أنَّه، باستثناء بِتسي ببشرتها الشاحبة وعينيْها اللتين يلمع فيهما الرُّعبُ، كانت أبيغايل وآن في أفضل حالٍ، خاصَّةً أولاهما بهيئتها الماكرة، هيئةِ قِطٍّ يستعدّ لأن ينقضَّ على وليمةِ عصافيرَ لا حولَ لها ولا قوَّة.

كنت أعلم قطعًا أنَّني مستهدفة، لكنَّني لن أقدر أبدًا أن أصف شعوري حينها. غضبٌ. رغبةٌ في القتل. وجعٌ، وجعٌ خاصَّةً. كنتُ الحمقاءَ التي آوت الأفاعي في حضنها الدافئ، التي ألقمت ثديَها أفواهَهُنَّ المثلَّثة التي تخفي ألسنتهنَّ المفلوقة. لقد خُدعت. قُدِّمتُ فديةً مثلَ سفينةٍ مثقلةٍ بلؤلؤ البندقيَّة. وها بحّارٌ إسبانيٌ يشقُّ جسدي بسكِّينه.

إدوارد بايسون، باعتباره أكبر الرجالِ الأربعة سنًّا، وقد غزا الشيْبُ شعره وترهَّلَ جلده، كان البادئ في السؤال:

. أخبِرننا، كي نحاول مساعدتكنَّ، من الذي يعذِّبكنَّ؟

قلن بتردُّدٍ محسوبٍ، كي يمنحنَ كلامهنَّ ثقلًا:

. إنَّها تيتوبا!

وفي غمرة الضوضاء التي شوَّشت أحاسيسيَ، سمعتهنَّ يضفنا أسماءً أخرى، لم أدرِ لمَ رصَفْنها جنبًا إلى جنبٍ واسميَ:

. إنَّها سارة غود! إنَّها سارة أوسبورن!

مُذ أتينا إلى سالم لم أتبادل الكلام مع سارة غود وسارة أوسبورن إلَّا قليلًا. لم تزد علاقتي بآل غود عن قطعةِ حلوى الليمون التي كنتُ أمدُّها إلى دوركاس غود حين كانت تمرُّ من تحت نافذتي بهيئتها التي تنمّ عن سوءِ تغذية.

كما طيورٍ جوارحَ هائلة الحجمِ، اقتحم الرجال الثلاثة غرفتي. كانوا قد حشروا رؤوسهم في طاقيَّات سوداءَ ثُقبت بحيث لا تُرى منها إلَّا عيونهم، وكان يخرج عبر نسيجها بخارُ تنفُّسهم. لفُّوا سريعًا حول سريري. أمسك اثنان منهما بذراعيّ، بينما طوَّق الثالث قدميَّ بشدَّة حتى صرختُ من الألم. ثم تكلَّم أحدُهم، فتعرَّفت في

نبرته صوتَ صامويل باريس:

. ألا فلتتمخّضْ، على الأقلِّ، الجحيمُ التي فتحتِها عن شيءٍ خيِّرٍ. إنّ من السَّهل علينا أن نقتلك. لن تُرفع في القرية إصبعٌ لإدانتنا، وقضاةُ بوسطن لديهم مشاغلُ أهمّ. وذاك فعلًا ما سنقوم به إن لم تطيعينا. لأنَّكِ يا تيتوبا لا تستحقّين حبلَ المشنقة!

تمتمتُ:

. ماذا تريدون منّي؟

أحدهم، وكان يجلس على حافَّة السرير، مالَ عليَّ حتى كاد يلامسني، وقال:

. حين تَمثُلين أمام المحكمة، اعترفي بأنَّ ما وقع صنيعتُك.

صحتُ:

. أبدًا! أبدًا!

أصابت ضربةٌ فمي فأدمته.

اعترفي بأنَّ ما وقع صنيعتُك، لكنْ قولي إنَّك لم تفعلي ذلك وحدك، واعترفي على شركائك! غود وأوسبورن والآخرين!

. ليس لي من شركاء، ما دمتُ لم أفعل شيئًا!

ركب فوقي أحد الرجالِ كأنّني فرسٌ، وأخذ يضربني بيديْه القاسيتيْن كصخرتيْن. ورفع آخرُ تنُّورتي وحشر عصًا حادَّة في أكثر مناطق جسمي حساسيَّةً، وهو يصيح متهكِّمًا:

ـ هاك، هاك! إنّه قضيبُ جون الهنديّ!

حين صرت مجرَّد ركامٍ من ألمٍ، أوقفوا التعذيبَ، واستأنفَ أحدُهم الكلام:

ـ لستِ مخلوقةَ المسيح الدجَّال الوحيدة في سالم. ثمَّة غيرك، وستعترفين بأسمائهم أمام القضاة. أتسمعين!

أدركت ما يرمي إليه. أجبت بصوتٍ محتضر:

ـ ألم تذكر بناتُكم أسماءَ شركائي المزعومينَ؟ ما الذي تريد منّي أن أُضيفه بشأنهم؟

ضحكوا:

ـ إنَّه، كما قلتِ، كلامُ أطفالٍ، كلامٌ ينقصه الكثير! قريبًا سوف نُعلِّمهنَّ ألَّا يحذفن الأساسيّ! وأنتِ هي من سيدشِّنُ هذا الفصلَ!

هززتُ رأسي:

ـ أبدًا! أبدًا!

فانقضُّوا عليَّ من جديد، وبدا لي أنَّ العصا الحادَّة تصعد حتى حلقي. ومع ذلك، صمدتُ وظللتُ أصيح:

ـ أبدًا! أبدًا!

خلَصوا نجيًّا، ثُم صرَّ البابُ ونادى صوتٌ بلُطفٍ:

ـ تيتوبا!

كان صوت جون الهنديّ. دفعه الطيور الجوارح الثلاثة إلى الأمام:

ـ اشرح لها، أنت الذي تبدو أقلَّ حُمقًا!

اِنسحبوا من الغرفة ولم يبقَ فيها غيرُ وجعنا ورائحةُ إهانتي!

ضمَّني جون الهنديّ إليه، ويا لها من عذوبةٍ أن أعود إلى حضنه! بمنديله، اجتهد لمسح الدم من جراحي. أعاد تنُّورتي فوق فخذيَّ المنتهكتيْن، وأحسست بدموعه فوق جلدي.

ـ امرأتي، امرأتي المعذَّبة! مرَّةً أخرى، تخطئين تقدير الأهمّ! الأهمّ أن نبقى على قيد الحياة! إن طلبوا منكِ الاعتراف على أحدٍ، فلتعترفي! اعترفي على نصف سكَّان سالم، إن طُلب منك ذلك! هذا العالمُ ليس عالمَنا، فإن أرادوا له حرقًا، فليحرقوه، الأهمّ أن نكون نحن في منجًى من النار! اعترفي، اعترفي على كلٍّ من يطلبوا منك الاعتراف عليهم!

دفعته عنّي:

. جون الهنديّ، إنَّهم يريدون منِّي الاعتراف بذنبي! غير أنِّي لستُ مذنبةً!

هزَّ كتفيْه، وعاد يحضنني بين ذراعيْه، ويهدهدني كطفلةٍ حرونٍ:

. ألستِ مذنبة؟ بلى، إنَّك كذلك، وكذلك ستظلِّين في نظرهم. المطلوب أن تظلِّي حيَّةً لأجل نفسك ولأجلي... لأجل أطفالنا المقبلين!

. لا تذكر أطفالنا بعد اليوم يا جون الهنديّ، لأنَّني لن أُنجب أطفالًا في هذا العالم المظلم!

لم يعترض على كلامي، واستأنفَ:

. اعترفي عليهم يا امرأتي المغتصبة! وهكذا انتقمي منهم وأنتِ تتظاهرين بطاعتهم، انتقمي لنفسك، انتقمي لي... افعلي كما فعل الربُّ، واجعلي جبالَهم وحقولَهم وأموالهم وكنوزهم نَهْبًا.

كما طيورٍ جوارحَ هائلة الحجمِ، انقضَّ رجال الشرطة الثلاثة بالقرية على سارة غود وسارة أوسبورن وأنا. غير أنَّه لم يكن في إنجازهم ما يدعو للفخر، إذ استسلمنا ثلاثتُنا من دون أيّ مقاومةٍ. حين وضعت سارة غود معصميْها في الأصفاد، اكتفت بالسؤال:

. من سيعتني بدوركاس؟

أخذت الشفقةُ بقلب السيِّد والسيِّدة بروكتور، اللذيْن كانا حاضرَي المشهدَ، فتقدَّما قائليْن:

. اذهبي مطمئنّةً! سنربِّيها مع أبنائنا.

وإذ سمع الحشدُ كلامهما، سرَتْ همهمةٌ، كأنَّما يرى الجميع أنَّ ابنةَ ساحرةٍ لا ينبغي أن تُخلط بأطفالٍ أسوياءَ. وسرعان ما انطلقوا إلى التساؤل عمَّا إذا لم تكن تربطُ السيِّد والسيِّدة بروكتور علاقاتٌ مشبوهةٌ بسارة غود، وتذاكروا كلامَ خادمتهم ماري وارِن حين قالت إنَّ إليزابيث بروكتور كانت تشكُّ بالإبر دمًى شمعٍ تخبِّئها في الدولاب. أوثق رجالُ الشرطة كواحلَنا ومعاصمَنا بقيودٍ ثقيلةٍ جدًّا، حتى إنَّنا بالكاد كنَّا نستطيع الحركة، وسَلَكْنا جميعًا طريقَ سجنِ إبسويتش.

كنَّا في شهر فبراير، أشدّ شهور السنة برودةً، الشهر الذي لا يرحم. اجتمع الحشد طولَ الشارع الرئيسيّ ليشيِّعوا موكبنا، رجال الشرطة في المقدِّمة راكبين على صهواتِ أحصنتهم، ونحن راجلاتٍ نغوص في الثلجِ المخلوطِ بالوحل. ووسْط المشهدِ المؤسِفِ كلِّه، كان يرتفع، مذهلًا، غناءُ العصافير وهي تنتقل من غصنٍ إلى آخر في الجوِّ المُصطبِغ بلونِ الجليد.

وأنا، كنت أسترجع إذّاك كلامَ جون الهنديّ، فأقفُ

على عمقِ حكمته. ساذجٌ هو من يظنُّ أنَّه يكفي أن يُعلنَ براءته لكي يُثبتها! ساذجٌ من يجهل أنَّ الخيرَ المبذولَ تجاه الأشرارِ أو الضعفاءِ ينقلبُ شرًّا! أجل، سأنتقم. سأعترف عليهم، ومن قمَّةِ القوَّة التي منحوني إيَّاها، سأُطلقُ العاصفةَ من عقالها، أشقُّ البحرَ ذا الأمواج العاتيةِ بطولِ الجدرانِ، أقتلعُ الأشجار، أطوِّحُ بأعمدةِ المنازلِ والحظائر، كأنَّما أذرِّي قشًّا في الهواء.

أيُّ الأسماء يريدون منِّي أن أعترف عليها؟

حذارِ! لن أكتفي باسمَي الشقيَّتيْن اللتيْن تضربان معي في الوحل. سأضربُ ضربةً قويَّةً. ضربةً في الرأس. وها أنا ذي في عزِّ الأسر، يجتاحني إحساسٌ بالقوَّة! بلى، لقد كان جونيَّ الهنديُّ مُحقًّا. الانتقامُ الذي طالما حلمتُ به صار طوعَ يدي، وبكامل إرادتهم مكَّنوني منه!

كانت إبسويتش تبعد نحو عشرة أمتارٍ عن سالمٍ، فبلغناها قُبَيْل حلول الظلام. كان المحبسُ مليئًا بالمجرمين، القتلة، اللصوص الذين تعجّ بهم أرض ماساتشوستس، قدْر ما تعجُّ بالأسماك مياهُها. قيَّدَ أسماءَنا في سجلِّ السجنِ شرطيٌّ ذو وجهٍ أحمر كتفَّاحةٍ لفرط ما عبَّ من كؤوس الرُّمّ، ثم راجع جدولًا خلفَه.

. لم تعد ثمَّة سوى زنزانةٍ واحدةٍ فارغة، لذا تستطعن أيَّتها الساحرات أن تعقدن اجتماعاتكنَّ من غيرِ حسيبٍ أو رقيب! الشيطانُ رفيقكنَّ!

رماه معاونوه بنظرةِ عتابٍ: أيجوز المزاح في هذه المواضيع؟ أمّا هو، فجاثمًا على ذروة الكحول الراقصة، لم يعرْهم اهتمامًا.

كوَّمونا واحدةً فوق أخرى. اضُطررتُ أن أتحمَّل رائحة نتانة سارة غود؛ أمّا سارة أوسبورن، فكانت مرعوبةً تتلو صلواتها بنبرةٍ كئيبة. وحوالى منتصف الليل، أيقظتنا ضجَّةٌ:

. إنَّها تُمسك بي، إنَّها تُمسك بي! اتركيني يا مخلوقة الشيطان!

كانت تلك سارة أوسبورن، عيْناها زائغتان، تكادان تخرجان من رأسها. لمن كانت تُشير بإصبعها؟ إليَّ طبعًا! استدرتُ جهة سارة جود أُشهدُها على جموحِ رفيقتنا ونفاقِها. هل كانت تهيِّئ مرافعتها على حسابي؟ وإذا برفيقة سجني الثانية تنخرطُ بدورها في الصِّياح، محدِّقةً فيَّ بعينيْها الشَّبيهتيْن بعينيْ خنزير:

. إنَّها تمسك بي، إنَّها تمسك بي! اتركيني يا مخلوقة الشيطان!

فكان أن أوقف الشرطيُّ، وقد تَعْتَعَهُ السُّكرُ، هذا الهرج والمرج الجهنَّميَّ، بأن أخرجني من الزنزانة بركلاتٍ من قدمه. وانتهى به المطاف بأن قيَّدني إلى معققٍ موضوعٍ في أحدِ الأروِقة.

كانت ريحُ المساء اللاذعة تصفِّر عبر كلّ الأقفال!

ـ 2 ـ

بقينا في الحبس أسبوعًا ننتظر الفراغَ من تحضيراتِ عَرْضنا على محكمةِ سالم. وهذه المرَّة أيضًا، وعلى الرَّغم من خيباتي الحديثة وذكرى وصايا جون الهنديّ، وقعتُ في فخِّ الصداقة الخدَّاعة. إذ كنت أرتجف في الرواق وأنزف دمي، أخرجتِ امرأةٌ يدها من بين قضبان زنزانتها، وأوقفت أحد رجال الشرطة قائلةً:

ـ يوجد هنا مكانٌ لاثنيْن. أدخل هذه المخلوقة المسكينة!

كانت المرأةُ شابَّة، لا تتجاوز الثالثة والعشرين، جميلةً. ومن غير تواضعٍ، تخلَّت عن منديل رأسها، مُبرزةً شعرها البرَّاق الأسودَ كجناح غرابٍ، شعرَها الذي وحده يكفي ليعتبره البعضُ خطيئةً تستوجبُ العقابَ. وبالمثل كانت عيناها سوداويْن؛ لا رماديّتيْن بلون الماء القذر، ولا خضراويْن بلون الشرّ، وإنَّما سوداويْن مثل جناح الليل الكريم. أتت بماءٍ من جرَّةٍ، وجثت على ركبتيْها تحاول أن تنظِّف في وجهي الأورامَ. ومستغرقةً في ذلك، كانت تتحدَّث كأنَّما تُناجي نفسها، كأنَّما لا تنتظر منِّي جوابًا:

ـ ما أروع لون بشرتها، وما أشدَّ ما تستطيع أن تخفيَ تحتها من مشاعرَ! خوف، قلق، غضب، قرف! أنا لم أستطع أبدًا أن أُخفيَ مشاعري، دائمًا ما كانت تفضحني حركاتُ دمي!

أوقفتُ حركةَ يدها:

. سيِّدتي...

. لا تناديني «سيِّدتي».

. كيف أناديك إذن؟

. ناديني باسمي: هيستر (19)! وأنتِ ما اسمك؟

. تيتوبا.

. تيتوبا؟

ردَّدت اسمي بمرح:

. من أين أتيت بهذا الاسم؟

. أبي أطلقه عليَّ ساعة ولادتي!

. أبوكِ؟

رسمت شفتاها تعبير امتعاض:

. تحملين اسمًا أطلقَه عليك رجل؟

في غمرةِ دهشتي بقيت لبرهةٍ عاجزةً عن الإجابة، ثم ما لبثت أن أجبت:

. أليس هذا مصيرَ كلِّ امرأةٍ؟ أن تحمل في البداية

اسم أبيها، ثم بعده اسم زوجها؟

فكَّرتْ ساهمةً، ثم قالت:

ـ أتمنَّى على الأقلِّ أن تكون ثمَّة مجتمعاتٌ لا تنطبق عليها هذه القاعدة. مجتمعُك أنتِ، مثلًا!

جاء دوري أنا لأفكِّر ساهمةً:

ـ ربَّما في إفريقيا، هناك من حيث أتينا، لا تسود هذه القاعدة! لكنَّنا لا نعرف عن أفريقيا شيئًا، وما عادت تهمّنا.

وإذ كانت تذرع الزنزانةَ الضيِّقةَ طولًا وعرضًا، تنبَّهتُ إلى أنَّها كانت حاملًا. كنت ما أزال غارقةً في الصدمة حين عادت نحوي وسألتني برفق:

ـ سمعتهم ينادونك «ساحرة». بمَ يتَّهمونك؟

منساقةً مرَّةً أخرى أمام ما أبدته لي هذه المرأة الغريبة من ودّ، أردتُ أن أشرح لها:

ـ لمَ في مجتمعك...

قاطعتني بفظاظة:

ـ هذا ليس مجتمعي. ألستُ منبوذةً مثلك؟ محبوسةً بين هذه الجدران؟

صحَّحتُ عبارتي:

. ... في هذا المجتمع، تحمل وظيفةُ «الساحرة» دلالةَ شرٍّ؟ إنّ «الساحرة»، إن كان علينا أن نستعمل الكلمة، تصحّح، تقوّم، تعزّي، تعالج...

. لم تقرئي إذن كوتن ميذر!

ثم نفخت صدرها، واتَّخذت هيأةً وقورًا:

« إنَّ الساحرات يأتين أشياءَ مؤذيةً. إنَّهنَّ لا يستطعن القيام بالمعجزات الحقّ، المعجزات التي خصَّ بها الربُّ رسلَه وأولياءه».

ضحكتُ بدوري، وسألتها:

. من هو هذا المدعو كوتن ميذر؟

لم تُجِبْ عن سؤالي، وبدلًا من ذلك، أخذت وجهي بين راحتيْها قائلةً:

. لا يمكن أن تكوني قد ارتكبتِ شرًّا يا تيتوبا! هذا ما أنا متيقِّنةٌ منه، أنتِ أجمل من أن تفعلي شرًّا! حتى إن اتَّهموك جميعًا، سأدعم أنا براءتك!

جرؤتُ، وقد أخذ بيَ التأثُّرُ كلّ مأخذٍ، على أن ألمس وجهها بدوري، وهمستُ:

. أنتِ أيضًا جميلة يا هيستر! بمَ يتَّهمونك؟

أجابت فورًا:

. بالزنا!

نظرتُ إليها برعب، إذ كنت أعرف خطورة هذا الذنب في مذهب البيوريتانيّين.

واصلتِ الكلام:

. وبينما أتعفَّن هنا، يتحرَّك حرًّا ذاك الذي زرع في بطني هذا الطفلَ.

تنهَّدتُ:

. لِمَ لا تعترفين باسمه؟

لفَّت حول نفسها:

. آه! أنتِ لا تعرفين لذَّةَ الانتقام!

. الانتقام؟ أعترف بأنَّني لم أفهم مرادَكِ!

قالتْ بحماسةٍ هائجة:

. من بيننا نحن الاثنيْن، ثقي بي، لستُ أنا الأحقَّ بالرثاء. على الأقلِّ، إن كان واعيًا بما هو منتظرٌ في رجلِ دين.

ازددت حيْرةً على حيْرة. ولا بدَّ من أنَّها قد لاحظت ذلك، إذ أتت تجلس بجانبي على الأرضيَّة القذرة:

. ربَّما عليَّ أن أبدأ من البداية إن أردتِ أن تفهمي

قصَّتي.

أخذت نَفَسًا عميقًا، وكانت عينايَ متعلِّقتيْن بشفتيْها:

ـ على متن سفينة المايفلاور، أوَّل سفينة رست في هذه السواحل، كان جدَّايَ، أبو أبي وأبو أمِّي، وكانا «انفصاليَّيْن» شرسيْن أتيا مع من أتوا يزهرون مملكة الربّ الحقّ. وتعرفين كم هي خطيرةٌ المشاريعُ المماثلة، وسأضرب صفحًا عن الضراوة التي ربُّوا بها نَسْلَهم. وبفضل ذلك، نشأت موجةٌ من القساوسة، ممَّن كانوا يقرأون في النصِّ المقدَّس: شيشرون، وكاتو، وأو؟يد، و؟يرجيل...

قاطعتُها:

ـ لم أسمع أبدًا بهؤلاء!

رفعت عينيْها إلى السماء:

ـ خيرٌ لكِ! أمّا أنا، فلسوء حظِّي، وُلدتُ في عائلةٍ تؤمن بالمساواة بين الجنسيْن. وفي السنِّ التي تلعب فيها البناتُ بالدمى، كان والدي أنا يجعلني أستظهر النصوص الكلاسيكيَّة! أين كنت؟ آه، نعم! وحين بلغت السادسة عشرة، زوَّجوني إلى راهبٍ، صديقٍ للعائلة، كان قد دفنَ ثلاث زوجاتٍ وخمسة أطفالٍ قبلي. كانت رائحة فمه من النتانة بحيث، لحسن حظِّي، كان يُغمى عليَّ ما إن يتمدَّد

فوقي. كنت أرفضه بكامل كياني، ومع ذلك، أنجبتُ منه أربعةَ أطفالٍ، شاء الربُّ أن يأخذهم من هذه الدنيا ـ ووافقَت مشيئتُه مشيئتي ـ ذاك أنَّه كان يستحيل عليَّ أن أحبّ ذرِّيَّة رجلٍ أكرهه. ولا أُخفيكِ، يا تيتوبا، أنَّ كثرة الجرْعات والنُّقع والمطهِّرات والمسهِّلات التي تناولتها أثناء فترة حملي ساعدتْ في بلوغ تلك النتيجةِ المرضية.

همستُ بيني وبين نفسي:

ـ أنا أيضًا، اضُطررتُ إلى قتل طفلي!

ـ لحسن الحظّ، منذ أقلّ من سنة، ذهب إلى جني؟ يتشاور مع باقي الكل؟انيّين في مشكلة المُصطَفين، وإذّاك... وإذّاك...

توقَّفتْ، ففهمتُ أنَّها على الرَّغم من ادِّعائها، كانت ما تزال مغرمةً بجلّادها.

واصلتِ الكلامَ:

ـ إنَّ الحُسنَ في الرجالِ أمرٌ مشينٌ. لا ينبغي للرجال أن يكونوا جميلين يا تيتوبا! جيلان من المصطفين المندَّدين بملذَّات الجسد والمتع، والنتيجةُ هذا الكائنُ الذي يجعلنا عاجزين عن مقاومة التفكير في ملذَّات الجسد. بدأنا نلتقي بحجَّة مناقشةِ التقْويةِ الألمانيَّة. ثم ألفينا نفسيْنا في السرير نُمارس الحبَّ، وها أين وصلتُ الآن!

ضمَّت بطنها بيديْها.

سألتُها:

. ما الذي حدث؟

هزّت كتفيْها:

. لا أدري!... أظنُّ أنَّهم ينتظرون عودة زوجي ليقرِّروا في شأني.

ألححتُ:

. أيّ عقوبةٍ تنتظرُكِ؟

قامت من مكانتها، وقالت:

. ما عادوا يرجمون النساء الزانيات. أعتقد أنَّهنَّ يضطررن إلى أن يحملن على صدورهنَّ حرفًا قرمزيًّا!

جاء دوري لأهزّ كتفي:

. إن كانت هذه العقوبة، فلا بأس!

لكنِّي سرعان ما خجلتُ من استهانتي بالأمر حين رأيت الانطباع الذي ارتسمَ على وجهها. إنَّ هذه المخلوقة الجميلة الطيِّبة، تُعاني أشدّ المعاناة. ها ضحيَّةٌ أخرى تُعامَلُ معاملَةَ المُذنب! أهذا قدرُ النساءُ في هذا العالم؟ بحثتُ عن طريقةٍ أُعيد بها إليها الأملَ، فقلتُ:

. ألستِ حاملًا؟ ينبغي أن تحيَي لأجلِ طفلكِ.

هزَّت رأسَها بحزمٍ:

. طفلتي ينبغي أن تموت معي ببساطة. لقد هيّأتُها لهذا المصير، ليلًا حين نتناجى. أتدرين أنّها تسمعنا الآن؟ هي ذي تدقُّ على بطني لتنبِّهني. أتدرين ماذا تشتهي؟ أن تحكي لنا حكاية! حكايةً من حكاياتِ بلدِكِ! أجيبي رغبتها يا تيتوبا!

ألصقت رأسي على النتوء الجسديّ الناعم، على كثيب الحياة، حتى يكونَ الكائنُ الحيّ الذي يأويه قريبًا من شفتيَّ، وبدأت أقصُّ حكايةً، فأتت الكلماتُ المستعارة من الطقس المحبَّب تضيء محبسنا الكئيب:

. تيم، تيم، أيُّها الخشبُ الجافّ!

. هل نامَ الحضور؟

. كلَّا، لم ينَم الحضور!

. إن لم ينم الحضور، فليسمعوا هذه الحكايَةَ، حكايتي. في قديم الزمان، حين كان الشيطانُ ما يزال يرتدي سُرِيِّلًا قصيرًا يكشف عن ركبتيْه المليئتيْن بالنُّدوب والعُقد، كانت تعيش في قرية واغاباها، على قمَّة جبلٍ مدبَّب، صبيَّةٌ لا أبَ لها ولا أمّ. إعصارٌ كان قد أخذ كوخَ والديْها، وبمعجزةٍ تركها هي تطفو في مهدها مثلما طفا

موسى في اليمّ. وذات يومٍ، بينما كانت تجلس على مقعدها في الكنيسة، لمحتْ غير بعيدٍ من المحراب، زنجيًّا طويلًا واقفًا، كان يرتدي قماشًا أبيض، تحت قبَّعة قشٍّ يحوطها شريطٌ أسود. ويا إلهي، لمَ لا تستطيع النساء الاستغناء عن الرجال؟ لِمَ؟ لِمَ؟

ـ أبي المرحوم، أمِّي المرحومة، أريد هذا الرجلَ وإلَّا متّ!

ـ هل تعرفين ما إذا كان طيِّبًا أم سيِّئًا، هل هو على الأقلِّ بشرٌ، وعروقه يجري فيها الدم؟ قد يكون مزاجٌ كريهٌ مغرورٌ هو ما يسري في عروقه حتى القلب؟

ـ أبي المرحوم، أمّي المرحومة، أريد هذا الرجلَ وإلَّا متّ!

ـ حسنًا، إن أردتِهِ فهو لكِ!

ثم إنَّ الصبيَّةَ تركت كوخَها من أجل الغريبِ صاحب النسيج القطنيِّ، ورويدًا رويدًا، انقلبت حياتُها جحيمًا. لمَ لا نستطيع حماية بناتنا من الرجال؟

وهنا، أوقفتني هيستر إذ أدركت الضِّيقَ في صوتي:

ـ أيّ قصَّة هذه التي تحكينَها يا تيتوبا؟ أليست قصَّتك؟ أخبريني؟ أخبريني؟

لكنَّ شيئًا ما منعني من أن أُفصح.

علَّمتني هيستر كيف أعدّ شهادتي.

عليكم أن تتحدَّثوا إلى ابنة راهبٍ لكي تعلموا شيئًا عن الشيطان! أوَلَم تشاركه الطعامَ منذ طفولتها؟ ألم يتمدَّد فوق ملحفتها في غرفتها الباردة محدِّقًا فيها بعينيْه الصفراويْن. ألم يكن يموء عبر كلّ القطط السوداء؟ وينقّ عبر الضفادع؟ ويجول في هيئةِ الفئران الرماديَّة؟

. أخيفيهم يا تيتوبا! أعطيهم ما يرضيهم! صِفيه في هيئة تيس، أنفه كمنقار نسر، جسمه مكسوٌّ بالزغب الطويل، وحول خصره، يشدُّ حزامًا من رؤوسِ العقارب. اجعليهم يرتعدون، يرتجفون، يُغمى عليهم! رقِّصيهم على نغماتِ نايِه البادي في البعيد! صِفي لهم اجتماعاتِ الساحرات، كلّ واحدةٍ منهنَّ تأتي ممتطيةً مكنستَها، وفكَّاها يقطران اشتهاءً لما سيقدَّمُ على المائدةِ من أجنَّةِ ولدانٍ جُدد مصحوبةٍ بأكوابِ الدم الطريّ...

قهقهت:

. ماذا تقولين يا هيستر، ما هذه السخافة!

. ما داموا يصدِّقون! فما همَّك، صِفي!

. هل تنصحينني أنتِ أيضًا بأن أعترفَ على بعضهم؟

قطَّبت حاجبيْها:

. من نصحكِ بهذه النصيحة؟

لم أُجبها، فقالت بنبرةٍ جادَّة:

. أن تعترفي على! إن فعلتِ ذلك صرتِ مثلهم، هم الذين ليست قلوبهم إلَّا نفايات! إن كان ثمَّة من أساء إليكِ إساءةً بالغة، فانتقمي إن كان الانتقامُ يُسعدك! وإلَّا أضلِّيهم بغمامةِ شكٍّ، وصدِّقيني: سيمنحونَها شكلًا. في اللحظة المناسبة، اصرخي: «آه، لم أعد أرى! آه، إنّي عمياء!» وستنطلي عليهم الحيلة!

قلت بشراسة:

. آه! سوف أنتقم من سارة غود وسارة أوسبورن اللتيْن اتَّهمتاني بغير حقّ!

قهقهَتْ ضاحكةً:

. أجل، أجل! هما على أيَّة حالٍ أقبح من أن تستحقَّا الحياة! هيَّا لنذاكر مرَّةً أخرى الدرس. كيف هو الشيطان؟ لا تنسَي أنَّ في جعبته أكثرَ من هيئةٍ يتصرَّف فيها. وذاك هو السبب الذي يجعل الناس عاجزين عن الإمساك به على الرَّغم من أنَّهم يلاحقونه منذ زمنٍ طويل! أحيانًا، يتصرَّفُ في هيئة رجلٍ أسود تمامًا...

قاطعتُها قلقةً:

- إن قُلتِ ذلك، ألن يخطر ببالهم جون الهنديّ؟

هزَّت كتفيْها بضيقٍ، إذ كانت سريعةَ الضِّيق!

- دعيني من رَجُلِك المؤسف! فهو ليس بأفضلَ من رَجُلي. أليس يُفترض به أن يكون هنا معكِ، يقاسمكِ الضِّيق؟ إنَّ الحياة رفيقةٌ بالرجالِ، سواءً كانوا بِيضًا أم سودًا!

تجنَّبتُ الحديث عن جون الهنديّ مع هيستر، إذ كنت أعلم ما ستقوله، ولم أكن مستعدَّةً لتحمُّله.

على أنّ شيئًا في قرارة نفسي كان يهمس لي بأنَّها تقول الصدقَ. إنَّ لونَ بشَرَة جون الهنديّ لم يكلِّفه حتى نصف ما كلَّفني أنا من مصائبَ. حتى إنَّ بعض النساء، على تشدُّدهنَّ البيوريتانيّ، بادلنه أحاديث مائعة:

- جون الهنديّ، يُقالُ إنَّك تُحسنُ الغناءَ، وليس فقط غناء الترانيم!

- أنا يا سيِّدتي!

- بلى، يُقال إنَّك بينما تعزق أرض ديكن إنغرسول تغنِّي، بل وحتى ترقص في الآن نفسه...

ونَمَتْ بداخلي ضغينةٌ قد تكون على غيرِ حقّ!

حين لم نكن نتمرَّن على شهادتي، كنَّا أنا وهيستر

نتحدَّث عن نفسيْنا. آه كم كنت أحبُّ سماعَها تتحدَّث!

ـ أريد أن أكتب كتابًا، لكنْ واأسفاه! النساء لا يكتبن، وحدهم الرجال يصرعوننا بنثرهم. أستثني منهم بعض الشعراء، هل قرأتِ ميلتون يا تيتوبا؟ آه نسيتُ، أنت لا تعرفين القراءة! الفردوس المفقود، يا تيتوبا، تحفةُ التحف!.. أجل، أريد أن أكتبَ كتابًا أبسطُ فيه نموذجَ مجتمعٍ تحكمه وتُديره النساء! سيحملُ أطفالُنا أسماءَنا، وسنربِّيهم وحدنا...

قاطعتُها ساخرةً:

ـ على أيَّة حالٍ، لن نستطيع أن نصنعهم بمفردنا!

تلبَّسها الحزنُ:

ـ للأسف، لا! ينبغي أن يشاركنا هؤلاء الأوغاد البغضاءُ لبرهةٍ...

شاكستُها:

ـ برهةً ليست بالقصيرة! أحبّ أن آخذ وقتيَ الكافي!

انتهى بها المطاف أن ضحكتْ وسحبتني إليها:

ـ تحبِّين ممارسة الحبّ كثيرًا يا تيتوبا! لن أجعل منكِ أبدًا نسويَّة!

ـ نسويَّة! ماذا يعني ذلك؟

ضمَّتني إليها وغمرتني بالقُبَل:

ـ اصمتي! سأشرح لك ذلك لاحقًا!

لاحقًا؟ هل سيكون ثمَّة لاحقًا؟

يقترب اليومُ الذي سيُعيدوننا فيه إلى سالم كي أُحاكمَ، فما الذي سيحلّ بنا؟

عبثًا، كانت هيستر تردِّد عليَّ أنَّ قانون ماساتشوستس لا يُعدمُ الساحرة التي تعترفُ؛ لم يزايلني الخوف.

أحيانًا، يكون خوفي كالطفل في رَحَم أمِّه. يتقلَّب يمينًا ويسارًا، ويرفسُ. وأحيانًا يكون كوحشٍ كاسرٍ يمزِّقُ بأنيابه كبدي. وأحيانًا يكون كأَصَلة عاصرةٍ تهصرني بحلقاتها. سمعتُ أنَّ مَجمَع سالم قد وُسِّعَ بحيث لا يستقبل سكَّان سالم فحسب، وإنَّما كلّ سكَّان المناطق المجاورة ممَّن يرغبون في حضور الفُرجة الكبرى. سمعتُ أنَّهم نصبوا منصَّةً سيرفعوننا عليها نحن الثلاث، أنا وسارة غود وسارة أوسبورن، ليتملَّى الجميع بمرآنا. سمعت أنَّ القُضاة قد عُيِّنوا ـ أعضاءٌ من المحكمة العليا للجماعة، معروفون باستقامة سِيَرهم وشدَّة إيمانهم: جون هارثورن وجوناثان كوروين.

فيمَ بوسعي إذن أن آملَ؟

حتى وإن نجَوْت بحياتي، ماذا عساي أفعلُ بها؟ هل سيكون بمقدوري أنا وجون الهنديّ أن نتحرَّر ونستقلَّ مركبًا صوبَ باربادوس؟

أستعيد الجزيرة التي ظننتُني أضعتُها! أستعيدها بأرضها التي ما تزال ضاريةً كما هي؛ وكثبانها الخضراء على عهدها؛ وقصبها الأرجوانيّ الغنيّ بعصيرٍ لزج؛ وحزام الحرير الزمرُّدي حولها... لكنَّ الرجال والنساء فيها يعانون. إنَّهم في ضيق. لقد شُنق زنجيٌّ في قمَّة شجرة مزهرة. الزهرة والدم يختلطان. آه، أجل، لقد نسيتُ أنَّ العبوديَّة لم تنتهِ. ما زالت الآذانُ تُجدع، والعراقيب تُقطع، والأذرع تُبتر. إنّنا ننفجر في الهواء كالمفرقعات. انظروا إلى دمنا يبرق كالأوراق الملوَّنة في الهواء!

حينما كنت أغرق في ذلك المزاج، لم تكن هيستر تستطيع لي شيئًا. عبثًا كانت تستعين بعبارات عزاء، لم أكن أُصغي إليها. إذّاك كانت تسقيني قطراتٍ من الرُمّ، عطيَّةً من أحد رجال الشرطة، ورويدًا رويدًا أغفو. فتأتي حينئذ مان يايا وأبِنا أمّي تتناوبان في خاطري. تقولان برقَّة:

. لِمَ ترتعدين؟ ألم نقل لك إنَّه من بين الجميع، لن ينجو سواكِ؟

ربَّما! لكنَّ الحياة تُرعبني بقدر ما يُرعبني الموتُ. خاصَّةً الحياة بعيدًا عن ذويَّ.

على الرَّغم من صداقة هيستر، فقد خلَّف السجنُ في نفسي انطباعًا لا يمَّحي! لقد سمَّمتني بعطرها زهرةُ العالم المتحضِّر الحالكةُ تلكَ، وبعدها لن أستطيعَ أبدًا أن أتنفَّس كما كنت أتنفَّسُ من قبل. عَلِقت بمنخريّ رائحةُ جرائمَ كثيرة: قتلُ آباء، قتلُ أمَّهات، اغتصابٌ، سرقاتٌ، قتلٌ، اغتيالٌ؛ وعَلِقت بي خاصَّةً رائحةُ الآلام.

يوم ٢٩ فبراير، اتَّخذنا طريق العودة إلى سالم. وطيلة الطريق، غمرتني سارة غود بالشُّباب واللعنات. بحسب كلامها، كان حضوري إلى سالم وحده كفيلًا بأن تحدث كلّ هذه المصائب.

. لِمَ غادرتِ جحيمَك أيَّتها الزنجيَّة؟

كنت أقوِّي قلبي: من هذه، سأنتقمُ بلا إبطاء.

- 3 -

التحقيق مع تيتوبا الهنديّ (20)
تيتوبا، أيّ روحٍ شرِّيرٍ صادقتِه؟

- لا أحد.

- لِمَ تُعذِّبين أولئك الطفلات؟

- لستُ أعذِّبهنَّ.

- ومن يعذِّبهنَّ إذن؟

- الشيطان على ما أظنُّ.

- هل سبق أن رأيتِ الشيطان؟

- الشيطان أتى إليَّ يأمرني بخدمته.

- ماذا رأيتِ؟

- أربع نساءٍ كنَّ يعذِّبن الطفلات أحيانًا.

- من هنَّ؟

- لا أعرف منهنّ غير سارة غود وسارة أوسبورن. لا أعرف الأخريَيْن. سارة غود وسارة أوسبورن أرادتا منِّي أن أعذِّب الطفلات، لكنَّني رفضتُ. كان ثمَّة أيضًا رجلٌ من بوسطن، رجلٌ طويلٌ، طويلٌ جدًّا.

. متى رأيتهم؟

. الليلة الماضية في بوسطن.

. ماذا قالوا لكِ؟

. طلبوا منِّي أن أعذِّب الطفلات.

. وهل أطعتِهم؟

. لا. الطفلاتُ عذَّبهنَّ رجلٌ وأربعُ نساءٍ، وقد رقدوا فوقي وقالوا لي إنَّهم سيؤذونني إن لم أعذِّب الطفلات.

. وأطعتِهم إذن؟

. نعم، لكنَّني لن أعود إلى الأذيَّة!

. أنادمةٌ أنتِ على فِعلتِك؟

. أجل، نادمة.

. لمَ فعلتِ ذلك إذن؟

. لأنَّهم قالوا لي أن أعذِّب الطفلات، وإلَّا عذَّبوني أكثرَ فأكثر.

. ماذا رأيتِ؟

. أتى إليَّ رجلٌ، وأمرني بخدمته.

. كيف؟

. طلب منِّي أنْ أعذِّب الطفلات، وفي الليلة الماضية، تجلَّى لي تجلِّيًا، وطلب منِّي أن أقتل الطفلات، وقال إنَّه سوف يؤذيني أذيَّةً أكبر إنْ أنا لم أُطعْه.

. في أيِّ صورة كان يتجلَّى؟

. أحيانًا كنتُ أراه في صورة خنزير، وأحيانًا في صورة كلبٍ كبير.

. ماذا كان يقول؟

. الكلب الأسود كان يأمرني بخدمته، لكنِّي كنت أقول له إنَّني خائفةٌ، فيقول إنَّه سوف يؤذيني أذيَّةً أكبر إن لم أُطِعْه.

. وماذا كان جوابُكِ؟

. قلت له إنَّني لن أخدمه بعد الآن، فقال لي إنَّه سوف يؤذيني، واتَّخذ صورة رجلٍ، وأخذ الرجلُ يتوعَّدني. وكان معه طيرٌ أصفر، وقال لي إنَّ لديه من العجائب الكثير، وإنَّه سيعطينيها إن أنا أطعتُه.

. أيّ عجائب؟

. لم يُرِنيها.

. وماذا رأيتِ إذن؟

. رأيت جُرذَيْن. أحدهما أحمر والثاني أسود!

. ماذا قالا لكِ؟

. أن أخدمهما.

. متى رأيتِهما؟

. ليلة البارحة، وأمراني بخدمتهما، لكنَّني رفضتُ.

. تخدمينهما كيف؟

. بأن أعذِّب الطفلات؟

. ألم تقرصي إليزابيث هابارد هذا الصباح؟

. لقد جثم عليَّ الرجلُ وجعلني أقرصها.

. ولِمَ ذهبتِ الليلة الماضية عند توماس بوتنام وآذيتِ طفلتَه؟

. لقد جرُّوني إلى بيته جرًّا، وأجبروني على الذهاب.

. وحين وصلتِ هناك، ما الذي كان يُنتظر منكِ أن تفعلي؟

. أن أقتلها بسكِّين.

ـ كيف وصلت إلى بيت توماس بوتنام؟

ـ ركبتُ مكنستي، وفعلوا جميعًا مثلي.

ـ كيف استطعت المرور من بين الأشجار؟

ـ لا أهمِّيَّة لذلك (21).

ـ ...

ـ ...

اِستمرَّ الأمرُ ساعات. وأعترف بأنِّي لم أكن ممثِّلةً بارعة. منظر كلّ تلك الوجوه البِيض تتماوج عند قدميَّ جعلني أتخيَّلها بحرًا أُوشك أن أغرق فيه. آه! لو أنَّ هيستر كانت مكاني لأبلت أفضل منِّي! كانت ستستغلّ هذه المحكمة لتعلن عن غضبها، وتلعن متَّهِميها كما لعنوها. أمَّا أنا، فلم أكن إلَّا خائفةً. الأفكار البطوليَّة التي صُغتُها في البيت أو الزنزانة كانت تتبخّرُ.

ـ ...

ـ ...

ـ هل رأيتِ المرأةَ غود تعذِّبُ إليزابيث هابارد السبت الماضي؟

ـ أجل رأيتُها. لقد انقضَّت على الطفلة كذئب!

. لنعد إلى الرجل الذي رأيتِه. ماذا كان يلبس؟

. ملابس سوداءَ. كان طويلًا جدًّا، وشعره أبيض على ما أظنّ.

. والمرأة؟

. المرأة؟ عباءة بيضاء وأخرى سوداء معقودةٌ في أعلاها. كذلك كان لباسها!

. ومن ترين الآن يعذِّبُ الطفلات؟

أجبت بلذَّةٍ وسُمِّيَّةٍ:

. أرى سارة غود.

. أهيَ وحدها؟

وهنا، جبنتُ عن طاعة صامويل باريس، والاعتراف على بريئات، إذ تذكَّرت وصايا هيستر، فتمتمت:

. الآن، ما عدتُ أرى أحدًا! أنا عمياء.

بعد التحقيق معي، أتى صامويل باريس لزيارتي:

. أحسنتِ الكلامَ يا تيتوبا! لقد فهمتِ ما كنَّا ننتظره منكِ.

كرهتُ نفسي مثلما أكرَهُه.

لم أكن شاهدًا عيانًا على الطاعون الذي اجتاح سالم، إذ حُبستُ مقيَّدةً، مباشرةً بعد شهادتي، في حظيرة ديكن إنغرسول.

سرعان ما ندمت السيِّدةُ باريس وتابت عن فعلها.

أتتني باكيةً تسأل:

- ما الذي فعلوه بك يا تيتوبا، أنتِ يا خير مخلوق!

حاولتُ أن أهزّ كتفيَّ، لكنِّي ما استطعتُ لفرط ما كانت مشدودةً الحبالُ التي رُبطتُ بها. أجبتها:

- لم يكن هذا كلامَك منذ أسبوعيْن!

أخذت تنتحبُ بشدَّة:

- لقد كنتُ مخدوعةً! والآن أرى ما يجري وراء الأحداث. أجل: إنَّها مكيدة دبَّرها باريس وأتباعه ليدمِّر ويلطِّخ سمعة...

قاطعتها، إذ لم يكن يهمّني ذلك:

- وبِتسي؟

- لقد انتشلتها من هذا الكرن؟ال المرعب، وأرسلتها عند ستيفان سيويل - أخي صمويل باريس، الذي يسكن في مدينة سالم. هو لا يشبه

صامويل. إنَّه رجل طيِّب. أحسب أنَّ بقربه ستستعيد صغيرتُنا بتسي العافية. قبل رحيلها، كلَّفتني أن أُخبركِ أنَّها تحبّك، وتطلب منكِ المغفرة.

لم أحِرْ جوابًا.

ثم إنَّ السيِّدة باريس أعلمتني بما يجري في القرية.

. لا يمكن أن أقارن هذا إلَّا بداءٍ نظنُّهُ في البداية حميدًا إذ لا يُصيب من الجسد إلَّا الأعضاءَ التي لا أهمِّيّةَ لها...

لا أهمِّيّةَ لها؟

صحيحٌ أنِّي كنت مجرَّد عبدةٍ زنجيَّة. صحيح أنَّ سارة غود كانت متسوِّلةً، حتى إنَّها لشدَّة فقرها، كانت لا تقصد المجْمَع عوَزًا للملابس. صحيح أنَّ سارة أوسبورن كانت سيِّئة الذكر، إذ ما إن صارت أرملةً حتى آوت إلى فراشها العامل الأيرلنديّ الذي أتى يعينها في استغلال أملاكها. لكنْ، مع ذلك، أن نوصف بهذا النحو، فقد أصابَ قلبي في مقتل.

من دون أن تشكّ البتَّةَ في ما توقظه بداخلي من أحاسيس، واصلتِ السيِّدة باريس:

. ... ثم ما لبث المرض أن بدأ شيئًا فشيئًا يصيبُ الأعضاء الحيويَّة. ما عادت القدمان أو الذراعان تستطيعان الحركة. ثم انتهى المطاف به إلى إصابة القلب والدماغ. لقد قُبض على مارشا كورّي

وريبيكا نورس!

فغرتُ فاهي دهشةً. السيِّدة ريبيكا نورس! غير معقول! لو كان للإيمان بالربّ أن يتجسَّد في هيئةٍ بشريَّةٍ، فسيتَّخذ هيئة هذه المرأة!

استأنفت السيِّدةُ باريس الكلام:

ـ لقد أثَّرت في القاضي هاثورن نفسه، وحكم عليها قاضٍ أوَّلُ بالبراءة. لكنَّ حكمَه لم يكن كافيًا، فاقتيدت إلى المدينة حيث ستمثلُ أمام محكمةٍ أخرى.

امتلأت عيْناها بالدموع:

ـ عزيزتي تيتوبا، إنَّ ما يحدث مرعب! لو رأيتِ أبيغايل وآن بوتنام، خاصَّة آن بوتنام وهي تتلوَّى أرضًا وتصرخُ قائلةً إنَّ العجوز المسكينة تعذِّبها، متوسِّلةً إليها أن تكفّ، لو رأيتِ ذلك يا تيتوبا لامتلأ قلبكِ شكًّا ورعبًا! وفي أثناء ذلك، كانت العجوز هادئةً ساكنة تتلو مزمورَ داوود:

«الربّ راعيَّ، فلن يعوزني شيء،

في مراعيه الخضراء يريحني

وإلى مياهه الهانئة يقودني

ويردّ إليّ نفسي».

وأنا أسمعُ أخبار انتشار الوباء بسالم، كان قلقي يتعاظم على جون الهنديّ.

والحالُ، أنّ المتّهمات ما انفككن يذكرن «رجلًا أسودَ» يُجبرهنَّ على الكتابة في كتابه! ألن يخطر ببالٍ منحرفٍ تعيينُ جون الهنديّ؟ وبالتالي، ألن يُضطهد هو أيضًا؟ على أنَّ كلَّ ذلك يظلّ بلا معنى. ففي اللحظات النادرة التي تخطَّى فيها جون الهنديّ عتبةَ الحظيرة التي كنت أئنُّ فيها، كان يبدو في حالٍ جيِّدة، حسنَ التغذية وملابسه نظيفةً ومكويَّة. لا بل إنَّه صار يرتدي عباءةً ثقيلة تغطِّي جسدَه بأكمله وتدفِّئه. وعادت إلى ذاكرتي كلماتُ هيستر: «إنّ الحياة رفيقةٌ بالرجالِ، سواءٌ أكانوا بيضًا أم سودًا»!

وذات يومٍ، حاصرتُه بالأسئلة، فأجابني مهتاجًا:

ـ لكنْ، لا تنشغلي بأمري!

ألححت بالسؤال، فأجاب:

ـ أنا أعرف كيف أعوي مع الذئاب!

ـ أي؟

قَلَب وجهه فجأةً، وحدَّق فيَّ. أوه! لشدَّ ما تغيَّرَ رجُلي! هو لم يكن شجاعًا، ولا شديد القوَّة، لكنَّه كان عطوفًا! تعبيرُ مكرٍ شوَّه ملامحَ وجهه، إذ شدَّ عينيْه شدًّا مُقلقًا جهةَ صدغيْه، وأشعلهما بنارٍ خبيثة مخادعة.

تمتمت مجدَّدًا:

. ماذا تقصد؟

. أريد أن أقول، يا امرأتي المسحولة، إنَّني أنا لستُ مثلكِ! هل تظنِّين أنَّ وحدهنَّ أبيغايل وآن بوتنام وباقي الكلبات يُجِدن الصراخ والالتواء والسقوط متخشِّباتٍ لاهثاتٍ: «آه! إنَّكَ تقرصني، إنَّك تؤلمني! دعني وشأني»!؟

أخذتُ أنظر إليه للحظةٍ، لا أفهمُ! ثم أُنيرت بصيرتي. فغمغمتُ:

. جون الهنديّ! هل تمثِّل أنتَ أيضًا أنَّك تُعذَّبُ؟

هزَّ رأسَه موافقًا، وقال بنبرةٍ متعالية:

. لقد حُزت ساعةَ مجدي منذ بضعة أيَّامٍ.

ثم انطلق يمثِّلُ متناوبًا دورَ القضاة والفتيات الجالسات في نصف دائرة:

« من يعذِّبك يا جون الهنديّ؟

. السيِّدة بروكتور بدايةً، ثم بعدها السيِّدة كلويس.

. ماذا تفعلان بك؟

. تأتيانني بالكتاب.

. جون الهنديّ، قل الحقَّ: من يعذّبك؟»(22)

. إذ كان يشكّ في كلامي ذاك القاضي المدعوّ توماس دانفورث، كما لم يشكّ في أحدٍ من قبل! عنصريٌّ حقير!

انهرتُ. شعرت بالعار. لكنْ، لِمَ؟ ألم أضطرّ أنا نفسي إلى الكذب إنقاذًا لرأسي؟ هل كذبة جون الهنديِّ أشنعُ من كذبتي أنا؟

عبثًا كنت أردّد في نفسي ذلك، إذ منذ تلك اللحظة، تغيَّرت مشاعري تجاه جون الهنديّ. بدا لي أنَّه قد عقد اتّفاقًا مع جلّاديّ. من يدري؟ لربَّما أجد نفسي على منصَّة الخِزي تلك، نهبًا للمهانةِ والرُّعب، ومضايقةِ القضاةِ الأشرار، تصمُّني صيحاتُ الضِّيق المزيِّفة؛ وإذّاك، ألن يكون قادرًا هو أيضًا على الصياح: «آه، آه! تيتوبا تعذِّبني! آه أجل! زوجتي، زوجتي ساحرة»!

هل أدرك جون الهنديّ ما أشعرُ به؟ أم أنَّ ثمَّة سببًا آخر؟ المحصِّلة أنَّه كفَّ عن زيارتي. وقد أُعدت إلى إبسويتش من دون أن أراه مرَّةً أخرى.

سلكت الطريق حتى إبسويتش. وقد هرع سكّان القرى المجاورة، توبسفيلد، وبي؟رلي، ولين، ومالدن، متجمهرين على جنبات الطرق لكي يشاهدوني وأنا أمضي متعثِّرةً، مقيَّدة إلى سِرج

جوادِ الماريشال هيريك المتين، وكانوا يرمونني بالحجارة. كانت الأشجار العارية أشبهَ بصلبانٍ، وصعودي إلى الجلجلة لم تكن له نهاية.

وبقدر ما كنت أتقدَّمُ كان يمزِّق صدري إحساسٌ عنيفٌ، مؤلم، لا يُطاق.

كان يبدو لي أنَّني أختفي تمامًا.

كنت أحسُّ أنَّ ضمن محاكمات ساحرات سالم التي ستُسيل الكثير من المداد، وتُثير فضول الأجيال القادمة باعتبارها العلامةَ الأبرز لعصرٍ ساذج وهمجيّ، لن يظهر اسمي أنا إلَّا ككومبارس لا شأن له. هنا وهناك، سيردُ ذكرَ «عبدةٍ تنحدر من جزر الأنتيل وتمارس على الأرجح سحر «الهودو». لن يكترث أحدٌ لسنّي ولا لشخصيَّتي. سأكون نكرة!

ما إن يبلغ القرنُ نهايتَه حتى تدورُ العرائض، وتُعاد المحاكماتُ ويُعاد للضحايا الاعتبارُ، ويسترجع أحفادهنَّ أموالهنَّ وشرفهنَّ. ولن أكون أنا من بينهنَّ. محكومةٌ أنتِ إلى الأبد يا تيتوبا!

لن يكتب أحدٌ سيرةً ملهمةً وجادَّةً تُعيد بناءَ حياتي وعذاباتي!

وكان أن انتفضتُ لهذا الظلم المستقبليّ! ظلمٍ أقسى من الموت!

بلغنا إبسويتش في الوقت المناسب لرؤية حبلٍ يتأرجحُ فيه جسدُ محكومةٍ بتهمةٍ لا أعلمها، وكان

الحشدُ يصرخُ هاتفًا للعدالة والخير.

أوّلُ ما حرصتُ عليه حين دخلت السجن، هو أن ألتحق بهيستر في زنزانتها. آه! لشدَّ ما بالغتُ في تقدير جون الهنديّ! كان مجرَّد مولًى بائس، بلا حبٍّ أو شرف. كانت عينايَ ممتلئتيْن دموعًا، وحدها هيستر تستطيع أن تمحوها.

لكنّ الشُّرطيَّ، عاشق الرُّمّ، أجابني من غير أن يرفع أنفه عن السجلّ، بأنَّ الأمر غير ممكن.

ألححتُ عليه بكلِّ ما في اليأس من قوَّة:

ـ لِمَ، لمَ يا سيِّدي؟

أوقف خربشاته، وحدَّق فيَّ:

ـ غير ممكنٍ لأنَّها لم تعد هنا.

ظللت صامتةً، بينما آلافُ الافتراضات تتزاحمُ في ذهني. هل عُفيَ عنها؟ هل عاد زوجها من جني؟ وأطلق سراحها؟ هل أخذوها إلى المستشفى لتلِد؟ إذ كنتُ أجهل إلى أيّ شهرٍ بلغ حملُها، وربَّما كانت في شهر ولادتها! واستطعتُ أن أتمتم:

ـ سيِّدي، لطفًا أخبرني بمصيرها، إذ لم أعرف على هذه الأرض روحًا أخيَر منها!

بدا على الشرطيِّ التعجُّبُ:

ـ خيِّرةً؟ حسنًا! مهما بدت لكِ خيِّرةً، هي الآن ملعونةٌ، لأنَّها شنقت نفسها في زنزانتها.

ـ شنقت نفسها؟

ـ أجل، شنقت نفسها!

كسرتُ صارخةً بابَ رحمِ أمِّي. بقبضتي الغاضبة مزَّقتُ غشاءها المائيَّ. كنت ألهثُ وأختنقُ في السائل الأسود. كنت أريد أن أغرقَ فيه.

شنقتِ نفسَكِ؟ هيستر، هيستر، لمَ لَمْ تنتظريني؟

أُمّاه، أَمَا لعذابنا نهايةٌ! بما أنَّ الأمر هكذا، فلن أخرج إلى العالم أبدًا. سأظلُّ كامنةً في مائكِ، صمَّاء، خرساء، عمياء، عالقةً بجدارِك. سأتشبَّثُ به حتى إنَّك لن تقدري على طردي، وسأعود معك إلى التراب من غير أن أعرف لعنةَ النهار. أمّاه، ساعديني!

شنقتِ نفسَكِ؟ كنتُ لأرافقكِ يا هيستر!

بعد مشاورات طويلة، تقرَّرَ أخذي إلى مستشفى مدينة سالم، إذ لم تكن ثمَّة مستشفى بإيبسويتش. وفي البداية، لم أكن أميِّزُ النهار من الليل. إذ كانا يختلطان في دائرة الألم. وقد تركوا قيودي، ليس لأنَّهم كانوا يخشون انتحاري، فهو حلٌّ مُرضٍ لجميع الأطراف، وإنَّما كانوا يخافون أن تنتابني نوبةٌ عنيفةٌ فأؤذي من شاء لهم سوءُ

الحظّ أن يتواجدوا معي. وأتى لزيارتي طبيبٌ يُدعى الدكتور زيروبابل، إذ كان يدرس الأمراض العقليَّة ويأمل في أن يُعيّنَ بروفسورًا بجامعة هار؟ارد. أوصى بأن تُجرَّب فيَّ جُرعةٌ ابتكرها:

«خُذ حليبَ امرأةٍ أنجبت طفلًا ذكرًا. وخذ قطًّا ثم اقطع أذنه أو جزءًا من أذنِه. واترك دم القطّ يسيل في الحليب. اجعل المريضةَ تشربُ الخليطَ ثلاث مرَّاتٍ في اليوم».

أكانَ ما وقع لي نتيجةً لوصفته؟ لقد انتقلتُ من حال الاستثارة القصوى إلى حالٍ من الخَدَر اعتبروها مقدِّمةً لشفائي. أفتح عينيّ اللتيْن كنتُ أصرّ على إغماضهما، وأقبلُ تناولَ الطعام. غير أنِّي ما كنت أستطيعُ أن أنطقَ كلمة.

ولمَّا كانت كلفة العناية بي في المستشفى مرتفعةً، ولا تستطيع تحمُّلها مدينة سالم التي لا أنتمي إليها، فقد أُعِدْت إلى السجن. ألفيت فيه حشدًا من الوجوه لم أعرف منها أحدًا، وكأنَّما كلّ ما وقع قبل موتِ هيستر قد امَّحى من ذاكرتي.

ثم ذات صباحٍ، لا أدري كيف استرجعت الكلام والذكرى. استفسرتُ عمَّا يجري حولي. علمتُ أنَّ سارة أوسبورن قد ماتت في السجن، ولم تأخذني بها أيُّ شفقة.

في تلك الفترة من حياتي، لم تكن تزايلني الرغبة في أن أضع حدًّا لحياتي. بدا لي أنّ هيستر قد

رسمت لي نموذجًا يُحتذى. واأسفاه! خانتني الشجاعة.

من غير أن أعلمَ سببًا لذلك، رُحِّلتُ من سجن إبسويتش إلى سجن مدينة سالم. وكانت المدينة قد خلَّفت عندي ذكرى طيِّبةً في أثناء مرورٍ سريعٍ بها رفقة صامويل باريس وأسرته. إنَّ شبه الجزيرة تلك، المحصورة بين نهريْن بطيئيْن، كانت تنافس مدينة بوسطن وتملأ السفن أرصفتَها. غير أنَّ - وهذه ملاحظةٌ مكَّنني منها المزاجُ الذي كنت فيه - سحابةً من التقشُّف والكآبة كانت تطفو فوق المنازل. مررنا من أمام مدرسةٍ تتقدَّمها ساحةٌ، وفي الساحة، فتيانٌ قُيِّدوا إلى أوتادٍ ينتظرون أن يجلدهم معلِّموهم. ووسط شارع المحكمة، كانت ترتفع بنايةٌ هائلةٌ بُنيت من أحجارٍ حُملت بكلفةٍ باهظةٍ من إنجلترا، وفيها يُقضى بين الناس. تحت أقواس أروقتها، يقف حشدٌ من الرجال والنساء صامتين وكالحةٌ وجوههم. السجنُ نفسه كان مبنًى أسود، سقفه من قشٍّ وعيدانٍ، وبابُه مغطًّى بصفائح الحديد.

- 5 -

كثيرًا ما يخطر ببالي طفلي وطفلُ هيستر. طفلان لم يولدا. طفلان حرمناهما، لمصلحتهما، من النُّور وطعمِ الشمسِ المالح. طفلان أعتقناهما، لكنَّني، ويا للعجب، أبكيهما! بنتان أم ولدان، فيمَ يهمّ ذلك؟ لهما معًا أغنِّي مرثاتي القديمة:

«حجرُ القمرِ سقط في الماءِ،

ماءِ النّهر.

ويداي ما استطاعتا انتشالَه،

ما أتعسني!

حجرُ القمر سقط.

جالسةً على ضفَّة النهر

أبكي وأرثي لحالي.

آهٍ! أيُّها الحجرُ الناعمُ البرّاقُ،

إنَّك لتلمَعُ في قعر النّهر.

مرَّ الصيَّادُ،

حاملًا سهامَه وكنانَته:

حسناءُ، يا حسناء، ماذا يُبكيك؟

أبكي، لأنَّ حجرَ قمري يرقد في قعر الماء.

حسناءُ، يا حسناء، إن كان هذا فقط،

فسوف أساعدك.

لكنَّ الصيَّادَ ارتمى في الماء، وغرِق».

قلبي ينفطر يا هيستر!

وكأنَّما سخريةً منِّي، أدخلوا إلى زنزانتي ذات صباحٍ طفلةً. في البداية، لم تتعرَّف عليها عينايَ اللتان ضبَّبهما الحزنُ. ثم استعدتُ ذكراها. دوركاس غود! إنَّها الصغيرة دوركاس غود، ذات السنوات الأربع التي كنت أراها دومًا محشورةً في تنانير أمّها المتَّسخة، حتى اليوم الذي فرَّق بينهما شرطيٌّ.

لقد اعترفت عليها شلَّةُ بنات الكلب، فأثقل الرجالُ بسلاسل الحديدِ ذراعَي هذه البريئة ومعصميْها وكاحليْها. كنت غارقةً في شقائي بحيث لا أكترث لشقاءِ سوايَ. غير أنَّ منظر هذه الصبيَّة انتزع من عينيَّ الدموع.

نظرتْ إليَّ وقالت:

- هل تعرفين أين أمِّي؟

اضطررتُ أن أعترف لها بأنِّي لا أعرف. هل شُنقَت؟

من الإشاعات في السجن عرفت أنَّها أنجبت طفلًا آخر، وأنَّ هذا الطفلَ، ابن الشيطان، ذهب إلى الجحيم التي منها أتى. وما كنت أعرف غير ذلك!

الآن لدوركاس أيضًا، ابنة المرأة التي اتَّهمتني بشناعةٍ، صرتُ أغنِّي أغنيتي الحميمة: «حجري، حجرُ القمرِ سقط في الماء».

- 6 -

سرعان ما انتقل الطاعون الذي اجتاح سالم إلى قرى أخرى، ومدنٍ أخرى، وواحدة تلو أخرى، التحقت بساحة الرقص أميسبوري، وتوبسفيلد، وإبسويتش، وأندوفر... ومثل كلاب صيدٍ مستثارةٍ برائحة الدم، كان رجال الشرطة يمسحون طرقَ الرِّيف ودروبه ملاحِقين أولئك الذين ما انفكَّت تشي بهم شلَّةُ بنات الكلب اللواتي حُبين موهبة التواجد في كلِّ مكان. علمتُ من الأخبار الرائجة في السجن أنَّ الأطفال أُوقفوا بأعدادٍ كبيرة، ووُضِعوا في مبنًى أُقيم على عجلٍ من عيدان الخشب وسُقِّف بالقشّ. ليلًا، يَمنع صياحُهم السكَّانَ من النوم. أَخْرجوني من زنزانتي لكي يضعوا فيها مساجين جددًا كانوا يستحقُّون على أيِّ حال سقفًا يأويهم؛ ومن بهو السجن، صرتُ الآن أتابع توافد عربات المحكومات. بعضهنَّ كنَّ يقفن منتصبات القامة كأنَّما يتحدَّين قُضاتهنَّ. وبخلافهنَّ أخريات كُنَّ يَأنِنَّ كأطفالٍ راجياتٍ منحهنَّ يومًا آخرَ أو حتى ساعة. رأيتُ ريبيكا نورس تسلك طريق غالوز هيلي، فتذكَّرت المرَّة التي كانت قد طلبت منِّي فيها بصوتها المتهدِّج: «ألا تستطيعين مساعدتي يا تيتوبتا»؟

لشدَّما آسفُ لأنِّي لم أُطعها، إذ أرى اليوم أعداءها منتصرين. علمت ممَّا يَروج في السجن من أخبارٍ أنَّه حتى آل هولتون قد أطلقوا عليها خنازيرَ ضغينَتِهم. كانت متشبِّثةً بقضبان العربة تحدِّقُ بعينيْها في السماء كأنَّما تحاول أن تفهم ما

يجري.

شاهدت أيضًا مرور سارة غود التي كانت آنئذٍ محبوسةً في موضعٍ آخر غير محبس ابنتها، لكنَّها احتفظت بسحنتها البغيضة الصفيقة. نظرت إليَّ مقيَّدةً كالبهيمة إلى وتدٍ، فرمتني بالقول:

. أفضِّلُ مصيري على مصيرك!

لم أعد إلى الزنزانة إلَّا بعد إعدامات يوم ٢٢ سبتمبر.

بدا لي البلاطُ الذي نمتُ عليه كأنعمِ ما تكون الأسرَّةُ، وتلك الليلة حلمت بمان يايا، وكان حول عنقها عقدٌ من زهور الماغنوليا. كرَّرتْ عليَّ وعدها: «من بين الجميع، لن ينجو سواك!» وأحجمتُ عن سؤالها: «وأيّ فائدة»؟

كان الزمن يتمطَّى فوق رؤوسنا.

غريبٌ كيف يرفض الإنسانُ الاعتراف بهزيمته!

بدأت تروَّج في السجن أساطير. يُقال همسًا إنَّ أطفال ريبيكا نورس الذين أتوا مع الغروب يسحبون جسد أمّهم من حفرة العار، حيثُ ألقى بها الجلَّادُ، قد وجدوا مكانَها وردةً بيضاءَ عطرة. ويُردَّدُ همسًا أنَّ القاضي نويز الذي أصدر الحكمَ على سارة غود قد لَقِي ميتةً غامضةً غارقًا في لُججٍ من دم. يُقال إنَّ مرضًا غريبًا يضرب عائلاتِ المُتَّهِمين، وأنَّ عددًا كبيرًا من أفرادها يرقدون

الآن تحت التراب. يُقالُ. يُحكى. يُنقَّقُ. فيصير الأمر إلى هدير كلامٍ هائلٍ، هديرٍ عنيدٍ ولطيفٍ كهديرِ أمواج البحر.

ربَّما هي عباراتٌ تشدّ عزمَ النساء والرجال والأطفال. تعينهم على تحريك عجلاتِ الحياة الحجريَّة. غير أنَّ حدثًا أتى لأوَّل مرَّةٍ يهزّ النفوس. فحتى وإن كنَّا قد أَلِفْنا منظر العربات الغاصَّة بالمحكومين بالإعدام، إلَّا أنّ خبر الحكم على جيل كوري كان ينطوي على رعبٍ خاصٍّ جدًّا. لم أحمل قطّ ودًّا لجيل كوري وزوجته، السيِّدة مارثا، وخاصَّةً لزوجته التي اعتادت أن ترسم علامة الصليب كلَّما صادَفتني. لم أتأثَّر كثيرًا حين علمتُ أنَّ زوجها جيل قد شهد ضدَّها. ألم يخُنِّي أنا أيضًا جون الهنديّ حين التحق بصفِّ المتَّهِمات؟

لكنْ أن أعلم بأنَّ هذا الشيخ المتَّهِمَ قد صارَ متَّهَمًا، وأنَّه قد قُلِب على ظهره في الحقلِ، والقضاة يراكمون فوق صدرِه صخورًا أثقلَ فأثقلَ، كلُّ ذلك قد جعلنا نرتابُ في طبيعة أولئك الذين يحاكموننا. أين الشيطان؟ أليس يختفي في تضاعيف معاطفِ القضاة؟ أليس يتحدَّثُ بلسان القضاة ورجال الكنيسة؟

يُقال إنَّ جيل لم يفتح فمه إلَّا مطالبًا بصخورٍ أثقل فأثقل، صخورٍ تسرِّع موته فتنهي آلامَه. وما لبثت الأصواتُ أن ارتفعت مُنشدةً:

«كورّي، يا كورّي،

عندك أنتَ الصخورُ لا وزنَ لها

عندك أنتَ الصخورُ

ريشٌ في الريح».

أمّا الحدث الثاني الذي فاق الأوّلَ رعبًا، فكانَ إلقاء القبض على جورج بورّو. لقد سبق أن ذكرت أنَّ جورج بورّو كان قسًّا في سالم قبل صامويل باريس، ومثل صامويل باريس كان يجاهد في سبيل احترام بنود عقده. زوجته كانت واحدة من المرأتيْن اللتين رقدتا في منزلنا بينما انطلقت روحيْهما في طريق الرحلة الكبرى. أن نعلم بأنَّ رجلَ الربِّ هذا يمكن أن يصير متَّهمًا بخدمة الشيطان، أغرقَ السجنَ في الذعر.

الربُّ، الربُّ الذي حبًّا به تركوا إنجلترا بمروجها وغاباتها! هذا الربُّ يُديرُ لهم الآن ظهره.

على أنَّنا علمنا بداية أكتوبر بأنَّ حاكم الجماعة، الحاكم فيبس، قد كتب إلى لندن يسأل النُّصح فيما يتوجَّب عليه فعله بخصوص محاكمة الساحرات. علمنا بمدَّةٍ قصيرة بعد ذلك بأنَّ هيأة محكمة أوير وترمينر ما عادت تجتمع، وأنَّ هيأةً جديدةً ستشكَّلُ، هيأةً لا يُشتبه في تواطئ أعضائها مع أقارب المتّهِمات.

وينبغي أن أقول إنَّ كلّ ذلك ما كان يعنيني في شيء. فأنا كنت محكومةً إلى الأبد.

أتمنَّى للأجيال القادمة أن تعيش في زمنٍ مغايرٍ، زمنٍ تُحسنُ فيه الدولةُ التدبير، وتهتمُّ لرفاه مواطنيها.

أمَّا سنة ١٦٩٢، أي زمن حكايتنا هذه، فما كان ثمَّة شيءٌ من ذلك. في السجن كما في المستشفى، لم نكن نُعتبر نزلاء على حساب الدولة، وكان على الجميع أن يتحمَّل مصاريفَ العناية به كما ثمنَ أغلاله.

كان المتَّهمون عمومًا أُناسًا أثرياء، أصحاب أملاكٍ وعقاراتٍ يستطيعون رهنَها. لذا، لم يكن يصعب عليهم إرضاء مطالب الجماعة. وبما أنَّ صامويل باريس قد أعلن منذ البداية أنَّه لا ينوي صرف ملِّيمٍ واحدٍ لأجلي، فقد خطر ببال رئيس الشرطة أن يشغِّلني في المطبخ.

دومًا ما يجد السجينُ أقذرَ الطعامِ شهيًّا جدًّا. كانت العربات تحمل إلى ساحة السجن خضراواتٍ تشي رائحتها الفاترة بسوء حالتها. ملفوف مُسودٌّ، جزر مخضرٌّ، بطاطس تغلي بالدود، أكوازُ ذرة نخرها السوس اشتُريت من عند الهنود بنصف السعر. مرَّةً في الأسبوع، كان يُنعمُ على المساجين بعظم عجلٍ مغليّ في لتراتٍ من الماء، وبعض البطاطس الميبَّسة. كنت أطهو حزينةً تلك الأطعمة، فأستعيد رغمًا عنِّي ذكرى وصفاتي القديمة. يقدِّم الطبخُ للمرء ميزة أن يحافظَ على

ذهنه حرًّا، بينما يداه مشغولتان بإبداعٍ لا يتوقَّف إلَّا عليهما ولا يشترط غيرهما. كنت أطحَن كلّ ذلك العفن. وأنسِّمه بعود نعناعٍ نما صدفةً بين الأحجار. وأُضيف ما استطعت أن أستلَّه من حبَّة بصلٍ نتنة. كنت أبرع في صنع حلوياتٍ لذيذة وإن كانت قاسية.

كيف يُصنَع الصيت؟ لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى، يا للذّهول! ذاع صيتي بوصفي طبَّاخةً ماهرة. وصاروا الآن يطلبون خدمتي في الأعراس والموائد.

صرتُ هيأةً مألوفةً تطرق شوارعَ سالم، وتدخل من الأبواب الخلفيَّةِ للمنازلِ والفنادق. حين كنت أمضي، يسبقني صليل قيودي، كانت النساء والأطفال يخرجون عند عتبات المنازل ليشاهدوني. لكنَّني قلَّما كنت أسمع عبارات التهكُّم والسباب. لقد كنت بالأحرى موضوعًا للشفقة.

ألفتُ عادة التسلُّل إلى البحر، شبه خفيَّةٍ بين سفن السكّونة والبريغانتين(23) وغيرها من المراكب.

البحر هو من شفاني.

يدُه الكبيرة النديَّة على جبيني. بخاره في منخريَّ. جرعته المُرَّة على شفتيَّ. شيئًا فشيئًا كنتُ أرتق مِزَق وجودي. شيئًا فشيئًا استعدتُ الأملَ. الأمل في ماذا؟ لا أدري حقًّا. لكنَّ استعدادًا كان يستيقظُ فيَّ، عذبًا وواهنًا كالفجر. عرفت ممَّا يروَّج في السجن أنَّ جون الهنديّ كان في مقدَّمة

المتَّهمين، يصاحبُ الفتيات في جائحتهنَّ الإلهيَّة، يصرخ صراخهنَّ، يتلوَّى تلوِّيهنَّ، ويَتَّهمُ بصوتٍ أعلى وأقوى من أصواتهنَّ. سمعت أنَّه هو من كشفَ، حتى قبل آن بوتنام وأبيغايل، على جسر إبسويتش الساحرة التي كانت تتخفَّى في أسمالِ امرأةٍ فقيرة. يُقال إنَّه حتى استطاع التعرُّف على الشيطان متخفِّيًا في صورةٍ خيِّرة، غمامةٍ فوق رؤوس المتَّهَمين.

هل كنتُ أتألَّمُ وأنا أسمعُ تلك الأخبار؟

في شهر مايو ١٦٩٣، أعلن الحاكم فيبس، بعد اتِّفاقٍ مع لندن، عفوًا عامًّا؛ ففتحت السجونُ أبوابَها لكلِّ المتَّهمين في قضيَّة سالم. عاد الآباء إلى أبنائهم، والأزواج إلى زوجاتهم، والأمَّهات إلى بناتهنَّ. وأنا، لم أعد إلى أحد. لم يغيِّر العفو من أمري شيئًا. لم يشغل أحدٌ باله بمصيري.

جاءني نويس، رئيس الشرطة يقول:

ـ هل تعلمين بكم مدينةٌ أنتِ للجماعة؟

هززتُ كتفيّ:

ـ كيف لي أن أعرف؟

ـ كلّ شيء محسوب!

قلَّب صفحات كتابٍ قائلًا:

ـ ترين، كلّ شيءٍ مدوَّن هنا! سبعة عشر شهرًا في السجن، بتكلفة شيلنيْن اثنيْن وستَّة بنسات في الأسبوع. من سيدفع لي كلّ هذا؟

سألته بدوري:

ـ من سيدفع لك؟

قال متذمِّرًا:

ـ ابحثي عن شخصٍ يدفع عنكِ ما تدينين به إلى الجماعة، وبالمقابل يتَّخذك خادمة!

قهقهتُ من دون مرحٍ:

ـ من ذا الذي سيقبل باستخدامِ ساحرة!

ابتسم ابتسامةً ساخرة:

ـ رجلٌ يحتاج مالًا. هل تعرفين كم وصل الآن سعر الزنجيّ الواحد؟ خمسة وعشرين جنيْهًا!

انتهى حوارنا عند هذه النقطة. لكنَّني صرتُ أعلم الآن المصيرَ الذي ينتظرني. سيِّدٌ جديد. عبوديَّةٌ جديدة.

بدأتُ أشكّ حقًّا في اقتناع مان يايا العميق بأنَّ الحياة هبةٌ. لا يمكن للحياة أن تكون هبةً إلَّا متى كان بوسع الواحد منَّا أن يختار البطن التي تحمله. لكنْ أن يُقذف بك في رَحِمٍ بائسة، أنانيَّةٍ، بنت

كلبٍ، تنتقم من مِحَنها الشخصيَّة فيك، أن تنتميَ إلى جماعة المستَغَلِّين، المُهانين، أولئك الذين يُفرض عليهم اسمٌ ولغةٌ ومعتقدات، أيّ صليبٍ ستحمله إذن!

إن قُيِّضَ لي أن أُولد مرَّةً أخرى، فلأولد في جيش الفاتحين! مُذ حديثي الأخير مع نويس، صار يأتيني كلّ يومٍ غرباء يفحصونني. كانوا يتفحَّصون لثَّتي وأسناني. ويجسّون بطني وثدييَّ. ويرفعون تنانيري ليفحصوا قدميَّ. ثم يعبسون:

ـ إنَّها نحيلةٌ جدًّا!

ـ تقول إنَّ عمرها خمسٌ وعشرون! تبدو في الخمسين.

ـ لم يعجبني لونها.

وذات ظهيرةٍ، وجدتُ القبولَ في عينيْ رجلٍ. إلهي، وأيّ رجل! قصير القامة، ظهره شائهُ بحَدَبة تعلو كتفه اليسرى، بشرته بلون الباذنجان، ولحيةٌ حافَّةٌ صهباءُ تلتهم نصف وجهه وتنتهي بعُثْنُونٍ مدبَّب. همس لي نويس بنبرةٍ محتقِرة:

ـ إنَّه يهوديّ، تاجرٌ، يُقالُ إنَّه فاحش الثراء. يستطيع أن يشتري حمولةً بأكملها من خشب الأبنوس، وها هو ذا يفاوض في سعر طريدةٍ مشنقةٍ!

لم أعر انتباهًا لما ينطوي عليه كلامه من شتيمة

في حقِّي. تاجر؟ لا بدَّ إذن أن تجمعه علاقاتٌ بجزر الأنتيل؟ وباربادوس؟

إذَّاك، نظرتُ إلى اليهوديّ بعينيْن مفتونتيْن، وكأنَّما دمامتُه الفجَّةُ قد انقلبت إلى أبهى حضورٍ. أليس يمثِّلُ الإمكانَ الذي أحلمُ به؟

انقلبَ كياني، ذاك أنَّ أملًا ورغبةً بهذا القَدْر لا بدَّ من أن تُقرأ في عينيَّ. وإذ أخطأ الرجلُ تفسير دلالتهما، دار على عقبيْه وابتعد يعرج. وانتبهت إذَّاك إلى أنَّ قدمه اليمنى كانت أقصر من قدمه اليسرى.

الليلُ، الليلُ، الليل.. الأجمل من النهار! الليل متعهِّدُ الأحلام! الليلُ، أرضُ اللقاءات الكبرى، حيث يمسك الحاضر بيد الماضي، وحيث يختلط الموتى بالأحياء!

في الزنزانة، حيث لم يبقَ إلَّا المسكينة سارة داستن الفقيرة جدًّا التي ستقضي، لا محالة، ما تبقَّى من عمرها في الزنزانة؛ وميري واتكنس التي تنتظر سيِّدًا محتملًا، وأنا التي لا أحد يرغب بي؛ استطعتُ أن أنعزل بنفسي متأمِّلةً، وأصلِّيَ لمان يايا وأبِنا أمِّي: أن توحِّدا قواهما فتدفعان بي بين يدَي هذا التاجر الذي تقول نظرته إنَّه يعرف بلاد الآلام، وأنَّنا نقصد، أو يمكن أن نقصد، الوجهةَ نفسها. باربادوس!

أثناء فترات مرضي، حين كنت غاضبة ثم ذاهلة،

لم أفكِّر قطّ في مسقط رأسي. لكنْ ما إن رقَّعتُ مِزَقَ روحي حتى عاودتني ذكرى مسقط الرأس.

مع أنَّ الأخبار التي كانت تصلني عن بلادي لم تكن طيِّبةً. لقد دقَّ العذابُ والمهانة أوتادهما هناك. قطيع الزنوج الدنيّ ما انفكَّ يلفُّ عَجَلة الشقاء.

اسحقي يا مطحنةُ مع القصب ذراعيَ، وليصبغ دمي العصيرَ السكَّريَّ!

وليس هذا كلّ شيء!

كلّ يومٍ تفتح شهيَّةَ البِيضِ جزرٌ أخرى محيطة، وعلمتُ أنَّ في مستعمرات جنوب أميركا صارت أيدينا الآن تنسج أكفانَ قطنٍ طويلَة.

تلك الليلة رأيتُ حلمًا.

سفينتي تدخلُ الميناء، أشرعتُها منتفخةٌ برياحِ تحرُّقي. كنت على الرصيف أنظرُ إلى الهيكل المطليّ بالقطران يخترق الماء. وأسفل أحد الصواري ميَّزتُ شبحًا لم أستطع أن أتبيَّنَ من يكون. كم ستدوم هدنتي هذه؟ لا أستطيع أن أخمِّنَ. ما أعرفه هو أنَّ القدر شيخٌ. إنَّه يمشي بخطوٍ بطيء. يتوقَّف ليلتقط أنفاسَه. ثم يستأنفُ المسير. يبلغ مقصده وموعده. غير أنِّي كنت على يقين بأنَّ أحلك الساعات قد صارت خلف ظهري، وبأنَّني قريبًا سأستطيع التنفُّس.

تلك الليلة، أتت هيستر ترقد بجانبي، على

عادتها أحيانًا. ألصقتُ رأسي بزنبق خدِّها الهادئ والتصقتُ بها.

رويدًا رويدًا اجتاحتني اللذَّة، فدُهشتُ. هل نستطيع أن نستشعر اللذَّة ونحن ملتصقون بأجساد أشباهنا؟ لطالما اتَّخذتِ اللذَّةُ عندي شكل جسدٍ مغايرٍ، جسدٍ تتلاحمُ تجاويفُه ونتوئيَ، وتعشعشُ نتوآته في سهول جسدي الناعمة. هل توجِّهني هيستر إلى طريقٍ ملذَّةٍ أخرى؟

ثلاثة أيَّامٍ بعد ذلك، أتى نويس يفتح باب الزنزانة. وفي ظلِّه يعثر اليهوديّ، أصهبَ وأحدب من ذي قبل. دفعني نويس حتى ساحة السجن؛ وهناك حول كتلةٍ خشبيَّةٍ فتح الحدّاد، وهو رجلٌ ضخمٌ يرتدي وزرةً جلديَّةً، ساقيَّ دونما تحفُّظٍ. ثم بضربةٍ من مطرقته، وبمهارةٍ مرعبة، فتَّت قيودي. وأعاد الكرَّة مع معصميَّ، بينما أصرخ.

كنتُ أصرخ لأنَّ الدم الذي انحبس أشهرًا عن مناطق من جسدي، تدفَّق فيها فجأةً، فأشعل تحت جلدي الحرائق.

صرختُ، وكان صراخي، الشبيه بصراخ وليدٍ مرعوبٍ، تحيَّةً منِّي للعالم الذي أعود إليه. كان عليَّ أن أتعلَّم المشيَ من جديد. إذ انتُزعتْ منِّي الأغلالُ فقدتُ توازني، وصرت أمشي مترنِّحةً كامرأةٍ أفرطت في شرب خمرٍ رديء. وكان عليّ أن أتعلَّم من جديدٍ الكلامَ، والتواصل مع أشباهي، وألَّا أكتفي بهمهماتٍ مقتضَبة. كان عليَّ أن أتعلَّم

من جديد النظر في عينَي مخاطِبي. كان عليَّ أن أتعلَّم من جديد تطويع شَعري وقد صار كعشٍّ ثعابين تفحّ حول رأسي. كان عليَّ أن أدهن بالمراهم بَشَرتي الجافَّة المتشقِّقة مثل جلدٍ سيِّء الدبغ.

قليلٌ من الأفراد فقط يصيبهم سوء الحظّ هذا: أن يولدوا مرَّتيْن.

- 8 -

بنيامين كوهين أزيفيدو، اليهوديّ الذي اشتراني كان قد فقد زوجته وأصغر أطفاله في جائحةِ سعالٍ ديكيّ. لكنْ بقي له مع ذلك خمس بناتٍ وأربعة أولاد يحتاج في تربيتهم ليدٍ نسائيَّة على وجه العَجل. وبما أنَّه لم يكن ينوي الزواج مرَّةً أخرى، بخلاف ما يفعله رجال الجماعة عادةً، فقد ارتأى أنَّ الأفضل له استخدامَ عبدة.

وجدت نفسي إذن أواجه نحوَ عشرة أطفالٍ من مختلف الأحجام، شعورهم حينًا سوداء كذيل طائر العقعق، وطورًا صهباء كشعر أبيهم، وكلُّهم تجمعهم خصيصةٌ واحدة: لا يعرفون ولا كلمة واحدة بالإنجليزيَّة. الحالُ، أنَّ عائلة بنيامين كانت تنحدر من البرتغال، وقد فرَّت منها زمنَ الاضطهاد الدينيّ، لتستقرّ بهولندا. ومن هولندا، قفزت شعبةٌ من سلالتهم إلى البرازيل، تحديدًا إلى مدينة ريسيفي، ومرَّةً أخرى، اضطرُّوا إلى الفرار حين احتلَّ البرتغاليُّون البرازيل. فانفلقت الشعبةُ فرعيْنِ، فرعٌ استقرَّ بجزيرة كوراساو، وآخرُ جرَّبَ حظَّه بمستعمرات أميركا. وذاك الجهل باللغة الإنجليزيَّة، والرطانة بالعبريَّة والبرتغاليَّة، كانا يوحيان بأنَّ العائلة لا تهتمّ لما يقع خارج دائرة مصائبها الخاصَّة، لما لا ينتمي إلى محنة اليهود في الأرض! كنت أتساءلُ عمَّا إذا كان بنيامين كوهين أزيفيدو على علمٍ بمحاكمة ساحرات سالم، وما إذا كان قدومه إلى السجن فعلًا بريئًا. على أيِّ حالٍ، لو أنَّه كان على علمٍ بهذه

القضيَّة المؤسفة فلا بدَّ من أنَّه قد عزاها إلى تلك القسوة الجوهريَّة التي تُميِّز الوثنيّين، فبرَّأ ساحتي. وهذا يعني أنَّني ما كنتُ لأجد مصيرًا أفضلَ.

الضيوف الوحيدون الذين كانوا يتسلَّلون خلسةً إلى بيت بنيامين كوهين أزيفيدو كانوا نحو خمسة يهودٍ آخرين، يأتون ليشاركوه شعائرَ يوم السبت. علمتُ أنَّهم طلبوا إذنًا ببناء بِيعة، وقوبل طلبهم بالرفض. فصاروا يتراصُّون واحدًا لصق آخرَ في غرفةٍ واسعة، أمام شمعداناتٍ يحمل كلٌّ منها سبع شمعاتٍ، ويردِّدون بصوتٍ رتيبٍ كلامًا غامضًا. وغبَّ تلك اللقاءات يكون لزامًا ألَّا نوقد أيّ ضوءٍ، ويضطرُّ الأطفال إلى الأكل والغسل والنوم في ظلامٍ حالك.

كان بنيامين كوهين أزيفيدو على علاقة تراسليَّة وتجاريَّة دائمة مع آخرينَ ممَّن يُدعون كوهين، وليفي، وفريزر، وكانوا هم يُقيمون في نيويورك (التي يصرّ على تسميتها نيو ـ أمستردام!) أو رودس آيلاند. وكان الرجلُ يكسبُ رزقهُ واسعًا من تجارة التبغ، ويملك باخرتيْن تجوبان البحر، بشراكةٍ مع صديقه وأخيه في الدِّين يهودا مونيس. وكان الرجل أيضًا نقيًّا من أيِّ كِبْرٍ، إذ يفصِّلُ ملابسه بنفسه من قطع نسيجٍ تأتيه من نيويورك، ويتغذَّى على الخبز من دون ملح وعلى الشوفان. غداة دخولي في خدمته، مدَّني بقارورة مسطَّحة، وقال لي بصوته الأجشّ:

- زوجتي أبيغايل هي من كان يحضِّر هذا الدواء. إنَّه دواءٌ قويٌّ سيجعلكِ تقفين على قدميْكِ من جديد.

ثم ابتعد خافضًا عينيْه، وكأنَّما خجلَ من طيبة قلبه. في اليوم نفسه، أتاني بملابس مفصَّلةٍ في قماشٍ كامدٍ تفصيلًا غير مألوف:

- هاكِ، كانت هذه ملابس زوجتي المرحومة أبيغايل، أعلم أنَّها ستُسعد حيث هيَ إن أنتِ ارتديْتها.

كانت المرحومةُ هي من قرَّب بيننا.

بدأتْ بأن نسجتْ بيننا نسيجًا من المعروف والخدمات والمبادرات الطيِّبة. مرَّةً، قسَّم بنيامين بيني وبين كبرى بناته، متاهيبيل، برتقالةً جيءَ بها من الجُزر؛ ودعاني إلى احتساء كأسٍ من نبيذ بورتو مع أصدقائه؛ وألقى على كتفيَّ غطاءً إضافيًّا حين بدا الليلُ في غرفتي بالعلِّيَّة شديدَ البرودة. أمَّا أنا، فكنت أكوي بعنايةٍ ملابسَه القاسية، وكنت أنظِّف وأصبغ عباءتَه التي اخضرَّت من كثرة الاستعمال، وأحلِّي بالعسل مذاق حليبه. في الذكرى الأولى لوفاة زوجته، رأيتُه في حالٍ من اليأس، لدرجة أنَّني لم أتحمَّل ذلك، واقتربتُ منه بهدوء:

- أتعلم أنَّ الموتَ ليس إلَّا معبرًا يظلُّ بابُه مشرعًا؟

نظر إليَّ غير مصدِّق، فتحمَّستُ وهمست:

ـ هل تريد أن تتواصل معها؟

جحظت عيناه. فأمرته:

ـ مساء اليوم، حين ينام الأطفال، الحق بي في بستان التفَّاح. وهاتِ معك خروفًا، أو إن لم تجد فأْتِ بطيرٍ، من عند صديقك الشحيط (24).

وأعترف أنَّني في الوقت نفسه، على الرَّغم من ثقتي الظاهرة، لم أكن أُمسك بزمام الأمور. لقد مرَّ عليَّ وقتٌ طويلٌ لم أُمارس فيه فنِّي! في حبسي المشترك، بين رفاقي البائسين، وفي غياب أيّ عنصرٍ أستطيع أن أستعين به، لم أكن أتواصل مع اللامرئيّين إلَّا في الأحلام. كانت هيستر تزورني بانتظامٍ. بينما كانت زيارات مان يايا وأبِنا أمِّي وياو نادرة. لكنَّ أبيغايل زوجته لا تحتاجَ أن تعبر الماءَ. كنتُ متأكِّدة من أنَّها لم تكن بعيدةً، إذ كانت غير قادرة على البُعد عن زوجها، وعن أبنائها الأعزَّاء خاصَّةً. تكفي إذن صلواتٌ وقربانٌ لكي تظهرَ، فيُزهرَ قلبُ المسكين بنيامين.

حوالى العاشرة، التحق بي بنيامين تحت شجرة مزهرة. كان يسحب خلفه خروفًا نقيَّ الفروة، عيناه جميلتان يملأهما الاستسلام. وكنت أنا قد شرعت منذ مدَّة في تلاوة ترانيمي، وأنتظر أن يأتي القمرُ الذي ما يزال نعسانَ، ليشارك في الطقس الشعائريّ. وفي اللحظة الحاسمة خفتُ،

لكنَّ شفتيْن التصقتا بعنقي، فعلمت أنَّها هيستر أتت تشجِّعني.

أغرق الدمُ الأرضَ، وخنقتنا رائحته الحرِّيفة.

وبعد لحظة زمنيَّة بدتْ لي لامتناهية، تشكَّلت هيئةٌ، وقصدتْنا امرأةٌ قصيرةٌ ذاتُ بشرةٍ ناصعة البياض وشعرٍ شديد السواد.

خرَّ بنيامين على ركبتيْه.

ابتعدتُ كي أتركهما في حميميَّتهما. تواصل الحديث بين الزوجيْن طويلًا.

ها قد صرتُ كلّ أسبوع أمكِّنُ بنيامين كوهين أزيفيدو من رؤية المرأة التي فقدها ويأسفُ لفقدها شديدَ الأسف. وكان الأمر يحدث بالعادة يومَ الأحدِ مساءً، حين تنقضي زيارة الأصدقاء الذين يأتون لتبادل أخبار اليهود المنتشرين عبر العالم، وينصرف كلٌّ منهم إلى حاله بعد أن يقرؤوا جماعةً آياتٍ من كتابهم المقدَّس.

أحسبُ أنَّ أحاديث بنيامين وأبيغايل كانت تدور بالعموم حول تنامي مشاريعهما، وتربية أبنائهما، والمشاكل التي يتسبَّبون بها، خاصَّة أصغر الأبناء، موزيس، الذي كان يخالط الوثنيِّين، ويريد أن يتكلَّم لغتهم.

أقول إنِّي أحسبُ، لأنَّ حديثهم كان بالعبريَّة، وكنت أنا أُنصت بشيءٍ من القلق إلى نبرات هذا

اللسان الكئيبة.

بعد شهر، طلب منِّي بنيامين الإذن في أن تحضرَ ابنته متاهيبيل لقاءاتنا.

ـ لا تتصوَّري كم أثَّر فيها موتُ أمّها! لم يكن يفصل بينهما إلَّا سبعة عشر عامًا، فكانت متاهيبيل متعلِّقةً بأبيغايل تعلُّقَ الأخت بأختها. مؤخَّرًا، صرت أخلط حبِّي بينهما. لهما الضحكة نفسها، وتُحيط برأسيْهما الخصلاتُ السمراء الملفوفة نفسها، ومن بشرتيْهما الشّاحبتيْن يضوع العطرُ نفسُه. تيتوبا، أحيانًا ينتابني الشكّ في الإله حين أراه يفرِّق الطفل عن أمّه! أشكّ في الإله! ها أنتِ ترين أنَّني لست يهوديًّا جيِّدًا!

كيف كان لي أن أرفض؟

خاصَّة وأنَّ متاهيبيل كانت المفضَّلة عندي من بين سرب الأطفال. كانت من الرقَّة بحيث تجعل المرء يرتعد حين يفكِّر فيما قد تفعله بها الحياة، الحياةُ، تلك المرأة السليطة الشهوانيَّة الهوجاء. كانت صبيَّةً شديدة الاهتمام بالآخرين. وكانت تتحدَّث قليلًا بالإنجليزيَّة، فتقول لي:

ـ لِمَ كلّ هذه الغمائم المتراكمة في قرارة عينيْكِ يا تيتوبا؟ فيمَ تفكِّرين؟ في ذويك المستعبَدين؟ ألا تعلمين أنَّ الله يجزي عن الآلام، وتلك طريقته في مباركة أوليائه؟

لكنَّ هذه العقيدة لم تكن تُرضيني، فكنتُ أهزّ رأسي:

ـ متاهيبيل، أَلَم يَحِن الوقت بعدُ لكي يبدِّل الضحايا معسكرهم؟

صرنا الآن ثلاثةً نرتجف في الحديقة منتظرين تجلِّيات أبيغايل. كان الزوجان المبادريْن إلى تبادل الحديث. ثم تقترب البنت من أمّها. تظلَّان بمفردهما.

لِمَ على كلِّ علاقةٍ بين رجلٍ وامرأةٍ مصبوغةٍ بقليل من العطف، لِمَ عليها أن تنتهي في السرير؟ لم أكن أصدِّق الأمرَ!

كيف لنا، أنا وبنيامين كوهين أزيفيدو، هو المشغول بذكرى امرأةٍ ميّتة، وأنا المشغولة برجلٍ جاحدٍ؛ كيف لنا أن نُلفي نفسيْنا منخرطيْن في درب المداعبات، والعناق، والملذَّات المتبادلة؟

أحسب أنَّه في المرَّة الأولى التي وقع فيها ما وقع، كان أشدَّ منِّي ذهولًا، إذ كان يحسب فرجَه قد صار أداةً خارج الخدمة، فدُهش إذ رآهُ ملتهبًا وقاسيًا ومقتحمًا ومنتفخًا بعصيرٍ غزير. تفاجأ وشعَر بالعار، هو الذي كان يعلِّم أبناءه فظاعةَ جرمِ الزنا. فكان أن ابتعد متمتمًا بكلمات اعتذارٍ سرعان ما كنستْها موجةُ رغبةٍ جديدة.

صرت الآن أعيش الوضعيَّة الغريبة، وضعيَّة أن

تكون المرأة في آنٍ عشيقةً[25] وخادمةً. لم يكن يومي يمنحني لحظةً للراحة؛ كان يتوجَّب عليَّ أن أحلج الصوف وأغزله، وأن أوقظ الأطفال، وأساعدهم في الاغتسال، وارتداء ملابسهم، وفي غسل الملابس، والأواني، والملاءات، والأغطية، بل حتى إصلاح النعال، من دون أن أغفل الشحم الذي ينبغي إذابته من أجل الشمع، والحيوانات التي ينبغي إطعامها والمنزل الذي تلزم العنايةُ به. ولسببٍ دينيّ لم أكن أعدّ الطعام، كانت متاهيبيل تتكفَّل بذلك، وكنت آسفُ لشبابها الذي يذوي في مثل هذه الأشغال المنزليَّة!

مساءً، كان بنيامين كوهين أزيفيدو يلتحق بي في العلِّيَّة حيث أنامُ على سريرٍ ذي دعاماتٍ نحاسيَّة. وعليَّ أن أعترف بأنَّه حين كان ينزع ملابسه، فأرى جسده الشمعيّ المقوَّس، لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في جسد جون الهنديّ المفتول العضلات والكامد اللون. كانت تصعد إلى حلقي غصَّةُ ألمٍ، وأقاوم لأخنق شهقاتي. على أنَّ إحساسي ذاك لم يدُم طويلًا، وسرعان ما انجرفتُ مع عشيقي الأشوه في بحار الملذَّات. وكانت لحظاتنا الأحلى هي تلك التي كنَّا نتحدَّث فيها. نتحدَّث فيها عن نفسيْنا. عن نفسيْنا فقط.

ـ تيتوبا، هل تعرفين معنى أن يكون المرء يهوديًّا؟ منذ سنة ٦٢٩، أمر الميروفنجيّون الفرنسيُّون بطرد سلالتنا من مملكتهم. بعد مجمع لاترّان الرابع الذي دعا إليه البابا إينوسنت

الثالث، فُرض على اليهود وضعُ إشارةٍ دائريَّة في ملابسهم، وأن يغطُّوا رؤوسهم. وقبل أن ينطلق رتشارد قلب الأسد في حملته الصليبيَّة، أمرَ بعدوانٍ شاملٍ على اليهود. أتعلمين كم عدد الذين ماتوا منَّا في محاكم التفتيش؟

قاطعتُه قائلةً بدوري:

ـ ونحن، هل تعرف كم منَّا يسيلُ دمُهم من سواحل إفريقيا؟

لكنَّه واصل الكلام:

ـ سنة ١٢٩٨، ذُبح يهود روتنغن كلّهم، وامتدَّت موجة القتل من بافاريا إلى النمسا... وسنة ١٣٣٦، من الراين إلى بوهيميا ومورافيا تناثر دمنا!

كان يهزمني في كلِّ مرَّة.

وذات ليلةٍ، وقد انجرفنا أعنفَ من المعتاد، همس بنيامين بشغفٍ:

ـ ثمَّة ظلٌّ يعتمُ عينيْكِ دائمًا يا تيتوبا. ماذا بوسعي أن أقدِّم لكِ لكي تكوني سعيدةً أو شبه سعيدة؟

ـ الحرِّيَّة!

انطلقت الكلمات من فمي من غير أن أستطيع كبحها.

ـ الحرِّيَّة؟ لكن، ماذا عساكِ تفعلين بها؟

ـ سأركب إحدى سفنك، وأنطلق فورًا صوب باربادوس.

قسا وجهه حتى بالكاد استطعتُ أن أتعرَّف عليه:

ـ أبدًا، أبدًا، أتسمعين؟ أبدًا، لأنَّكِ إن رحلتِ سأفقدها مرَّةً أخرى. لا تفتحي هذا الموضوع مرَّةً أخرى.

ولم نفتحه مرَّةً أخرى. إنَّ للعبارات التي نقولها ورأسُنا على الوسادة الميزةَ نفسها التي للأحلام: إنَّها تُنسى بسهولة.

استأنفنا عاداتنا من حيث تركناها. شيئًا فشيئًا، أخذ يتسرَّب إليَّ الفتور وسط هذه العائلة اليهوديَّة. تعلَّمت أن أرطن بالبرتغاليَّة. كنت أشغَف لقصص التجنيس، وأنتفضُ حين تجعلُها وضاعةُ حاكمٍ صعبةً، لا بل مستحيلة. أشغَف لقصص بناء بِيعة، وتعلَّمتُ أن أُقدِّرَ روجر وليامز باعتباره ذا ذهنيَّةٍ ليبراليَّة وتقدُّميَّة، صديقًا حقًّا لليهود. نعم، صرتُ مثل الأب كوهين أزيفيدو أقسِّم العالم إلى معسكريْن: أصدقاء اليهود والآخرين، وأحسُبُ حظوظَ اليهود في أن يتَّخذوا موضعًا أفضل في هذا العالم الجديد.

على أنِّي عدتُ إلى نفسي ذات ظهيرة. كنت قد حملت سلَّة تفَّاحٍ مجفَّف إلى زوجة جاكوب

ماركوس التي وضعت لتوِّها رابعة بناتها، وكنتُ أتقدَّم بخطًى حثيثةٍ، مكافحةً البرد، في شارع فرانت العاصف، وإذا بي أسمع من ينادي باسمي:

. تيتوبا؟

وجدتُ نفسي أمام شابَّةٍ زنجيَّة لم يفصح لي وجهها في البداية عن أيِّ شيء. أصلًا، كانت مدينة سالم، في تلك الحقبة، شأنها شأن مدينة بوسطن وخليج باي كولوني كلّه، تعجُّ بالسُّود الذين يمارسون أعمالَ سخرةٍ لا عدَّ لها، وما عادوا يُثيرون انتباه أحد.

وإذ ظللتُ متردِّدة، صاحت الشابَّة:

. إنَّها أنا، ماري بلاك. هل نسيتني؟

واستعدتُ الذاكرة.

ماري بلاك كانت عبدة ناثانيال بوتنام، واتُّهمتْ بالسحر، مثلما اتُّهمتُ أنا، من طرف زمرة بنات الكلب. كانت قد اقتيدت إلى سجن بوسطن، ولا أدري ما كان من أمرها.

. ماري؟

بضربةٍ واحدةٍ، سحقني الماضي تحت ثقل الآلام والمهانة. أخذنا ننتحبُ للحظاتٍ متعانقتيْن. ثم صبَّت في أذنيّ كيسًا من الأخبار:

ـ آه، بلى! بدأت فصول المكيدة الشرِّيرة تنكشف الآن! لقد سُخِّرت البنات من طرف آبائهنَّ. وخلف ذلك قِصصُ نزاعاتٍ على الأراضي، أموالٌ طائلة، صراعات قديمة. والآن، انقلبت الأمور، ويريدون طرد صامويل باريس من القرية، لكنَّه صامد. يُطالب بمستحقَّاتٍ متأخِّرة، وبثمن الحطب الذي لم يقدَّم له قطّ. هل علمتِ بأنَّ زوجته قد أنجبت ولدًا؟

لم أرغب في أن أسمع شيئًا من أخبارهم، فقاطعتها:

ـ أنتِ، أنتِ! ماذا حصل معكِ؟

هزَّت كتفيْها:

ـ ما زلت أعمل عند ناثانيال بوتنام. لقد استعادني بعد العفو الذي أصدره في حقِّنا الحاكم فيبس. لقد تخاصم مع ابن عمِّه توماس. هل تعلمين أنَّ الدكتور غريغز صار يقول الآن إنَّ ماري بوتنام وابنتها آن ليستا في كامل قواهما العقليَّة؟

فات الأوان! فات الأوان! الحقيقة دائمًا تصل متأخِّرة، لأنَّها تمشي أبطأ من الكذب. الحقيقة تمشي مشية عضو مجلس الشيوخ (26).

كان ثمَّة سؤالٌ يحرق شفتيَّ، وأُجاهد لكبحه. لكن انتهى بي المطافُ إلى أن أطلقته:

. وجون الهنديّ، ماذا وقع له؟

تردَّدت، فأعدتُ سؤالي بإلحاحٍ أكبر.

قالت موجِزةً:

. لم يعد يسكن القرية.

ذُهلتُ:

. وأين صار؟

. بتوبسفيلد.

توبسفيلد؟ أمسكتُ المسكينةَ ماري من ذراعيْها من دون أن أنتبه إلى أنِّي كنت أغرس في جسدها البريء أظافري:

. ماري، بحقِّ الربّ، أخبريني بما وقع له! ما الذي يفعله بتوبسفيلد؟

امتنعت عن النظر في وجهي:

. هل تذكرين السيِّدة سارة بورتر؟

. ليس بأكثر ممَّا أذكر غيرها! امرأةٌ نحيلةٌ لم تكن ترفع عينيْها عن كتاب الصلوات في المجمَع!

. حسنًا، لقد صار يشتغل عندها بعد وفاة زوجها، ثم سقطَ من السقف، فوجد نفسه في سريرها.

أحدث الأمر زوبعةً في القرية، حتى اضطُّرا إلى الرحيل.

لا بدَّ من أنِّي قد بدا عليَّ الانهزام، حتى اضطُرَّتْ إلى أن تقول بنبرةِ عزاء:

. يبدو أنَّهما غير متفاهميْن البتَّة.

لم أكن أُصغي لما تبقَّى من حديث. خلتني سأفقد عقلي، بينما ذاكرتي تستعيد كلمات هيستر:

. إنَّ الحياة رفيقةٌ بالرجالِ، بيضًا كانوا أم سودًا!

طريدةَ المشنقة، كنتُ أنا أستهلك قوايَ في العبوديَّة، بينما رجُلي، مرتديًا نعل جلدٍ، يخطو خَطوَ الفاتح في أرضه الجديدة، ويقيس أبعاد أملاكه. إذ كانت بورتر غنيَّةً، أتذكَّر الآن. كان اسمُها واسمُ زوجها في لائحة من يدفعون أعلى الضرائب.

حثثتُ الخطى، إذ اشتدَّت الرِّيحُ، أدبُّ في الملابس التي أعطانيها بنيامين كوهين، والتي ما تزال تحتفظ برائحة المرحومة العذبة والنفَّاذة.

كنت أحثّ الخطى، انتبهتُ لذلك، إذ لم يعد لي إلَّا ملجأ واحد: المنزل الكبير بإسكس ستريت.

وحين بلغته، كانت الساعة ساعة الترديد. الأطفال مجتمعون حول أبيهم يردِّدون العبارات التي صارت مألوفةً عندي: «شماع يسرائيل: أدوناي إلوهي نوإيهِهاد» (27).

هرعت إلى علِّيَّتي، وتركت الألم يسيطر عليّ.

- 9 -

على أنَّ ألمي كان مصيرُه مصير غيره: هدأ. ثم عشت أربعة أشهرٍ من الدعة، إن لم أقل من السعادة، في بيت بنيامين كوهين أزيفيدو.

ليلًا، كان يهمس لي:

. إنَّ ربّنا لا يفرِّق بين الأجناس ولا الألوان. إن شئتِ تستطيعين أن تصيري واحدةً منّا، وتصلِّي معنا.

قاطعته ضاحكة:

. أربُّك يقبل حتى الساحرات؟

قبّل يديّ. أنتِ ساحرتي المحبوبة يا تيتوبا!

على أنّ القلق ما انفكّ يزورني بين الفيْنة والأخرى. كنت أعرف أنَّ الشقاء لن يتركني أبدًا. كنت أعرف أنّه يفضِّل خلقًا دون آخرينَ، وظللتُ أنتظر.

ظللتُ أنتظر.

- 10 -

بدأ الأمر حين انتُزعت الميزوزة (28)، الموضوعة عند باب مدخل بيت بنيامين كوهين أزيفيدو، شأن بيت اليهوديِّين الآخرين، ووُضع مكانَها رسمٌ فاحشٌ بالصباغة السوداء.

ولفرط ما اعتاد اليهود الاضطهاد، أخذ بنيامين يتشمَّم الريح، وأحصى أبناءَه ثم قادهم إلى الداخل مثل قطيعٍ طيِّع. أمضيتُ ساعاتٍ أبحث عن موزيس الذي كان يتعارك مع أطفالٍ أوغاد غير بعيدٍ عن الأحواض، وطاقيَّته الكيباه بالكاد عالقةٌ بخصلةٍ من شعره الكثيف الأصهب. كان اليومُ التالي يومَ السبت المقدَّس. وعلى عادتهم، اجتمع آل ليفي الخمسة وآل ماركوس ثلاثتهم - إذ كانت ريبيكا، زوجة جاكوب، ما تزال نفساء - عند بنيامين لإقامة الشعيرة. وما كادت أصواتهم المرتجفة أكثر من المعتاد ترتفع حتى انهالت على الأبواب والنوافذ عاصفةٌ من الحجارة.

أنا، التي لم يكن لها شيءٌ تخسره، خرجتُ، فرأيتُ حشدًا صغيرًا من الرجال والنساء تدلّ ملابسهم الكئيبة على انتمائهم البيوريتاني، مجتمعين على بعد أمتارٍ من المنزل. شاط بي الغضبُ، فتقدَّمتُ صوب المعتدين.

زمجرَ رجُل:

- لا أدري حقًّا فيما يفكِّر حكَّامُنا! ألهذا تركنا

إنجلترا؟ لكي يتكاثر حولنا اليهود والزنوج؟

انهالت عليَّ الأحجارُ. واصلتُ التقدُّم، مفعمةً بغضبٍ يُلهبُ جسدي ويجعل قدميَّ رشيقتيْن.

فجأةً، صاح أحدهم:

ـ ألم تتعرَّفوا عليها؟ إنّها تيتوبا، إحدى ساحرات سالم!

تحوَّلت عاصفة الأحجار إلى بَرَدٍ. أظلم النّهارُ. كنت أشعر بنفسي مثل تي ـ جون(29) حين استطاعَ، مسلَّحًا بعزيمته وحدها، أن يزحزح الجبال ويدفع موج البحر، ويفرض على الشمس أن تُكمل مسيرها. لم أدرِ كم استمرَّت المعركة.

ألفيتني في نهاية النهار، منهكة الجسد، بينما متاهيبيل تغيِّر ضمَّادات جبيني باكيةً.

ولمَّا حلَّ الليل، رأيتُ حلمًا. كنتُ أريد أن أدخل غابةً، لكنَّ الأشجار كانت تتشابك أمامي، ونباتاتٌ متسلِّقةٌ تسقط من ذراها متماسكةً. فتحت عينيّ: كانت الحجرةُ سوداءَ من الدخان.

ذاهلةً، أيقظتُ بنيامين كوهين أزيفيدو الذي أصرَّ على النوم بجانبي كي يضمِّد جراحي. وقف على قدميْه، وتمتم:

ـ أطفالي!

لكنَّ الوقت كان قد فاتَ. النار التي أُضرمت بمهارةٍ في أركان المنزل الأربعة، اجتاحت الطابقيْن السفليّ والأوّل. وانتقلت الآن إلى العلّيّة. حضر في ذهني أن أرميَ من النافذة أفرشةً هبطنا فيها وسط أعمدة متفحّمة، وستائرَ ينبعث منها الدخانُ، وأطراف معدنٍ معوجّة. أخرجوا من بين الأنقاض تسعة جثامين صغيرة. أرجو أنَّ الأطفال الذين أُخذوا في نومهم، لم يخافوا أو يتألّموا. ثم، ألن يلحقوا بأمّهم؟

منحتْ سلطات المدينة بنيامين كوهين أزيفيدو قطعةَ أرضٍ ليدفن فيها ذويه، فكانت تلك أوّلَ مقبرةٍ يهوديَّةٍ بالمستعمرات الأميركيَّة، قبل مقبرة نوييورت.

وكأنَّما لم يكن كافيًا ما وقع، فأكلت النارُ بالميناء السفينتيْن اللتين يملكهما بنيامين وصديقه. ومع ذلك، أظنُّ أنَّ هذه الخسارة الماديَّة لم تُحدث لدى الرجل فَرْقًا. حين استطاع بنيامين كوهين أزيفيدو أن ينطق، أتاني يقول:

. ثمَّة تفسير عقلانيّ لكلِّ ما وقع: يريدون أن يبعدونا عن التجارة المزدهرة في جزر الأنتيل. كالعادة، يكرهون عبقريَّتنا ويخشونَها. لكنِّي أنا لا أظنّ ذلك. إنَّ الربَّ هو من عاقبني. ليس لرغبتي الحارقة فيك. فاليهود لطالما تميَّزوا بغريزة جنسيَّة قويَّة. أبونا موسى حتى وهو في أرذل العمر ظلّ ينعظ. يقول سفر التثنية: «إنَّ قدرته الجنسيَّة لم تنقص». إبراهيم ويعقوب وداود

كلّهم اتَّخذوا خليلاتٍ. ولم يغضب منِّي الرّبُّ كذلك لأنِّي استعنت بصنعتِك كي أقابل مجدَّدًا أبيغايل. فهو يذكر حبّ إبراهيم لسارة. كلَّا، إنَّه يعاقبني لأنَّني حرمتُكِ الشيءَ الوحيد الذي كنتِ ترغبين فيه: الحرِّيَّة! لأنِّي أبقيتكِ معي قسرًا، متوسِّلًا بالعنف الذي يكرهه. لأنِّي كنت أنانيًّا وقاسيًا!

اعترضتُ عليه:

ـ كلَّا، كلَّا!

لكنَّه لم يكن يصغي إليَّ، وواصل كلامَه:

ـ أنتِ الآن حُرَّة. وها حجَّتكِ.

ومدَّ إليَّ رقعةً ضُربت بأختامٍ مختلفة لم أُعِرْها نظرةً، وهززت رأسي منتفضة:

ـ هذه الحرِّيَّة لا أُريدها، أُريد أن أبقى معك.

ضمَّني إليه قائلًا:

ـ سأرحل إلى جزيرة رودس، فهناك على الأقلّ ما يزال بإمكان اليهوديّ أن يكسب عيشه. ينتظرني هناك أحد إخواني في الدِّين.

انخرطتُ في النحيب:

ـ ماذا بوسعي أن أفعل بحياتي من دونك؟

ـ أن تعودي إلى باربادوس. أليست هذه أغلى أمانيكِ؟

ـ بلى، لكن ليس بهذا الثمن! ليس بهذا الثمن!

ـ لقد حجزتُ لك موضعًا على متن سفينةِ تَبَارك الربُّ التي ستُقلع خلال أيَّامٍ. هاكِ، هذه رسالةٌ منِّي إلى أحد إخواني في الدِّين. إنَّه تاجر في تلك المدينة، واسمُه دا؟يد دا كوستا. قلتُ له أن يمدّ إليك يدَ العون إن احتجتها.

وإذ واصلتُ الاحتجاج، أمسك براحتيَّ بين راحتيْه، وجعلني أتلو خلفه كلمات أشعياء:

«هكذا يقول ربّنا الأزليُّ:

السماءُ عرشي

والأرضُ موطئُ قدميَّ.

أيّ بيتٍ ستبنونَ لي؟

وأيّ مكانٍ ستجعلونَه مقاميَ؟

وكلّ ما يوجدُ هو صنعةُ يدي...».

وحين هدأتُ قليلًا، هَمَس لي:

ـ امنحيني معروفًا أخيرًا. مكِّنيني من رؤية أطفالي مرَّةً أخرى!

وبالنظر إلى تحرُّق الأب، لم ننتظر أن يخيِّم الليل، وما كادت الشمس تغيب خلف أسطح سالم الزرقاء حتى اجتمعنا في بستان التفَّاح. رفعت رأسي صوب غصون الأشجار المعقودة، والقلب تملؤه مرارةٌ ينازعها إيماني. متاهيبيل كانت أوَّل من تجلَّى. شعرُها مكلَّلٌ كإحدى آلهات الأديان البدائيَّة. تنهَّد بنيامين كوهين أزيفيدو:

ـ حلوة أبيها، هل أنتِ سعيدة؟

هزَّت رأسَها موافقةً، بينما إخوانها وأخواتُها يلتفُّون حولها، وسألتْه:

ـ متى ستلحق بنا يا أبي؟ عجِّل، إنَّ الموتَ في الواقع أكملُ الخيرات!

سرعانَ ما اكتشفتُ أنَّ زنجيَّةً، حتى وإن كانت تملك صكَّ حرِّيَّةٍ لا غبار عليه، ليست في منأى عن التحرُّشات. فحصني قبطانُ تبارك الربُّ ، وهو عملاق أخرق يحمل اسم ستانارد، من رأسي إلى قدميّ، ويبدو أنَّ ما رآه لم يرُقه. وبينما كان متردِّدًا يُشبِع أوراقي في يديْه تقليبًا، مرَّ من خلفه بحّارٌ، وهمس في أذنه بما لا شكّ أنَّه يعرفُه أصلًا:

ـ حذارِ! إنَّها إحدى ساحرات سالم!

وها مرَّةً أخرى أجدني في مواجهة هذا النعت! على أنَّني قرَّرتُ أن أواجه الإهانة، وأجبته:

. منذ ثلاث سنواتٍ تقريبًا، أصدر حاكم المستعمرة عفوًا عامًّا. أولئك الذين تسمُّونهنَّ «ساحرات» قد نلنَ الصفح.

أجاب البحَّار هازئًا:

. ربَّما، لكنْ أنتِ اعترفتِ بجُرمكِ. فلا صفْح عنكِ.

تملَّكني اليأس ولم أجد ما أردّ به. لكنَّ بريقًا لمع في عينَي القبطان الشَّبيهتيْن بعينَي حيوانٍ ضَارٍ، وقال:

. هل تعرفين إذن كيف تمنعين بالسحر الأمراض؟ والغرق؟

هززتُ كتفيَّ:

. أعرف كيف أعالج بعض الأمراض. أمَّا الغرق، فلا أستطيع له شيئًا.

نزع غليونه من فمه وبصق على الأرض ريقًا أسودَ نتنًا:

. عندما تتوجَّهين إليَّ بالكلام، يا زنجيَّة، أخفضي عينيْك وإلَّا شتتُّ أسنانك في فمك. أجل، سأقلّكِ إلى باربادوس، لكنْ مقابل طيبتي، ستعتنين بصحَّة طاقمي وتمنعين العواصف.

لم أقُل شيئًا!

إذَّاك، قادني إلى مؤخِّر الجسر حيث رُوكِمَت صناديق السمك، وأقفاص النبيذ، وبراميل الزيت، وأشار لي إلى موضعٍ بين لُفافتَي حبال:

. ستسافرين هنا!

والحقُّ أنِّي ما كنت في مزاجٍ يسمح لي بأن أعترض وأتنازع بالمنقار والمخالب. لم أكن أفكِّر إلَّا في الأحداث المأساويَّة التي مرَّت عليّ. لطالما قالت مان يايا، وكرَّرت القول: «الأهمّ أن نبقى على قيد الحياة»!

لكنَّها كانت مخطئةً، ما فائدة أن نبقى على قيد الحياة، حين تكون الحياة صخرةً معلَّقةً في أعناق الرجال والنساء. جرعةً مُرَّةً وحارقة!

آه يا بنيامين، يا عشيقيَ الأعوجَ اللطيف! لقد اتَّخذَ طريقَ جزيرة رودس، وفي فمه صلاة:

«شماع يسرائيل: أدوناي إلوهينو إيه هاد»!

كم سيلزمُ من رجمٍ؟ وحرائقَ؟ ودماءٍ تفور؟ وتركيع؟

بدأتُ أتخيَّلُ مجرى آخرَ للحياة، دلالةً أخرى، حاجةً ملحَّةً أخرى.

لقد أحرقتِ النارُ ذروةَ الشجرة. الثائرُ اختفى في غمامةٍ من دخانٍ. لقد هزمَ الموتَ إذن وخلدتْ

روحُه. ها دائرة العبيد المفزوعين تتشجَّعُ. إنَّ الروحَ تبقى.

نعم، هي حاجةٌ ملحَّةٌ أخرى.

في انتظار ذلك، وضعتُ، كما اتَّفق، السلَّةَ التي تحوي ملابسي بين الحبال، ولففتُ نفسي في تضاعيف عباءتي، وركَّزت جهدي في تذوُّق اللحظة الراهنة. على الرَّغم من كلِّ شيء، ألستُ شاهدةً على تحقُّق حلمٍ لطالما أرَّق جفنيَّ؟ ها أنا ذي عائدةٌ إلى مسقط رأسي.

أرضها ما تزال ضارية كما هي. وكثبانها الخضراء كما هي. وكما هوَ قصبُها الأرجوانيّ الغنيّ بعصيرٍ لزجٍ. والحزام الزمرّدي الحرير حولها كما هو.. لكنَّ الزمان تغيَّرَ. الرجال والنساء ما عادوا يقبلون المعاناة. الثائرُ يختفي في غمامةٍ من دخانٍ. روحه تبقى. الخوف يتبدَّدُ.

حوالي منتصف النهار، سحبوني من عزلتي لأُعالج بحَّارًا. كان زنجيًّا يعمل في المطبخ، وكان يرتجف من الحمّى.

فحصني بنظرة مرتابة، وقال:

ـ قيل لي إنَّ اسمك تيتوبا؟ هل أنت ابنة أبِنا التي قتلت رجلًا أبيضَ؟

أن يتذكَّرني بعد عشر سنواتٍ من الغياب، أفاض الدموع من عينيَّ. كنتُ قد نسيتُ أنَّ شعبنا يتميَّزُ

بملَكة التذكُّر. آه لشعبي! لا شيء يفلت منه! كلّ شيء ينحفر في ذاكرته!

تمتمت:

. نعم، لقد عرفتني!

فاضت نظرتُه عذوبةً وتقديرًا:

. يبدو أنَّهم قد جعلوا حياتك قاسيةً هناك؟

كيف عرف؟ انفجرتُ منتحبةً، وخلَل شهقاتي، سمعتُه يعزِّيني بطريقة خرقاء:

. أنتِ حيَّةٌ، يا تيتوبا! أليس هذا الأهمّ؟

هززتُ رأسي منتفضةً. كلَّا، ليس هذا الأهمّ. يجب، أجل، يجب أن تُغيّرَ الحياةُ طعمها. لكنْ كيف السبيل إلى ذلك؟

الآن صار ديوداتوس، البحَّار، يأتي كلّ يومٍ ليُجالسني، ويحمل إليَّ بعض الأطعمة التي يختلسها من مائدة القبطان، والتي لولاها قطعًا ما كنت لأجتاز الرحلة. مثل مان يايا، كان من ناغو خليج البنين. كان يشبك يديْه خلف قفاه ويحدِّق في رسم النجوم المتشابك، كان يجعلني أحبس أنفاسي:

. هل تعرفين لِمَ انفصلت الأرض عن السماء؟ فيما مضى كانتا قريبتيْن جدًّا، ومساءً، قبل أن تناما،

كانتا تثرثران كصديقتيْن قديمتيْن. لكنّ النساء وهنَّ يطبخن كنّ يثرن السماءَ بمَداقّهنَّ، ثم خاصَّةً بصياحهنَّ. فكان أن انسحبت السماءُ أعلى فأعلى، وأبعد فأبعد خلف هذه الزرقة الشاسعة التي تمتدّ فوق رؤوسنا...

- هل تعرفين لِمَ النخيلُ سيِّدُ الأشجار؟ لأنَّ كلَّ جزءٍ فيه مهمٌّ للحياة. من ثماره نصنع الزيت المقدَّس، وبأوراقه نغطِّي السقوف، وبخُوصِه تصنع النساءُ المكانسَ التي يكنسن بها أكواخهنَّ وأراضيهنَّ.

لقد تكالبتْ عليَّ الآلام والمنفى والمرض حتى كدت أنسى هذه الحكايات الساذجة. ومع ديوداتوس، كنت أعود إلى طفولتي، لم أكن أملّ من الإنصات إليه.

أحيانًا، كان يحدِّثني عن حياته. لقد سافر طول سواحل أفريقيا في خدمة ستانارد. منذ سنواتٍ، كان قد انخرط في تجارة الرقّ، وكان ديوداتوس يؤدِّي له دور المترجم. كان يرافقه إلى أكواخ القادة حيث تتمّ صفقات العار:

- اثنا عشر بحَّارًا مقابل برميل من ماء - الحياة (30)، ورطلٍ أو رطليْن من البارود، وشمسيَّةٍ من حريرٍ يستظلُّ بها جلالَتُه.

كانت عينايَ تمتلئان دموعًا. كلّ هذه الآلام مقابل تفاهاتٍ مادِّيَّة!

ـ ليس بوسعكِ أن تتخيَّلي مدى جشع أولئك الملوك الزنوج! إنَّهم على استعدادٍ لأن يبيعوا رعاياهم لولا أنَّ الأعراف التي لا يستطيعون تحدِّيها، تمنعهم من ذلك!

كثيرًا ما كنّا نتحدَّث أيضًا في المستقبل. وكان ديوداتوس البادئ إلى السؤال:

ـ لمَ أنتِ عائدةٌ إلى البلاد؟

وأضاف:

ـ أيّ معنى لحرِّيَّتك وسط عبوديَّة ذويكِ؟

لم أجد ما أُجيبه به. ذاك أنِّي كنت عائدةً صوب مسقط رأسي عودةَ الطفل الذي يهرع إلى تنانير أمّه ليتعلَّق بها.

تمتمت:

ـ سأبحث عن كوخي في أملاك دارنيل القديمة و...

وهنا قاطعني ساخرًا:

ـ لأنَّك تظنِّين أنَّه ينتظركِ؟ منذ متى رحلتِ؟

كلّ تلك الأسئلة كانت تبلبلني، لأنَّني لم أكن أجد لها جوابًا. كنت أنتظر، آملُ أن تأتيني إشارةٌ من ذويَّ. هيهات! لم يحدث شيءٌ، وبقيت وحيدةً. وحيدةً. ذاك أنَّه لو كانت مياه الينابيع والأنهار

تجذب الأرواح، فإنَّ مياه البحر، الدائمة الاضطراب، تُجفلها. إنَّها تُقيم عند أطرافها الشاسعة، وأحيانًا ترسل برسائل إلى أحبَّائها، لكنَّها لا تخطو في البحر البتَّة، وخاصَّةً لا تجرؤ على التوقُّف فوق الأمواج:

«اعبروا الماء، أيا آبائيّ..

اعبرن النهر، أيا أمَّهاتي»!

ظلَّت صلواتي عبثًا.

في اليوم الرابع، الحمَّى التي داويتها، بشكلٍ ما، عند ديوداتوس، ظهرت على فردٍ آخر من أفراد الطاقم، ففردٍ آخر، ثم آخر. وصار لزامًا الإقرار بأنَّ الأمر يتعلَّق بوباءٍ. كانت الأمراض الخبيثة والحمَّى، آنذاك تنتشرُ بين أفريقيا وأميركا وجزر الأنتيل وتزدهر بسبب القذارة والاختلاط وسوء التغذية! ولم تكن السفينة تفتقر إلى الرمّ أو ليمون جزر الأصور أو الفلفل الحرِّيف. صنعتُ خلطةً كنت أعطيهم إيَّاها ملتهبة. وكنت أفرك بنشارة الفلِّين أجساد المرضى المضطربة التي ترشح عرقًا. فعلت ما بوسعي، وبمساعدةٍ من مان يايا بلا شكٍّ، كُلِّلتْ جهودي بالنجاح. لم يمت إلَّا أربعة رجالٍ، أُلقوا في البحر فلفَّهُم بكفَنه.

أتظنُّون أنَّ القبطان أبدى لي أدنى عرفان...؟ في اليوم الثامن، إذ سكنت الريحُ وتحوَّلت المياه إلى زيت، وشرعت السفينة تتهادى كأرجوحة جدَّةٍ في

الفرندة. جرَّني ستانارد من شعري حتى موضع الصاري الأكبر:

ـ أيَّتها الزنجيَّة، إن كنتِ تريدين النجاةَ بجلدك، فمُرِي الريحَ بأن تشتدَّ! عندي هنا حمولةٌ قابلةٌ لأن تفسَد، وسأضطرُّ إلى أن ألقيَ بها في البحر، لكنِّي لن أفعل حتى أُلقي بكِ أنتِ أوَّلًا!

لم يخطر ببالي قطّ إمكان التحكُّم في العناصر. الواقعُ أنَّ هذا الرجل يضعني أمام تحدٍّ. استدرتُ شطرَه:

ـ أحتاجُ حيواناتٍ حيَّة!

حيوانات حيَّة؟ عند هذه المرحلة من سفرنا، لم يكن قد بقي معنا سوى بعض الطيور الداجنة المنذورة لمائدة القبطان، وعنزةٌ أخلافُها محتقنةٌ بالحليب الذي يتناوله في فطوره، ثم بعض القطط التي يُستعانُ بها في طرد الفئران.

أتَوني بها جميعًا.

الحليب، الدمّ! ألست أملك السائليْن الأساسيَّيْنِ، بالإضافة إلى لحوم الأضاحي الطيِّعة؟

حدَّقتُ في البحر، وكان كغابةٍ أُضرمت فيها النار. فجأةً، انبثق طائرٌ من بين الجمار الساكنة وارتفع مستقيمًا، مُقبِلَ الشمسِ. ثم توقَّف، ورسمَ دائرةً، ثم سكنَ مرَّةً أخرى قبل أن يواصل ارتقاءه الصاعقَ. عرفتُ أنَّها إشارةٌ، وأنَّ صلوات قلبي

كانت تجدُ صدًى.

أثناء برهةٍ لا نهاية لها، وإذ لم يعد الطائر سوى نقطةٍ متعذَّرة الإدراك، حتى إنَّ عينيَّ كثيرًا ما ارتابت فيها، قلتُ، أثناء برهةٍ لانهائيَّةٍ تعلَّق كلّ شيءٍ كأنَّما ننتظر قرارًا غامضًا. ثم طبَّق صفيرٌ هائلٌ الفضاءَ، قادمًا من أحد أركان الأفق. غيَّرت السماء لونها، منقلبةً من الأزرق الغامق إلى ضربٍ من الرماديّ العذب. بدأ البحر يتلبَّد، وهبَّت دوَّامةُ الريح تلفّ حول الأشرعةِ فتخبِّلها، وتشبِّك الحبالَ، ثم كسرت نصفيْن أحد الصواري، فسقط على بحَّارٍ وقتله في الحال. أدركت أنَّ أضاحيَّ لم تكفِ، وأنَّ الغيبَ يشترط بالإضافة إليها «خروفًا لا قرون له».

صارت باربادوس على مرمى بصرنا فجرَ اليوم السادس عشر من إبحارنا.

وفي غمرة احتشادِ الوصول، بحثتُ عن ديوداتوس لأودِّعه، لكنَّه كان قد اختفى. حزنتُ لاختفائه.

- 11 -

عشيقيَ الأعرج الأعوج! إنِّي لأتذكَّر، قبل أن أفقدك إلى الأبد، تلك السعادة البسيطة التي عرفناها!

حينما كنت تأتيني إلى السرير الكبيرِ بالعلِّيَّة، فنتهدهد كقاربٍ ثملٍ في بحرٍ هائج. تقودني مجدِّفًا بقدميْكَ، فتبلغُ بي الضفَّة. نومنا كان يمنحنا عذوبةَ الشطآن، وفي الصباح، نستطيع أن نعود إلى أشغالنا اليوميَّة مفعمَيْن بالحماسة.

عشيقيَ الأعرج الأعوج! آخر ليلة قضيْناها معًا، لم نمارس فيها الحبَّ، وكأنَّما انمحى جسدانا أمام روحيْنا. مرَّةً أخرى، أسفتَ لقسوتِك، ومرَّةً أخرى، رَجوتُك ألَّا تفكَّ قيودي.

هيستر، يا هيستر، لن تَرضَي عنِّي. لكنَّ بعض الرجال ممَّن حُبوا فضيلة الهشاشة، يمنحوننا الرغبة في أن نكون عبدات!

ـ 12 ـ

كانوا هناك في استقبالي، ثلاثةُ لامرئيِّين، وسطَ حشدِ العبيدِ والبحَّارةِ والمتفرِّجين. إنَّ للأرواح ميزةَ ألَّا تشيخَ، وأن تحتفظ بهيئتها الشابَّة التي تتَّخذها ساعة الوفاة. مان يايا، الزنجيَّة الناغو الفارعة الطول. أبِنا أمِّي، الأميرة الأشانتي ببشرتها السوداء سوادَ حجر الكهرمان، وأعلى عظمتَي وجنتيْها الموشوم بندوبٍ شعائريَّة. ياو، المابو بقدميْن عظيمتيْن وقويَّتيْن.

سأضرب صفحًا عن وصف ما اختلجني من أحاسيسَ ساعةَ عانقوني.

عدا ذلك، لم يكن في جزيرتي ما يُفرح! كانت السماء تُمطرُ، والقطيعُ المبتلُّ، قطيعُ المنازلِ ذات الأسطح القرميد، يتزاحمُ لائذًا بهيئة الكاتدرائيَّة الهائلة. الشوارع غائصةٌ في مياهٍ موحلةٍ يخوض فيها البشر والبهائم. لا شكّ أنَّ سفينةَ نخَّاسٍ قد ألقت مرساتها في الميناء، إذ أسفل سقف القشّ لأحد الأسواق كان ثمَّة إنجليزُ، رجالٌ ونساءٌ، منخرطون في فحص أسنانِ وألسنةِ وفروجِ زنوجٍ بوساليّين(31) يرتعدون مهانةً.

ما أبشع مدينتي! صغيرة. حقيرة. مجرَّد محطَّةٍ استعماريَّة لا شأنَ لها، تفوح منها رائحة الأرباح والمعاناة.

صعدتُ طول برود ستريت، وتقريبًا من دون تصميمٍ

مسبقٍ، ألفيتُني أمام المنزل الذي كانت تسكنه سوزانا إنديكوت. غير أنّي، بدلًا من أن أبتهج لما تهمس به في أذني مان يايا، وهي تصف مصيرَ المرأةِ الشرِّيرة التي ماتت بعدما قضت أسابيعَ راقدةً في مَرَق بولها الحارق، ها إحساسٌ غير متوقَّعٍ يطوِّقني.

كم كنت لأبذل في سبيل أن أعيش مرَّةً أخرى تلك السنوات التي كنت أنام فيها، ليلةً تلو أخرى، في أحضان جوني الهنديّ، واضعةً يدي على الشيءِ واهبِ اللذَّة! كم كنت لأبذل في سبيل أن أراه يطلّ من الباب الواطئ، ويستقبلني متهكِّمًا عطوفًا، مثلما كان يحسنُ أن يفعل:

ـ آه يا امرأتي المنهكة! ها أنتِ ذي! لقد تدحرجتِ في الحياة كحجرٍ أملسَ، وها أنتِ تعودين بيديْن فارغتيْن!

حاولتُ كبح دموعي، لكنَّها لم تغب عن أبِنا أمّي، فتنهَّدتُ:

ـ طيِّب! إنَّها تبكي هذا الوغد!

بعد هذه النوتة النشاز، انكفأتِ الأرواح الثلاثة على نفسها مشكِّلةً سحابةً شفَّافةً ترتفع فوق المنازل، وشرحتْ لي مان يايا:

ـ لقد نوديَ علينا من مكانٍ ما! سنعود إليكِ مساء اليوم!

وأضافت أبِنا أمِّي:

. لا تستسلمي للإغراء.. عودي إلى بيتك!

بيتك؟ يا لها من سخريةٍ قاسية في هذه الكلمة!

باستثناء حفنةٍ من المرحومين، لم يكن ينتظرني أحدٌ ببيلي، وما كنت أدري حتى إذا ما كان كوخي الذي قضيتُ فيه عشر سنينَ ما يزال قائمًا. وإلَّا سيلزمني أن أتحوَّل مرَّةً أخرى إلى نجَّارٍ، وأُقيم لنفسيَ مأوًى في مكانٍ ما. كان الأفق غير مشجِّعٍ، حتى إنِّي فكَّرت في أن أقصد دا؟يد دا كوستا الذي حمَّلني بنيامين كوهين أزيفيدو الرسالة إليه. أين يُقيم؟

كنت واقفةً في مكاني متردِّدَةً فيما سأفعله، وإذا بي أرى جماعةً تتقدَّم صوْبي، تخوض في الطين حاميةً رأسَها، كيفما اتَّفق، بأوراق الموز. تعرَّفت على ديوداتوس وسط امرأتيْن.

ندت عنِّي صيحةُ فرح:

. أين اختفيتَ؟ لقد بحثتُ عنك في كلِّ مكانٍ.

ابتسم ابتسامةً غامضةً:

. لقد ذهبت أُعلم بعض الأصدقاء بوصولكِ. كنت أعلم أنَّ عودتكِ ستبهجهم.

انحنت أمامي إحدى المرأتيْن:

ـ باركينا بحضوركِ يا أمّاه!

أمّاه؟ انتفضت للتسمية التي استعملتها، وتميَّزتُ غضبًا، إذ كانت تُقالُ للنساء العجائز تشريفًا. والحال، أنّي بالكاد أبلغ إحدى وثلاثين سنةً، لا بل منذ أقلّ من شهرٍ كان مَنيُّ رجلٍ يبلّل ما بين فخذيّ! كاتمةً غيظي، أمسكتُ بذراع ديوداتوس، وسألته:

ـ وأين يسكن أصدقاؤك؟

ـ قريبًا من بيل ـ بلين.

كدتُ أحتجّ عليه:

ـ بيل ـ بلين! ولكنَّها في الطرف الآخر من البلد!

لكنِّي سيطرتُ على نفسي. ألم أُدرك أن لا أحد كان في انتظاري، وأنّني لا أملك سقفًا آوي إليه! ما المانع إذن في الذهابِ إلى بيل ـ بلين؟

تركنا المدينة. وفجأةً، على دأب الطقس في بلداننا، توقَّف المطرُ وأشرقت الشمس، مداعبةً التضاريس بريشتها البرّاقة. كان القصب مزهرًا، كعباءةٍ أرجوانيَّة فوق الحقول؛ وأوراق اليام البرّاقة ترتفع بقامة القصب. وحلَّ إحساسٌ بالخفَّة محلّ الإحساس الذي كان يجتاحني منذ لحظةٍ مضت. أَكنتُ أظنُّ أن لا أحد أتى يستقبلني؟ أليست البلاد كلّها تفتح ذراعيْها لحبّي؟ أليس

لي تَهْدل هذه اليمامات؟ أليس لي تعرض أشجار البابايِ والبرتقال والرمّان ثمارها؟ إذ اطمأنّت نفسي، استدرت صوب ديوداتوس الذي كان يُسايرُني محترِمًا صمتي:

. لكنْ، من هم أصدقاؤك أولئك؟ في أيِّ مزرعةٍ يشتغلون؟

ضحك ضحكةً قصيرةً ردّدت المرأتان صداها، ثم أجاب:

. إنَّهم لا يشتغلون في أيِّ مزرعة!

ظللت لبرهةٍ صامتةً لا أفهم، ثم قلتُ بنبرةٍ غيرَ مصدِّقةٍ:

. لا يشتغلون في أيِّ مزرعة؟ هم إذن... عبيدٌ آبقون؟

أحنى ديوداتوس رأسَه موافقًا.

عبيدٌ آبقون؟

منذ عشر سنواتٍ مضت، أي عندما غادرتُ باربادوس، كان العبيد الآبقون قلَّةً. ولم نكن نذكر إلَّا شخصًا يُدعى تي - نويل يشتغل ب؟ارلي هيل. اختفى ولم يرَه أحد. ومُذّاك، صار يعيش في خيال الجميع، لا بدَّ من أنَّه قد صار الآن شيخًا. ومع ذلك، كان يوصف بالشباب والفتوَّة، وتُردَّدُ إنجازاتُه العظيمة: «بندقيَّة الرجل الأبيض لا يمكنها أن

تصيب تي ـ نويل. كلبه لا يستطيع أن يعضّه. ناره لا تقدر أن تحرقه. بابا تي ـ نويل افتح لي الحاجز»!

بيَّن لي ديوداتوس الأمرَ:

«لقد سيطر أصدقائي على الجبال حين هاجم الفرنسيُّون بفوج III (32)، منذ بضع سنوات. إذّاك، أراد الإنجليز تجنيد العبيد بالقوَّة ليدافعوا عنهم. لكنَّ العبيد قالوا: «ماذا! نموت في سبيل نزاعٍ بين الرجال البيض»! وفرُّوا هاربين! لجأوا إلى جبل شالكي، ولم يُفلح الإنجليز في إخراجهم منه.

ضحكتِ المرأتان مجدَّدًا مثل صدًى.

لم أعُد أدري ما أظنُّ. على الرَّغم من كلِّ ما قاسيتُه، وعلى الرَّغم من رغبة الانتقام التي لا ترتوي في داخلي، إلَّا أنَّني لم أكن أجرؤ على التورُّط في هذه القصص وأُخاطر بحياتي في سبيل عبيدٍ آبقين. غير معقول! لقد اكتشفت أنَّ ما أريده حقًّا هو العيش باطمئنانٍ في جزيرتي المستعادة. لذا انقضى ما تبقَّى من مسار الرحلة في صمتٍ. حين توسَّطت الشمس السماء، أشارت لنا المرأتان بأن نتوقَّف، وأخرجتا من محمِليْهما فاكهةً ولحمًا مجفَّفًا. اقتسمنا الوجبة البسيطة التي رواها ديوداتوس من عنده بالرُّم. كان الطريق يزداد وعورةً بينما الغطاء النباتيّ يصير أكثف وألمَع، كأنَّما هو أيضًا متواطئٌ في حماية الهاربين من القانون! في تلك اللحظة، صرخت المرأتان بصوتٍ عالٍ:

- أغو!

تحرَّكت الأدغال، وبرز ثلاثةُ رجالٍ حاملين بنادق. صافحونا بحرارة، ولكنَّهم لم يغفلوا تعصيب أعيننا بإحكامٍ، فدخلنا بعيون غارقةٍ في العتمة أرضَ العبيد الآبقينَ.

العبيد الآبقون ينصتون إليَّ، جلوسًا، متحلِّقين حولي. عددهم ليس بالكثير، لا يتجاوزون خمسة عشر نفرًا مع نسائهم وأطفالهم. وعشتُ مجدَّدًا آلامي، وشهادتي أمام المحكمة، والاتِّهامات بلا أساس، واعترافات المتواطئين، وخيانة من أحببتُهم. وحين سكتُّ، انطلقوا إلى الكلام جميعًا:

- هذا المدعوّ الشيطان، كم مرَّةً قابلتِهِ؟

- هل هوَ أقوى من جميع السَّحرَة؟

- هل جعلكِ تكتبين في كتابه، وبالتالي هل تعرفين الكتابة؟

أوقفهم قائدهم كريستوفر، وهو رجلٌ أربعينيٌّ، هادئٌ كالأنهار التي تمضي بعنادٍ صوب البحر، وقال بنبرة اعتذارٍ:

- سامحيهم، إنَّهم محاربون وليسوا «غرانغريك (33)»، ولم يفهموا أنَّك كنتِ متَّهمةً زورًا. لأنَّكِ كنتِ بريئة، أليس كذلك؟

أحنيتُ رأسي موافقةً.

قال ملحًّا:

. ألا تملكين أيّ قوّة؟

لستُ أدري أيَّ إحساسٍ ذاك الذي استسلمتُ إليه. التباهي؟ الرغبة في إيقاظ المزيد من الاهتمام في عينيّ هذا الرجل؟ الجوع إلى الصدق؟ فكان أن حاولتُ الشرح:

. تلقَّيتُ بعضَ القوى من المرأة التي ربَّتني، امرأةٍ من الناغو. لكنَّها لا تصلحُ إلَّا لفعل الخير...

قاطعني العبيد الآبقون:

. فعلُ الخير؟ حتى مع أعدائكِ...؟

لم أدرِ بما أُجيب. لحسن الحظّ، أشار كريستوفر إلى انفضاض المجلس، بأن قام وأخذ يتثاءب قائلًا:

. غدًا يومٌ آخر!

خصَّصوا لي كوخًا غير بعيدٍ من الكوخ الذي يسكنه ورفيقتيْه، إذ استعاد، لمصلحته الخاصَّة، عادة التعدُّد الإفريقيَّة، ويبدو لي أنَّه لم يعرف في حياته سريرًا ألْينَ من هذا الفراش الموضوعِ أرضًا تحت سقفٍ من قشٍّ. آه! لقد شرَّدتني الحياةُ! من سالم إلى إبسويتش! من باربادوس إلى أميركا، ثم منها رجوعًا! لكنَّني حططتُ رحالي الآن،

وأستطيع أن أقولَ للحياة: «لن تسيِّريني أين شئتِ بعد الآن».

استأنفَ المطرُ هطولَه بعدَ توقُّفٍ، وكنت أسمعه يدبُّ، يائسًا كزائرٍ مُنع من الدخول.

كنت على وشك أن أغيب عن الوعي، وإذا بي أسمع صوتًا عند مدخل كوخي. حسبتهم قطعًا لامرئييَّ أتوا يخاصمونني على تركي إيَّاهم، فإذا بـ كريستوفر يدخل عليَّ حاملًا فوق رأسه قنديل شمع. قمت واقفةً من فراشي:

. ماذا؟ ألا تكفيك امرأتاك؟

رفع عينيْه إلى السماء، ممَّا أشعرني بالخزي، وأجابَ:

. لا مزاج عندي للملاعبات!

سألتُه بغنج رغمًا عنِّي، إذ كلّ ما حاق بي من مصائب لم يضعف فيَّ تلك الغريزة العميقة التي تجعل منِّي امرأةً:

. ولأيِّ شيء عندك مزاجٌ؟

جلس على مقعدٍ، ووضع أرضًا قنديل الشمع الذي أطلق آلاف الظلالِ البعيدة:

. أُريد أن أعرف ما إذا كان بوسعي الاعتمادُ عليكِ!

ظللت صامتةً مذهولة للحظةٍ، قبل أن أسأله:

ـ ولِمَ بحقّ الربّ؟

مال عليَّ:

ـ هل تذكرين أغنية تي ـ نويل؟

تي ـ نويل؟ لم أرد أن أفهم. حدَّق فيَّ بنظرةِ شفقة مثل طفلٍ متبلِّد، وشرع يغنِّي بصوتٍ موزونٍ يُثير العجب:

ـ أوه، بابا تي ـ نويل، بندقيَّة الرجل الأبيض لا يمكنها أن تُصيبه؛ رصاصات الرجل الأبيض لا تستطيع أن تقتله؛ إنَّها تنزلق على جلده... تيتوبا، أُريدك أن تصيِّريني غير قابلٍ للهزيمة!

هكذا إذن؟ كدتُ أنفجر ضحكًا، لكنِّي أمسكت نفسي مخافة أن أهيِّجه، وتمكَّنت من أن أُجيبه بهدوء:

ـ كريستوفر، لا أعلم ما إذا كنتُ قادرةً على ذلك!

صاح فيَّ:

ـ هل أنتِ ساحرة؟ نعم أم لا؟

تنهَّدتُ:

ـ كلٌّ يمنحُ هذه الكلمة دلالةً مختلفة. كلٌّ يظنُّ أنَّه

يستطيع تشكيلَ الساحرة وفق هواه، كي تُرضي طموحاتِه وأحلامَه ورغباتِه...

قاطعني:

ـ أصغي إليَّ، لن أقضي وقتي في سماعكِ تتفلسفين! أقترح عليكِ صفقة! ستصيِّرينني لا أُقهر، وبالمقابل...

ـ بالمقابل؟

وقف حتى ماسّ رأسُه سقف الكوخ، بينما ظلُّه يمتدّ فوقي كجنيٍّ واقٍ:

ـ بالمقابل سأعطيكِ كلّ ما يمكن أن تحلم به امرأةٌ.

قلتُ متهكِّمةً:

ـ بمعنى؟

لم يُجبني، ودار على عقبيْه. وما كاد يُغادر الغرفةَ حتى سمعت تنهيدةً لم أُخطئ صاحبتَها. آثرتُ تجاهل أبِنا أمّي، وولَّيت وجهي شطر الحائطِ أُنادي مان يايا:

ـ هل أستطيع مساعدته...؟

سحبت مان يايا نَفَسًا من غليونها القصير، وأرسلت في الهواء دخانًا دائريًّا:

ـ وأنَّى لكِ ذلك؟ إنَّ الموت بابٌ لا يستطيع أحدٌ أن يغلقَه. كلّ واحدٍ سيمرُّ منه، حين تحين ساعته ويومه. تعلمين أنَّنا لا نستطيع أكثر من أن نتركه مشرعًا أمام أحبَّائنا ليطلُّوا منه على من غادروهم.

ألححتُ:

ـ هل لي أن أحاول مساعدته؟ إنَّه يحارب في سبيل قضيَّتنا النبيلة.

قهقهت أبِنا أمِّي:

ـ يا لكِ من منافقة! هل القضيَّة التي يناضل في سبيلها هي ما يهمّكِ؟

أغمضت عينيَّ في الظلام. كانت تُثيرني بصيرةُ أمِّي الرهيبة. وفضلًا عن ذلك، كنت ألوم نفسي. أَمَا كفاني ما فعله بي الرجال؟ أما تعبتُ من موكب الخيبات الذي يسير في ركْبِ العواطف؟ بالكاد عدتُ إلى باربادوس، وها أنا ذي أتهيَّأ لدخول مغامرات لا أعرف أيَّ منتهى ستنتهي. عصبةٌ من العبيد الآبقين لا أعرف عنهم شيئًا. نويتُ أن أسألَ ديوداتوس في شأن أصدقائه، واستسلمت للنوم.

طوتني زنابقُ الماء البيضاءُ الكبيرةُ في بتلاتها المطرَّزة، وما لبثت هيستر، ومتاهيبيل ويهُوديَّ أن شكَّلوا دائرةً حول سريري. في غمرة عواطفي وحنيني يختلط الأحياء والأموات.

يهُوديّ يبدو مطمئنًّا، يكاد يكون سعيدًا، وكأنَّما هناك في جزيرة رودس يستطيع أن يجاهر بالصلاة إلى ربِّه.

في لحظةٍ ما، وشوشتِ الأمطارُ خافتةً تبلِّل النباتات والأشجار والسقوف، فتذكَّرت الصورة المتباينة: صورة الأمطار الصقيعيَّة والعدائيَّة في الأرض التي تركتها خلفي. بلى، إنَّ الطبيعة تغيِّر لُغتها باختلاف السماوات فوقها، وبشكلٍ عجيبٍ، تتناغم لُغتُها ولغة البشر! حيث تسود الطبيعة القاسية يكون البشر قساةً؛ وحيثما تسود الطبيعةُ المضيافُ الرؤوم يُبدي البشر كلّ أشكال الكرم!

أولى لياليّ بجزيرتي!

موسيقى متواصلة يشكِّلها نقيق الضفادع وإناث العلاجيم، وزغردة طيور القمر، وقوقأة الطيور الدواجن وقد جفَّلتها النُّمُوسُ، ونهيق الحمير المربوطة إلى أشجارِ الكاليباسييه - شقائقِ الأرواحِ. وددتُ لو أنَّ النهار لا يطلعُ، وأن يمتدّ النومُ في الموت. خاطفةً، تبدَّت لي أيَّامي ببوسطن، بسالم، لكنَّها كانت تفقدُ تماسكها، كمثل أولئك الذين ساهموا في تسويدها بسواد قلوبهم: صامويل باريس والآخرون.

أولى لياليَّ!

الجزيرةُ تهمسُ بوشوشةٍ عذبة:

«لقد عادتْ. إنّها هنا، ابنة أبنا، ابنة مان يايا. لن تتركنا مرّةً أخرى».

لم أضع قطّ بحسباني إمكانَ تجاوز مان يايا في مجال القوى السحريَّة. لا بل لم أعتزم البتَّة أن أستغنيَ عن توجيهها، وكنت أعتبر نفسي طفلتها وتلميذتها. واأسفاه! ينبغي أن أعترف، مع ما في اعترافي من عارٍ، أنَّ طريقة النظر السابقة تغيَّرت، ووضع التلميذُ في رأسه منافسةَ المعلِّم. وفي نهاية المطاف، كان لديَّ ما أعتدُّ به. ألم أتمكَّن على جسر سفينة تبارك الربّ من أن أتحكَّم في العناصر، ولا شيء يُثبت لي أنَّني تمكَّنت من ذلك بمساعدةٍ خارجيَّة...!

صرت الآن أتعاطى تجاربَ من تلقاء نفسي، أجوب الريف المحيط، متسلِّحةً بسكِّين أجزُّ بها النباتات ومحمِلٍ واسعٍ ألمّ فيه ما جززتُه. وبالمثل، جاهدتُ لأعقد حوارًا جديدًا مع مياه الأنهار ونسيم الريح، سعيًا إلى كشف أسرارها.

النهرُ يجري صوب البحر كما تجري الحياة صوب الموت، ولا أحد يستطيع إيقاف مجراه. لماذا؟

الريح تهبُّ. أحيانًا تداعبُ. أحيانًا تدمِّر. لماذا؟

أكثرتُ من تقديم قرابين الفاكهة الطازجة، والأطعمة، والحيوانات الحيَّة، أضعها عند مفترقات الطرق، وعند جذور الأشجار المتشابكة، وفي المغارات الطبيعيَّة حيث تحبّ الأرواحُ أن تنعزل. ما دامت مان يايا تأبى أن تساعدني، فينبغي عليّ أن أعتمد على ذكائي وحدسي وحدهما. ينبغي

أن أصل بمفردي إلى تلك المعرفة الأسمى. فانطلقتُ أسألُ العبيد عن العرّافين الذين يعيشون في المزارع؛ أسأل رجالًا ونساءً، فيستقبلونني بأشدّ الحذر. أعلم أنَّ الساحرَ، والساحرة، لا يحبّ نشر معرفته. إنَّ السَّحَرة كالطبَّاخين الذين يرفضون الإفصاح عن وصفاتهم.

وذات يومٍ، عثرت على عرّاف، زنجيّ أشانتي مثل أمِّي أبِنا. بدأ الحديثَ معي بأن قصَّ عليَّ تفاصيلَ أسرِه في عرض أكوابيم بالساحل الإفريقيّ، بينما زوجته، وهي أيضًا من الأشانتي، لأنَّ العبيد الأفارقة يفضِّلون الارتباط تبعًا «لانتماءاتهم الإثنيَّة»، كانت تقشِّر الجذور لتعدّ منها العشاء.

ثم قال لي بنبرةٍ لا سبيل إلى وصفها:

. أين تُقيمين؟

تمتمتُ، إذ لم يكن يجدر بي أن أُفصح عن موضعِ مخيَّمِ العبيد الآبقين:

. من الجهة الأخرى للجبال.

فقال متهكِّمًا:

. ألستِ أنت تيتوبا؟ المرأة التي كاد البِيض أن يلفُّوا الحبل حول عنقها؟

أجبتُه إجابتي المعتادة:

. أنت تعلم قطعًا أنِّي لم أُذنب بشيء!

. للأسف! وأيُّ أسف!

حدَّقتُ فيه صامتةً، فواصل الكلام:

. لو أنَّني كنت مكانكِ، آه! كنت سأسحر الجميع: الأب والأمّ والأبناء والجيران... كنت سأُؤَلِّبهم بعضهم ضدّ بعضٍ، وأستمتع بمتابعتهم يمزِّقون بعضهم بعضًا. لن يكون عدد المتَّهمين مائةً وعدد المشنوقين عشرينَ. ماساتشوستس كلّها سترى الويل، وكنت سأدخل التاريخ تحت تسمية «شيطان سالم». أمَّا أنتِ، فأيُّ اسمٍ حملتِ؟

قهرني كلامه، لأنَّه ممَّا سبق أنْ جال بخاطري. لقد أسفتُ من قبلُ لأنِّي لم ألعب في القصَّة كلّها إلَّا دورَ كومبارس سرعان ما ستُنسى، ولن يهتمَّ لمصيرها أحد، «تيتوبا، عبدة تنحدر من باربادوس، وتمارس على الأرجح سحر «الهودو».» بضعة أسطر لا غير في المجلَّد الضخم الذي سيجمع أحداث ماساتشوسيتس. لِمَ سأُتجاهل على هذا النحو؟ هذا السؤال أيضًا عَبَر خاطري. ألِأنَّ لا أحد يهتمّ لمصير زنجيَّة، ولآلامها ومصائبها؟ ألذلك؟

بحثت عن قصَّتي بين قصص ساحرات سالم، فلم أجدها.

شهرَ أغسطس ١٧٠٦، وقفتْ آن بوتنام في وسْط

كنيسة سالم، واعترفت بخطايا طفولتها، آسفةً على ما خلَّفته من نتائج وخيمة: «أُريد أن أنبطح في التراب، وأطلب المغفرةَ من كلِّ أولئك الذين آذيتهم، أولئك الذين أُلقي القبض على والديْهم واتُّهموا».

ولم تكن الأولى ولا الأخيرة التي اعترفت بذنبها على الملأ؛ وأُعيد الاعتبار للضحايا، ضحيَّةً بعد أخرى. لكنْ لا أحد ذكر اسمي. «تيتوبا، عبدة تنحدر من باربادوس وتمارس على الأرجح سحر «الهودو».»

خفضت رأسي ولم أُجِر جوابًا. وكأنَّما قرأ العرَّاف ما يجول بنفسي، فلم يُرد أن يزيدني وجعًا على وجعٍ، فترفَّق في الكلام:

ـ الحياة ليستْ إناءً من عصير القنا، أليس كذلك؟

نهضتُ رافضةً شفقته:

ـ إنَّ الليل يهبط وعليَّ أن أعود.

بريقٌ من مكرٍ محا تعبيرَ الودّ الخاطف الذي كان قد أضاء عينيْه، وقال:

ـ ما تفكِّرين به مستحيل! أنسيتِ أنَّك على قيد الحياة؟

أخذتُ طريق العودة إلى معسكر العبيد الآبقين، وأنا ألوك عبارته في ذهني مرَّاتٍ ومرَّاتٍ. هل

يقصد أنَّ الموت وحدَه يفتح طريقَ المعرفة الأسمى؟ أنَّ الموت عتبةٌ لا مناصَّ لنا نحن الأحياء من تخطِّيها؟ أنَّني ينبغي أن أقنع بمعرفتي الناقصة؟

وحين كنت على وشك الخروج من المزرعة، اقتربتْ منِّي زمرةٌ من العبيد. ظننتهم مرضى، نساءً يردن خلطةً ما، أطفالًا يطلبون ضماداتٍ لجروحهم، رجالًا شقَّت أطرافهم المطاحنُ، إذ طبَّق الآفاقَ صيتي باعتباري امرأةً بارعةً في استخلاص أفضل ما في النباتات، وكان يكفي أن أبرُز ليجتمع حولي المرضى.

غير أنَّ الأمر كان يتعلَّق بشيءٍ مغايرٍ تمامًا.

ألقى إليَّ العبيد بهذه الكلمات:

- احذري، يا أمَّاه! لقد اجتمع المزارعون أمسِ مساءً. إنَّهم يريدون قتلك.

هويتُ من عليائي. أيُّ جرمٍ يتَّهمونني به؟ ما الذي فعلتُه مُذ وطئت قدمايَ الجزيرة، اللَّهمَّ إلَّا مداواة أولئك الذين لا يهتمّ لأمرهم أحد؟

بيَّن لي رجلٌ الأمرَ:

- يقولون إنَّكِ تنقلين رسائلَ بين عرَّافي المزارع، تعينهم على تخطيط انتفاضات، وبالتالي سينصبون لكِ فخًّا!

فزِعةً أكملتُ طريقي صوب المعسكر.

إنَّ من تابعوا قصَّتي حتى اللحظة، لا بدَّ وأن يستاؤوا. أيّ امرأةٍ هذه إذن التي لا تعرف الكراهية، والتي يُربكها دومًا الشرّ الذي تحمله قلوب البشر؟

للمرَّة الألف عزمتُ على أن أكون مختلفةً، أن أُبرز الأنياب والمخالب! آه.. أن أغيِّر قلبي! أن أصبغ جدرانه بِسُمِّ ثعبانٍ، أن أجعله وعاءً لعواطف قاسيةً مُرَّة، أن أحبَّ الشرّ! بدلًا من كلِّ ذلك، لستُ أحسّ فيَّ إلَّا رقَّةً وشفقةً تجاه المظلومين، وثورةً تجاه الظلم!

كانت الشمس تغرب خلف ؟ارلي هيلز. وأغنيةُ الحشراتِ الليليَّة العنيدةُ بدأتْ تتصاعد صوب السماء. قطيع العبيد الفوضويّ يصعد باتِّجاه دروب الأكواخ، بينما المشرفون يمضون على صهواتِ جيادهم خببًا، متعجِّلين شربَ كأسهم «الصِّرف» وهم يتأرجحون في ؟رنداتهم إلى الأمام والخلف. وحين رأوني، فرقعوا سياطهم في الهواء، كأنَّما يتلهَّفون على استخدامها ضدِّي. غير أن لا أحد منهم جرؤ على الاقتراب.

بلغتُ المعسكر وقد هبط الليل.

تحت ستار أشجار البمبقاويَّة السميك، كانت النساء يدخِّنَّ قطعًا من اللَّحم دُهنت مسبقًا بالليمون والتابل ونُسِّمَت بأوراق القرنفل. نظرت إليَّ رفيقتنا

كريستوفر شزرًا، إذ كانتا تتساءلان عمًّا جرى بيني وبينَ رجلهما. في العادة، كنت لأشفق على شبابهما، وأُعاهد نفسي على أن لا أجرحهما. لكنْ ذلك المساء، لم أُعرهما أيَّة نظرة.

كان كريستوفر في كوخه يلفّ سيجارةً من أوراق التبغ، النبتة التي تزدهر في الجزيرة وتصنع ثروةَ بعض المزارعين.

قال ساخرًا:

. أين تسكَّعتِ، مجدَّدًا، طول النهار؟ أهكذا تأملين في إيجاد جوابٍ لمطلوبي؟

هززتُ كتفيَّ:

. استقصيتُ الأمر عند أُناسٍ أعلمَ منِّي، وكلّهم يردِّدون الشيء نفسَه:

. لا مناصّ من الموت. من بابه، لا بدَّ من أن يمرّ الجميع: الغنيّ والفقير، السيِّد والعبد. لكنْ، اصغِ إليَّ بالأحرى: لقد أدركتُ متأخِّرة أنَّ عليَّ أن أصير امرأةً أخرى، امرأةً مغايرةً تمامًا. دعني أحارب البِيض معك!

استلقى على قفاه ضاحكًا، واختلط صدى ابتهاجه بدخان سيجاره:

. تُحاربين؟ رويدكِ! إنَّ واجب النساء يا تيتوبا، ليس القتال، ليس ممارسة الحرب وإنَّما ممارسة الحبّ!

طوال بضعة أسابيع، كانت العذوبة تطبع كلّ شيء.

على الرَّغم من تحذيرات العبيد، لم أكفّ عن الهبوط إلى المزارع. كنت أختار ساعة الغروب، الساعة التي تبسط فيها الأرواحُ يديْها على الفضاء. وعلى الرَّغم من غضب مان يايا وأبِنا أمِّي من إقامتي في ؟ارلي هيلز، إلَّا أنَّهما لم تقطعا زياراتهما اليوميَّة إليَّ، وكانتا ترافقانني على امتداد الطرق الوعرة التي تمضي متعرِّجة عبر الحقول. لم أكن أُعير توبيخهما اهتمامًا:

. ما الذي تفعلينه بين العبيد الآبقين؟ إنَّهم زنوجٌ سيِّئون، لا يفكِّرون إلَّا في السرقة والقتل!

. إنَّهم جاحدون، لقد تركوا أمَّهاتهم وإخوانهم في العبوديَّة، بينما استعادوا هم حرِّيَّتهم!

فيمَ يُفيد النقاشُ؟

عشتُ سعادةً بالغةً تلك الأيَّام! أعدتُ إلى الحياة طفلةً صغيرةً، بالكاد خرجت من ظلّ أمِّها. كانت متردِّدةً، لم تجتز بعدُ بابَ الموت، تنتظر في البهو المظلم الذي يُتحَضَّرُ فيه الرحيلُ. أمسكتُ بها دافئةً، مغطَّاةً بالسوائل اللزجة والفضلات، وبرفقٍ، وضعتُها على نهد أمِّها. أيّ تعبير ذاك الذي أضاءَ وجه المرأة!

ما أعجب الأمومة!

ولأوَّل مرَّةٍ، تساءلتُ عمَّا إذا كان طفلي، الذي حرمْتُه الحياةَ، ليهبَ وجوديَ، على الرَّغم من كلِّ شيءٍ، طعمًا ومعنًى!

هل أخطأنا يا هيستر؟ هل كان حريًّا بك العيش مع طفلتك بدلًا من الموت معها؟

اعتاد كريستوفر قضاء الليل في كوخي. لا أدري حقًّا كيف بدأت هذه المغامرة الجديدة. نظرةٌ أطول من اللازم. توقُّد الشهوة. رغبتي في أن أبرهن لنفسي أنَّني لم أتضعضع بعدُ، لم يُتخلَّ عنِّي كمطيَّةٍ ناءت بأحمالها؟ لكنْ هل أحتاج إلى أن أبيِّنَ؟ لم يكن ما يجري يعني إلَّا حواسِّي. كلّ ما عدا ذلك كان مُلكًا لجون الهنديّ الذي، ويا للمفارقة، لم أنفكَّ أفكِّر فيه كلّ يومٍ أكثر من الذي سبقه.

زنجيَّ المنفوخ بالرِّيح والسفاهة، كما وصفْتُه فيما مضى مان يايا! زنجيَّ الغدَّار الجبان!

حين كان كريستوفر ينقضُّ على جسدي، كانت روحي تسافرُ مسترجعةً ملذَّاتِ لياليَّ الأميركيَّة. في الليل يَتَضَامُّ الشتاءُ والبردُ. أنصتوا إلى عوائهما الطويل! وإلى خبب أقدامهما على الأرض المتصلِّبة من الصقيع!

[أمَّا] أنا وزنجيَّ، فلسنا نسمع شيئًا لأنَّنا في الحبِّ نختنق. صامويل باريس، مزرَّرًا بالسواد من رأسه

إلى قدميْه، يتلو صلواته. أنصتوا إلى الابتهال القاسي يخرج من فمه:

«أغزَرُ من شعر رأسي عددًا

أولئكَ الذين يكرهونني بلا سبب!

أقوياء هم أولئك الذين يسعونَ

في هلاكي...»

[أمَّا] أنا وزنجيَّ فلا نسمع شيئًا، لأنّنا في الحبِّ نفنى.

شيئًا فشيئًا، أخذ كريستوفر الذي استولى عليَّ في هدوءٍ، يثق فيَّ:

ـ في الواقع لسنا كُثُرًا، وتحديدًا لسنا مسلَّحين بما يكفي لكي نهاجم البِيض. نصف دستةٍ من البنادقِ وهراواتٌ، هذا كلّ ما نملكه من سلاحٍ. لذا، نحن في خوفٍ دائمٍ من أن يُهجمَ علينا. هذه هي الحقيقة!

أجبته وقد شعرتُ بخيبة:

ـ ألهذا تريدني أن أصيِّركَ لا تُقهرُ؟

مسَّته نبرةُ السخرية في صوتي، فاستدار صوبَ الفاصل قائلًا:

ـ سيَّان إن تمكَّنت من ذلك أو لم تتمكَّني. في جميع الأحوال، سأكون خالدًا... تصلني من الآن أغاني زنوج المزارع...

ثم دندن بصوته الجميل أغنيةً ألَّفها بنفسه يفخر فيها بعظمته. لمستُ كتفه:

ـ وأنا؟ هل هناك أغنيةٌ فيَّ؟ أغنيةٌ في تيتوبا؟

تظاهر بأنَّه يتسمَّعُ في الليل، ثم قال مؤكِّدًا:

ـ كلَّا، ما من أغنية!

ثم انخرط في الشخير. وحاولت أن أفعل مثله.

حينما لا أكون منهمكةً في علاج عبيد المزارع، أختلط بنساء العبيد الآبقين. في البداية، كنَّ يعاملنني باحترامٍ بالغ. لكنْ حين علمن أنَّني أُشارك كريستوفر الفراش، وعرفن أنَّني، في المحصِّلة، لم أُصنع من طبيعةٍ مخالفةٍ لطبيعتهنَّ، ناصبنَني العداءَ. ثم أخلى العداء مكانَه لتعبيرِ تضامنٍ بارد. ثمّ، إنَّهنَّ كنَّ بحاجةٍ إليَّ. فهذه تحتاجني لتملأ فراغ ثديها بالحليب؛ وتلك لمداواة الآلام التي لم تُبارحها منذ ولادتها الأخيرة. وكنت أصغي إليهنَّ يتكلَّمن، واجدةً في أحاديثهنَّ تسليةً ومتعةً ومرحًا:

ـ في قديم الزمان، حين كان الشيطان ما يزال يرتدي سروالًا قصيرًا خشنًا ومنشًّى، لم يكن يعمر الأرضَ غيرُ النساء. كنَّ يشتغلن جماعةً،

ينمن جماعةً، يستحممن جماعةً في مياه النهر. وذات يومٍ جمعتْ إحداهنَّ الأخريات، وقالت لهنّ: «أخواتي، حين سنرحل من هذا العالم، من سيخلُفنا؟ إنَّنا لم نخلق أحدًا على صورتنا!» هزَّت المستمعات أكتافهنَّ: «وفيمَ نحتاجُ من يخلفنا»؟ على أنَّ بعضهنَّ شاطرنها الرأي في ضرورة الاستخلاف: «في غيابنا، من سيزرع الأرض؟ ستذهبُ سدًى، ولن تحمل ثمارًا»! ثم انطلقن جميعًا يلتمسن السبل للتناسل، وهكذا استدعين الرجُل!

ضحكت معهنَّ.

. لِمَ الرجالُ هكذا؟

. أمَّاه، لو فقط علمنا!

أحيانًا كنَّا نتبادل الأحاجي:

. ما الدواء لسواد الليل؟

. الشمعة.

. ما الدواء لصهد النّار؟

. ماء النهر.

. ما الدواء لمرارة الحياة؟

. الطفل!

وأسِفنَ لحالي أنا التي لم أنجب قطّ. ومن الأسف، انتقلن إلى السؤال:

ـ حين أرسلكِ قضاةُ سالم إلى السجن، ألم يكن بمقدورك أن تغيِّري هيئتك، أن تتحوَّلي إلى فأرٍ مثلًا، وتفرِّي من بين خشبتيْن متباعدتيْن؟ أو إلى ثورٍ هائجٍ يضربهم جميعًا بقرونه؟

هززت كتفيّ، ومرَّةً أخرى كان عليَّ أن أبيِّن أنَّهنَّ يخطئن تقدير قوايَ، ويبالغن فيها. وذات مساء، سار الحوار بعيدًا، فاضطررت إلى أن أُدافع عن نفسي:

ـ لو كنت قادرةً على كلّ شيء، ألم أكن لأحرِّركنَّ؟ أما كنتُ لأمسح عن وجوهكنَّ هذه التشقُّقات؟ أما كنتُ لأبدِّلكنَّ خيرًا من هذا الحطامِ في لثَّاتِكنَّ، أسنانًا سليمةً برَّاقة كاللؤلؤ؟

وإذ ظلَّت وجوههنَّ محبطةً متشكِّكة، هززتُ كتفيَّ:

ـ صدِّقنَني، لستُ ذاتَ شأن!

هل علَّقن على كلامي؟ هل شوَّهنَه؟ هل أسأن تأويلَه؟

الحالُ، أنَّ كريستوفر قد تغيَّر من جهتي. صار يدخل إلى كوخي متستِّرًا بظلام الليل، ويضاجعني من دون أن ينزع ملابسه، ممَّا أعاد إلى ذهني

شكوى إليزابيث باريس: «لو تعلمين يا عزيزتي تيتوبا! إنَّه يجامعني من دون أن ينزع ملابسه أو ينظر إليّ»!

حين كنت أحاول أن أسأله عن برنامج يومه، كان يُجيبني بهمهمات مستاءة.

. يُقال إنَّكم تحضِّرون مع عبيد سان جيمس انتفاضةً شاملة؟

. أقفلي فمك يا امرأة!

. يُقال إنَّكم قد تمكَّنتم من الاستيلاء، بغتةً، على عددٍ من البنادق بعد أن هاجمتم مخزنًا للذخيرة بوايلدي؟

. ألا يمكن أن تريحي أذنيَّ لحظةً يا امرأة؟

إلى أن رماني ذات مساءٍ بهذا الكلام:

. لستِ إذن إلَّا زنجيَّةً عاديَّةً، ومع ذلك، تريدين منَّا أن نعاملكِ معاملةَ امرأةٍ رفيعة؟

أدركت أنَّ عليَّ الرحيل، أنَّ وجودي لم يعد مرغوبًا فيه.

مع مطلع النهار، ناديتُ مان يايا، وأبِنا أمِّي، اللتيْن لم تظهرا منذ أيَّامٍ، كأنَّما كانتا ترفضان أن تشهدا هزيمتي. صلَّيت لهما لكي تأتيا. وحين صارتا بقربي، مالئتيْن الكوخ بأريج الجوّافة والقرنفل،

حدَّقتا فيّ بعينيْن يملأهما العتابُ:

ـ شاب شعركِ وما تعلَّمتِ بعدُ الاستغناءَ عن الرجال؟

لم أحر جوابًا. وبعد برهةٍ، قرَّرتُ أن أنظر فيهما وجهًا لوجه:

ـ أريد أن أعود إلى بيتنا!

الغريب أنَّ النساءَ، ساعة رحيلي، تجمَّعنَ وبدا عليهنَّ الحزنُ. أعطينَني دجاجةً نتفن ريشها ونظَّفن أحشاءها، والقليل من الفواكه، ومنديل مادراس مزيَّنًا بمربَّعاتٍ سمراء وسوداء. ورافقنني حتى سياج سان ـ دراغون، بينما كريستوفر، متظاهرًا بعقد اجتماعٍ في كوخه مع رجاله، لم يكلِّف نفسه حتى عناء الوقوف عند عتبة الباب.

وجدتُ كوخي كما كنت قد تركتُه. بالكاد تضعضع قليلًا. بالكاد تعفَّن قليلًا تحت سقفه الشبيه بغطاءٍ نباتيّ سيِّء التوزيع. شجيرةٌ من فصيلة بنت القنصل تبرزُ بلونها الدامي على ارتفاع النافذة. وجفل، بصياحٍ شاكٍ، طائِرا قمريّ كانا قد بنيا عشّهما بين عارضتيْن نخرهُما سوسُ الخشب. فتحتُ البابَ المزدوجَ. تراكضت قوارضُ فاجأها دخولي.

احتفل الزنوجُ برجوعي الذي علموا به بطريقةٍ غامضة. مرَّةً أخرى، انتقلت ملكيَّةُ المزرعة إلى

يدٍ جديدة. كانت في البداية تُدار من طرف رجلٍ غير متواجدٍ فيها، يكتفي بأن يحوِّلَ الأرباح التي ما انفكَّ يراها غير كافية. واشتراها حديثًا رجلٌ يُدعى إيرين، واستقدم من إنجلترا وسائل متطوِّرة، يسعى بواسطتها إلى أن يغتني في أقصر الآماد.

أتاني العبيد بعِجْلة اختلسوها، على الرَّغم من رُعبهم، من وسْط قطيع سيِّدهم، عِجْلة كان على جبهتها مثلَّثٌ من شعرٍ أسود، كأنَّما هو علامةٌ على أنَّها منذورة.

قدَّمتُها قربانًا، قبيل الفجر بقليل، وتركتُ الدم يخضِّب الأرض التي كانت تدانيه احمرارًا. وبعد ذلك، انطلقت إلى العمل بلا إبطاءٍ. أنشأتُ حديقةً زرعتها بصنوف النبات التي أحتاجها في صَنْعَتي، ولم أكن أخشى التوغُّلَ في أبعدِ الأماكنِ وأوْحشها التماسًا لمطلوبي. وموازاةً مع ذلك، أنشأتُ بستانًا للخضراوات، وما لبث العبيد أن صاروا يأتون، بعد الفراغ من أعمالهم، ليعزقوه وينقُّوه من الأعشاب الضارَّة، ويعتنوا به. وكانوا يجتهدون جدًّا في أن يأتوني بما أزرعه، فهذا يحمل إليَّ بذورَ طماطم أو باميا، وذاك شتلة ليمون. وانطلقوا جماعةً يبحثون لي عن نباتات اليام، وما لبثت سيقانها أن ارتفعت وصارت الكروم الشرهةُ تتسلَّقها. ولمَّا تمكَّنت من الحصول على دجاجاتٍ وديك مشاكسٍ مقاتلٍ، لم أعد أحتاج شيئًا.

كان برنامجي اليوميّ بسيطًا. أستيقظ فجرًا،

أصلّي، أنزل إلى نهر أرموند لأغتسل، أتناول طعامي واقفةً، ثم أنصرف إلى أبحاثي وعِلاجاتي. في تلك الحقبة، كانت الكوليرا والجدري يضربان المزارع بانتظامٍ، فيطرحان أرضًا عددًا من الزنوج والزنجيّات. اكتشفت كيف أعالج ذينك المرضيْن. واكتشفت أيضًا كيف أعالج الدّاء العليقيّ، وأبرئ الجراح التي يُصاب بها أبناء جلدتي كلّ يومٍ. تمكّنت من رتق جروح الأجساد. من جبر كسور العظام وترقيع الأطراف. وكلّ ذلك طبعًا، بمساعدةٍ من لامرئيّي الذين ما عادوا يفارقونني. ما عدتُ أُلاحق الأوهامَ: أن أصيِّر البشر خالدين لا يُقهرون. تقبّلتُ شرطَ النوع.

قد يندهش المرء من أنّني، في تلك الأزمنة التي كانت تدوّي فيها السياطُ أعلى من أكتافنا، كنت أنعم أنا بذاك القَدْر من الفرح والحرّيّة والسلام. ذاك أنَّ لبلادنا وجهيْن. وجهٌ تجوبه عصيُّ السادة وخيولُ رجالِ شُرطتهم، مسلّحين بالبنادق، تتبعهم الكلاب النبّاحةُ المهتاجة؛ ووجهٌ ثانٍ غامضٌ وخفيٌّ، عالمٌ قوامه كلماتُ السرِّ والنصائحُ المهموسة والمؤامرات في الصمت. وهذا الوجه الثاني هو الذي كنت أعيش فيه أنا، محميَّةً بتواطؤٍ من الجميع. لقد أنْمَت مان يايا غطاءً نباتيًّا كثيفًا حول كوخي. فصرتُ كأنّما أسكن قلعةً منيعة. ما كانت العيْنُ غير الدَّرِبة لتميِّز في المكان سوى فوضى متشابكةٍ من أغصان الجوّافة، والسرخس، والبلوميريا، تتخلّله هنا وهناك أزهارُ الخبّازي الأرجوانيّة.

ذات يومٍ، اكتشفتُ أُركيدةً عند الجذور المزبدة لنبتة سرخسٍ. فعمَّدتُها باسم «هيستر».

- 14 -

مرَّت بضعة أسابيع مُذ عدتُ إلى دياري، أسابيع قضيتها موزَّعةً بين أبحاثي في النبات وعلاج العبيد، حتى اكتشفت أنِّي حامل. حامل!

ردُّ فعلي الأوَّل كان عدمَ التصديق. ألم أكن امرأةً عجوزًا بثدييَّ المترهِّليْن المتدلِّيَيْن على قفصي الصدريّ ومعدتي المنفوخة؟ غير أنَّه كان لزامًا عليَّ الانصياع للبداهة. ما عجِز عنه حبٌّ يهوديٍّ فعلتْه ضمَّةُ كريستوفر الفظَّة. علينا الاعتراف: هذا الطفل ليس ثمرة الحبّ، وإنَّما الصدفة.

وحين أعلمت مان يايا وأبِنا أمِّي بوضعي، ظلَّتا تتهرَّبان، مكتفيَتيْن بهذه التعاليق:

- وإذن، هذه المرَّة لن تستطيعي التخلُّص منه!

- طبيعتُكِ نطقت!

علَّقتُ تحفُّظَهُما على مِشجب النُّفور الذي شعرتا به تجاه كريستوفر، ولم أعد أهتمّ إلَّا لأمري. ذاك أنِّي ما إن تجاوزت لحظاتِ الشكّ والذهول الأولى، حتى استسلمتُ إلى موج السعادة يلفُّني، ويغمرني، ويُغرقني. نشوانةً كنتُ. صارت أفعالي الآن كلُّها محكومةً بقطعة الحياة التي أحملها في أحشائي. كنت أتغذَّى على الفواكه الطازجة، وحليبِ عنزةٍ بيضاء، وبيضِ دجاجاتٍ تتغذَّى على حبوب الذرة. وأغسل عينيَّ بماءٍ أغلي فيه حشيشةَ الملاعق كي أضمن للكائنِ الصغيرِ حدَّةَ

النظر. وكنتُ أغسل شعري بعصيدة حبوبِ الكراباتِ حتى يكون شعرُه أسودَ برّاقًا. وكنت أستلقي تحت أشجار المانغا غارقةً في قيلولاتٍ طويلةٍ وثقيلة. وفي الآن نفسه، كان طفلي يجعلني متأهِّبةً للقتال. كنت على يقينٍ من أنَّها طفلةٌ بنت! أيّ مصيرٍ ينتظرها؟ مصير إخواني وأخواتي العبيد الذين أهلكتهم ظروفهم وعملهم؟ أم مصيرًا شبيهًا بمصيري أنا، منبوذةً، مجبرةً على العيش منفيَّةً وسط غِياضٍ؟

كلَّا، إن كان العالم يريد استقبال طفلتي، فليتغيَّر!

في لحظةٍ ما، استهواني الرجوع إلى كريستوفر ب؟ارلي هيلز، لا لأُعلمه بحالي التي لن يهتمّ لأمرها قطعًا، وإنَّما لكي أحاول دفعه إلى التحرُّك. كنتُ أعلم أنَّ صِغرَ مساحةِ جزيرتنا، باربادوس، كان يثبِّط عددًا من المزارعين، فيرحلون بحثًا عن أراضٍ أوسعَ وأنسبَ لطموحاتهم. كانوا يتَّجهون تحديدًا صوب جامايكا التي انتزعها الجيش الإنجليزيّ من الإسبان. من يدري! لعلَّنا إن قذفنا في نفوسهم الرعب، قد نتمكَّنُ من تسريع رحيلهم، والدفع بهم جماعاتٍ صوبَ البحر! لكنِّي ما لبثتُ أن ضربتُ صفحًا عن الفكرة، إذ تذكَّرت اعترافه الجبان أمامي بالضعف. قرَّرت ألَّا أعتمد إلَّا على نفسي. لكنْ كيف؟

ضاعفتُ الصلواتِ والقرابين، آملةً في أن يجود عليَّ الغيبُ بإشارةٍ. لكنْ لا شيء. حاولتُ أن أستدرج مان يايا وأبِنا أمِّي في لحظات غفلتهما.

لكنْ عبثًا.

كانت الداهيتان تفلتان دومًا مجيبتيْن إجابات مواربة:

ـ من يريد أن يعرف سبب زرقة البحر، لا بدَّ من أن تغمره الأمواج.

ـ الشمسُ تحرق أجنحةَ المتبجِّح الذي يريد الاقتراب منها.

ظللتُ في موقفي ذاك، إلى أن حمل إليَّ العبيد يومًا فتًى تركتهُ سياطُ المشرفين في حالِ الموت. جُلدَ ٢٥٠ جلدةً على قدميْه وإليته وظهره، ولم يستطع جسدُه مقاومتها لما أصابه من وهنٍ في السجن ـ إذ كان فتًى وقحًا، لا يرعوي، زنجيًّا عنيدًا عجزوا عن تطويعه. حمله العبيد من أخدودٍ شُقَّ في حقل ثُمامٍ، وإذ لاحظوا أنَّه كان ما يزال يتحرَّك، قرَّروا اللجوء إليَّ.

مدّدتُ إفيجين (كذا كان اسمه) على فراشٍ في ركنٍ من غرفتي، كي لا تفلت منِّي أيُّ أنَّة يُصدرها. حضَّرت لجراحه كمَّادات وضمَّادات. وكنت أضع على تلك التي يُصيبها الالتهاب قطَعًا من أكباد الحيواناتِ نيئةً، حتى أخلِّصها من القيح والدم الفاسد. بلا كللٍ كنت أغيِّر الكمَّادات فوق جبينه، وتوغَّلتُ حتى أعماق كودرينغتون كي أجمع لعابَ علاجيم القصب التي كانت تحبّ تلك الأرض السمراء النديَّة، ولا تتوالد خارجها.

بعد أربعٍ وعشرين ساعةً من العناية المكثَّفة، كوفئتُ: فتح إفيجين عينيْه. وفي اليوم الثالث، تكلَّم:

. أمّاه! أمّاه! ها أنتِ ذي قد عُدتِ، كنتُ أظنّك رحلتِ للأبد.

أمسكتُ بيده المحمومة وقد شاهَت وتصلَّبَت:

. أنا لستُ أمّك يا إيفيجين. لكنْ أتمنَّى أن تكلِّمني عنها.

اتَّسعت عيْنا إيفيجين كي ترياني على نحوٍ أفضل، ثم إذ أدرك خطأَه، عاد يستلقي موجوعًا:

. شهدتُ موتَ أمِّي وعمري ثلاثة أعوامٍ. كانت إحدى نساء تي ـ نويل، إذ كان له العديد من النساء منثوراتٍ على امتداد المزارع، عُهِدَ إليهنَّ بالعناية بنسله. نسله من الذكور. ومن نسله خرجتُ. ربَّتني أمِّي بتفانٍ. واأسفاه.. لشقاء أمِّي! كانت جميلةً. ذات يومٍ، في طريق عودتها من المطحنة ـ وعلى الرَّغم من العرق على جسمها، وأسمالها، انتبه إلى جمالها السيِّد إدوارد داشبي، فأمر مشرف العبيد بأن يأتيه بها مع هبوط الليل. لا أدري ما الذي حدث حين صارت أمامَه. على أيِّ حالٍ، غداةَ ذلك، جُمع العبيد في دائرةٍ وجُلدت أمّي وسطهم حتى الموت!

ما أشبه قصَّته بقصَّتي! من ثَم ازدادت العاطفة

التي أحملها تجاهه، إذ وجدَتْ قاعدةً مشروعةً لها. بدوري، حكيت له قصَّتي التي كان يعرف منها نُتفًا، إذ كنت مشهورةً أكثر ممَّا أظنُّ، كنت أسطورةً بين العبيد. حين بلغتُ فصلَ الحريق بمنزل بنيامين كوهين أزيفيدو، قاطعني مقطِّبًا حاجبيْه:

. لكن، لماذا؟ أليس رجلًا أبيضَ مثلهم؟

. قطعًا!

. هل هم لهذه الدرجة بحاجةٍ إلى الكراهية حتى يكرهوا بعضهم بعضًا؟

حاولت أن أشرح له ما تعلَّمته من دروسٍ على يد بنيامين ومتاهيبيل فيما يخصّ دينهم واختلافاتهم مع الجنتايل (34). غير أن لا إيفيجين ولا أنا استطعنا فهم الكثير.

شيئًا فشيئًا، تمكَّن إيفيجين من الجلوس على فراشه، والقيام منه. ثم ما لبث أن خطا بضع خطواتٍ خارج الكوخ. وكان أوَّل ما قام به إصلاح باب المدخل الذي كان ينغلق بشكلٍ سيِّءٍ، وأتاني يقول بنبرةٍ جريئة:

. أوَّاه، كنتِ فعلًا بحاجة إلى رجلٍ بقربك!

أمسكت عن القهقهة لفرط ما بدا لي مقتنعًا بكلامه. ما أجمله من فتى زنجيٍّ، إيفيجين! وجهٌ بيضاويٌّ مثاليٌّ الاستدارة، تحت شعرٍ أسود كثيفٍ

ومفلفل. صدغان عاليان، فمٌ أرجوانيٌّ غليظٌ، كأنَّما يتأهَّب لتقبيل العالم، لو فكَّر العالم في تقبيله بدلًا من صدِّه! الندوبُ على صدره وجذعه تبدو علامةً دائمةً على قسوة العالم. لذا، كلَّما فركتُ جسده ببلسم النخيل، امتلأ قلبي غضبًا وثورةً.

وذات يومٍ، لم أستطع أن أكتم ما في نفسي:

. إيفيجين، لا بدَّ من أنَّك قد انتبهت إلى أنِّي أحمل طفلًا؟

خفض عينيْه بوقار:

. لم أجرؤ على مفاتحتكِ في الأمر!

. أصغِ إليَّ، إنَّني أحلم بأن تفتح ابنتي عينيْها على نورِ شمسٍ مغايرةٍ.

ظلَّ صامتًا برهةً كأنَّما يزنُ ثقلَ كلامي. ثم هرع صوبي وجثا بجانبي في جلسةٍ محبَّبة إليه:

. أمَّاه، أعلم مزرعةً مزرعةً أسماءَ جميع من سيتبعوننا. لا نحتاج إلَّا كلمة.

. لا نملك أسلحةً.

. النار يا أُمَّاه، النار المجيدة! النار التي تلتهم وتفحِّم!

. ما الذي سنفعله حين نطردهم إلى البحر؟ من

سيحكم؟

ـ أُفّاه، لقد أفرط البِيضُ في إفسادكِ: صرتِ تبالغين في التفكير. لنطردهم أوَّلًا!

وفي الظهيرة، حينَ عودتي من حمّاميَ اليوميَّ في نهر أورموند، وجدتُ إيفيجين يتحدَّث وفتيَيْن في سنِّه، وكانا بوساليِّيْن، ظننتهما من الناغو. غير أنِّي لم أتعرَّف في كلامهما على نبرة لغة مان يايا، وأخبرني إيفيجين أنَّهما من الموندونغ، أتيا من منطقةٍ جبليَّةٍ ومعتادَيْن على خدائع الغابة كلّها.

ـ إنَّهما قائدا حربٍ فعليَّيْن. مستعدَّيْن للنصر أو الموت.

عليَّ أن أعترف بأنَّه ما إن عُبِّرَ عن فكرة الثورة العامَّة، وحازت اتِّفاقًا ضمنيًّا، حتى انقطع إيفيجين عنِّي. تركته يتصرَّف بمفرده، مستسلمةً إلى كسل الحمْل اللذيذ، مداعبةً بطني التي ما فتأت تعظمُ وتزداد تكوُّرًا، ومنشدةً أغانيَ لطفلتي. كانت ثمَّة ترنيمةٌ تحبُّها أبِنا أمّي، وقد استرجعتْها ذاكرتي:

«هناك بالأعلى، في الغابة،

ثمَّة كوخٌ صغير!

لا أحد يعلم ما فيه

لا أحد يعلم من يسكن هناك.

هو زومبيّ من كالندا

يحبُّ كثيرًا الخنازيرَ السمينة»

ما لبثتُ أن شهدتُ إيفيجين يراكم مشاعلَ من خشب الجوَّافة تعلوها نِسالةٌ من خيوط.

بيَّن لي:

ـ كلّ رجلٍ من رجالنا سيحملُ في يده مشعلًا، وسنضرمُ النيران جميعًا في اللحظة نفسها، ثم نتلاقى عند المساكن. آه! أيّ نيرانٍ احتفاليَّة ستكون!

خفضت رأسي، وقلت بنبرةِ أسًى:

ـ الأطفال أيضًا سيموتون؟ الأطفال الذين لم يُفطموا بعد؟ الأطفال ذوو الأسنان الحليبيَّة؟ والفتيات في مقتبل العمر؟

التفَّ حول نفسه لفرط ما به من غضب:

ـ لقد أخبرتني بنفسِكِ. هل أشفقوا لحال دوركاس غود؟ هل رحموا أطفال بنيامين كوهين أزيفيدو؟

خفضتُ رأسي أكثرَ، وهمست:

ـ هل ينبغي أن نصير مثلهم؟

ابتعد بخطًى حثيثةٍ من دون أن يُجيبني.

ناديتُ مان يايا فلبَّت النداءَ، وقرفصَت بين أغصان شجرة كاليباسييه. قلت متلهِّفةً:

ـ تعرفين ماذا نحضِّرُ. لكنْ ها أنا ذي في لحظةِ الحسم أتذكَّرُ كلامك إليَّ حين أردتُ الانتقام من سوزانا إنديكوت: «لا تفسدي قلبك. لا تصيري مثلهم!» أهذا ثمنُ الحرِّيَّة؟

لكن بدلًا من أن تُجيبني مان يايا بالجدِّيَّة التي كنت أنتظرها، أخذت تقفز من غصنٍ إلى غصن. وحين بلغتْ ذُروة الشجرة، ألقت إليَّ بهذه العبارة:

ـ تتحدَّثين عن الحرِّيَّة. هل تعرفين على الأقلِّ ما هي؟

ثم رحلتْ قبل أن أجد الوقت لأسألها أسئلةً أخرى. تصوَّرتُ أيّ مزاجٍ هي فيه. هل ينبغي أن تُعيد عليَّ الكلام نفسه كلَّما وجدتْ بقربي رجلًا؟ حتى لو كان مجرَّد طفل؟ لماذا تُريدني أن أعيش حياتي في وحدة؟ خلصتُ إلى قرار أن أتجنَّب النصح، وأترك إيفيجين يتصرَّف بحرِّيَّة. وذات مساءٍ، أتى يجلس بقربي:

ـ أُمَّاه، ينبغي أن ترجعي إلى معسكر العبيد الآبقين. ينبغي أن ترَي كريستوفر!

انتفضتُ:

. أبدًا، أبدًا لن أفعل!

ألحَّ بعنادٍ واحترامٍ في آنٍ:

. ينبغي أن تفعلي يا أُمَّاه! أنتِ لا تعرفين حقيقة العبيد الآبقين. ثمَّة ميثاقٌ ضمنيّ بينهم وبين السادة. لكي ينعموا بحرِّيَّتهم الزائفة ينبغي أن يفضحوا أيّ محاولةٍ للتمرُّد في الجزيرة. لذا، لديهم أعينٌ مبثوثة في كلِّ مكان. وحدَكِ تستطيعين تطويع كريستوفر.

هززتُ كتفيَّ:

. هل تظنُّ ذلك؟

سألني بانزعاجٍ:

. أليس هذا الذي في بطنك ابنه؟

لم أحر جوابًا.

على أنِّي أدركت وجاهةَ ملاحظاتِهِ، فسلكتُ مجدَّدًا طريق ؟ارلي هيلز.

. هل وعدك بعدم التدخُّل؟

. وعدني.

. وهل بدا صادقًا.

ـ بقدر ما استطعت أن أحكم! في نهاية المطاف، أنا لا أعرفه حقّ المعرفة.

ـ تحملين طفلَ الرجل وتقولين إنَّكِ لا تعرفينه؟

شاعرةً بالخِزْي، لم أفُه بكلمة.

نهض إيفيجين:

ـ لقد قرَّرنا الهجوم خلال أربعة أيَّام!

أجبته محتجَّةً:

ـ خلال أربعة أيَّام! لِمَ هذه العجلة؟ دعني على الأقلِّ أسأل الغيبَ رأيَه، لأعرف الوقت المناسب للهجوم!

ضحك ضحكةً سرعان ما انتقل صداها إلى ضبَّاطه، فضحكوا جميعًا في جوقٍ. قال:

ـ حتى هذه اللحظة، لم يعاملْك الغيبُ أفضلَ معاملةٍ. وإلَّا لما كنت لتكوني هنا حيث أنتِ الآن. الليلة التي اخترناها ليلةٌ مناسبة، لأنَّ القمر سيكون في أوَّل منازله، وبالتالي، لن يبزغ قبل منتصف الليل. سيوفِّر الأمرُ لرجالنا سترًا. وفي لحظةٍ واحدة، سيطلقون الشررَ، ثم يسيرون جميعًا صوب المساكن.

تلك الليلة رأيتُ حلمًا.

مثل ثلاثة طيورٍ جوارح، دخلَ رجالٌ إلى غرفتي. كانوا قد وضعوا على رؤوسهم طواقيَ تغطّي وجوههم بالكامل. وعلى الرَّغم من ذلك، كنت أعرف أنَّ أحدهم صامويل باريس، والثاني جون الهنديّ، والثالث كريستوفر. دنوا منّي حاملين عصًا صلبةً رأسُها حادٌّ، وكنت أصرخُ:

. كلَّا، كلَّا! ألم أعش كلّ هذا من قبل؟

من دون أن يعيروا صرخاتي اهتمامًا، رفعوا تنُّورتي، فاجتاحني الألم الفظيع. تعالى صراخي.

في تلك اللحظة، حطَّت على جبيني يدٌ. كانت يد إيفيجين. استعدتُ وعيي، واستقمت في جلستي، وأنا ما أزال مرعوبةً ظانَّةً أنَّني أتألَّم.

سألني:

. ما الخطبُ؟ ألا تعلمين أنّي هنا، بقربِك؟

كان الحلمُ من القوَّة بحيث بقيتُ لحظةً طويلةً لا أنطق، مسترجعةً تلك الليلة الرهيبة التي سبقت توقيفي. ثم رجوتُه:

. إيفيجين، أمهلني الوقت للصلاة، لتقديم القرابين واستشارة القوى كلّها...

قاطعني:

. تيتوبا... (وكانت تلك المرَّة الأولى التي يناديني

فيها باسمي، كأنّي لم أكن أمّه، وإنّما طفلةً ساذجةً لا تعقل)... أقدِّر مواهبك كمُداويةٍ. أليس بفضلِكِ ما أزال حيًّا أتنسَّمُ عبير الشمس؟ لكنْ، دعكِ ممَّا تبقَّى. إنَّ المستقبل مِلكُ من يصنعونه؛ وصدِّقيني، إنَّهم لا يتمكَّنون من ذلك بواسطة الترانيم والقرابين. إنَّما يتمكَّنون من ذلك بالأفعال.

لم أجد ما أردّ به عليه.

قرَّرتُ ألَّا أناقشه أكثرَ، وأن أتَّخذ الاحتياطات التي أراها ضروريَّةً. على أنَّ المخاطرة التي تتحضَّرُ كانت من الكِبَر بحيث لا يسعني ألَّا ألتمس النُّصح. انعزلتُ عند ضفَّة نهر أورموند، وناديت مان يايا وأبِنا أُمِّي وياو. ظهروا، وأراحتني تعابير وجوههم البشوشة والسعيدة، فاعتبرتُها إشارةَ خير.

قلتُ لهم:

- تعرفون ما يتحضَّر، فبمَ تنصحونني؟

ياو، الذي كان في موته صموتًا كما في حياته، كان المبادر إلى الكلام:

- يذكِّرني هذا بانتفاضةٍ جرت أيَّام طفولتي. انتفاضة قادها تي - نويل. لم يكن أيَّامئذٍ قد لجأ بعدُ إلى الجبال، وكان ما يزالُ يروي بعرقِهِ مزارع بيل - بلين. كان رجالُه مبثوثين في كلِّ مكانٍ، ينتظرون الإشارة المعلومةَ لكي يحرقوا المساكنَ.

شيءٌ ما في صوته أشار لي بأنَّه يحذِّرني، وقلتُ

بفظاظة:

. وإذن، أيّ نهاية سينتهي كلّ هذا؟

أخذ يلفّ سيجارًا من أوراق التبغ، كأنَّما يحاول كسب الوقت، ثم حدَّق فيَّ وجهًا لوجه:

. سينتهي غارقًا في الدماء، مثلما ينتهي دائمًا! لم يحن بعدُ أوانُ تحرُّرنا.

سألته بصوتٍ أجشّ:

. ومتى سيحين؟ كم سنبذل من الدماء، ولماذا؟

ظلَّت الأرواح الثلاثة صامتةً، كأنَّما سعيتُ مرَّةً أخرى إلى خرق القواعد والإيقاع بهم في المطبّ.

استأنفَ ياو الكلام:

. ينبغي أن تغمر ذاكرتَنا الدماءُ، أن تطفوَ ذكرياتُنا على سطح الدماء كما تطفو الزنابقُ على سطح الماء.

ألححتُ في السؤال:

. بصريح العبارة، كم يلزم من الوقت؟

هزّت مان يايا رأسها:

. ليس لشقاء الزنجيّ نهايةٌ.

كنتُ معتادةً على هذه العبارات القدريَّة، فهززتُ كتفيَّ في قنوط. فِيمَ يُفيد النقاش؟

«يا سيِّد الزمان،

والليل والمياه،

أنتَ يا من تُقلِّبُ الطفلَ في

بطن أمِّه

أنت يا من تجعل زهرةَ قصبِ السكَّر تينَع،

وتملأها بعصيرٍ لزج

يا سيِّد الزمان،

والشمس والنجوم...»

لم يسبق لي قطّ أن صلَّيت بهذا القَدْر من الحماسة. حواليَّ كان الليلُ حالكًا، يرتجفُ من رائحة دم الأضاحي المتراكمة عند قدميَّ.

«يا سيِّدَ الحاضر،

والماضي والمستقبل،

أنت الذي لولاك ما حملت الأرضُ شيئًا

لا ثمار الإيكاكا، ولا السدْر الهنديّ،

ولا ليمون الماء، ولا ثمار البطميَّة،

ولا بازلَّاء أنغولا...»

أفنيت نفسي في الصلوات.

قُبيل منتصف الليل، برز قمرٌ باهتٌ فوق وسادةٍ من غمام.

ـ 15 ـ

هل من الضروريّ أن أنهيَ قصَّتي؟ أولئك الذين تابعوها حتى هذه اللحظة، ألم يحدسوا نهايتها؟

نهايةً يمكن توقُّعها، يمكن توقُّعها بسهولة؟

ثم إنْ أنا حكيتُها، ألن أضطرّ إلى أن أعيش مجدَّدًا آلامي، ألمًا ألمًا؟ هل عليَّ أن أتألَّم مرَّتين؟

لم يترك إيفيجين وأصدقاؤه للصدفة شيئًا. حصلوا، بطريقةٍ أجهلها، على بنادق. هل سطوْا على مخزن ذخيرة، مخزن واستن أو سان جيمس على سبيل المثال؟ إنَّ مخازن الذخيرة كثيرة في جزيرتنا التي كانت تُتَّخذ فيما مضى نقطةَ انطلاقٍ للحملات ضدَّ المستعمرات الإسبانيَّة، وما تزال إلى اليوم تعيش في رعبٍ من الفرنسيِّين. الخلاصة أنِّي شَهِدت أمام المنزلِ تراكمَ بنادقَ وبارودٍ ورصاصٍ قسَّمها إيفيجين وضبَّاطُه قِسماتٍ عادلة. لا علم لي كيف أحصوا المزارع المستغلَّة: ٨٤٤ في المحصِّلة، وعدد الرجال الذين بوسعهم الوثوق فيهم. كنت أسمعهم يُقرنون أسماءً بأرقام:

ـ تي ـ رورو في بوا دوبو: ٣ بنادق و٣ أرطالٍ من البارود.

ـ نيفيس في كاستلريدج: ١٢ بندقيَّة.

ـ بوا سان سواف في بومبكيت: ٧ بنادق و٤ أرطالٍ من البارود.

وسار الرُّسُل في كلِّ اتِّجاه، متستِّرين بالأشجار والنبات العالي. وفي لحظةٍ من اللحظات، رأيت إيفيجين في حالٍ من التعبِ حتى إنِّي رجوتُه:

ـ تعالَ.. ترتاح قليلًا! فيمَ سينفعك أن تموتَ قبل النصر؟

أشار بيده إشارة نفاد صبر، لكنَّه أطاعني وأتى يجلس بقربي. داعبت صوف شعره الذي قسا واحمرَّ من أثر الشمس:

ـ كثيرًا ما حدَّثتُك عن حياتي. غير أنِّي أخفيتُ عنك شيئًا. لقد حملتُ فيما مضى طفلًا آخرَ، لكنِّي اضطررت إلى أن أتخلَّص منه، ويبدو لي أنَّه هو من أستعيده في هيأتك.

هزَّ كتفيه:

ـ أحيانًا، يتساءل المرء من أين تأتين أنتنَّ معشر النساء بأوهامكنَّ.

إذّاك قامَ، وألقى إليَّ بهذه الكلمات:

ـ ألم يخطر ببالِكِ أحيانًا أنَّني كنتُ لأفضِّل ألَّا تعامليني كابنٍ؟

ثم خرج.

أفضِّل ألَّا أخوض في معنى كلماته تلك. ثم هل

أملك رفاهية الخوض فيها؟ لقد بدأ العدُّ التنازليّ: لم تعد تفصلنا عن موعد الهجوم إلَّا ليلة. لم أكن قلقةً بشأن مصيرِ التمرُّد. الحقّ، أنِّي كنت أتجنَّب التفكير فيه. كنت أُغرق ذهني في أحلامٍ ملوَّنة، والأهمّ من ذلك، كنت أفكِّر في طفلتي. كانت قد بدأت تتحرَّك في بطني؛ دبيبٌ لطيفٌ، بطيء، كأنَّما تستكشفُ فضاءها الضيِّق. أتخيَّلها شرغوفًا أعمى أشْعرَ، يطفو، يسبح، يحاول الانقلاب على ظهره فلا يستطيع، لكنْ يحاولُ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ بإصرارٍ وعناد. وقتٌ قليلٌ بعدُ، وسوف نتبادلُ النظرَ، أنا خجلانةً بتجاعيدي وترهُّلاتي تحت بصرها الجديد. ابنتي، ستنتقم لي! ستعرف كيف تستميل حبَّ زنجيٍّ قلبهُ دافئٌ كخبز الذُّرة. وستُرزق أطفالًا تعلِّمهم رؤية الجمال في أنفسهم. أطفالًا ينبتون مستقيمين وأحرارًا مشرئبِّين إلى السماء.

حوالي الساعة الخامسة، أتاني إيفيجين بأرنبٍ سرقه من أحد الأكواخ، وكان يحمله من أذنيْه. أنا، التي لا أجد أيّ غضاضة في قتل حيوانات الأضاحي، أنفر من قتل هذه الحيوانات البريئة التي يَطعَمُها البشَرُ. ما ذبحتُ طيرًا أو أفرغتُ سمكةً من أحشائها، إلَّا وطلبتُ منه الصفح لما أسبِّبه له من ألمٍ. جلستُ بتثاقلٍ، إذ بدأتْ حركاتي تصير خرقاءَ، تحت الظُّلَّة التي أتَّخذُها مطبخًا، وشرعت في تحضير الحيوان. وإذ فتحتُ بطنَه، رشَّ وجهي سيلُ دمٍ أسودَ منتنٍ، وتدحرجتْ أرضًا كُرتان من لحمٍ مغشَّاتان بغلافٍ مخضرٍّ، وقد بدأتا تتحلَّلان. كانت الرائحةُ من القوَّة بحيث تراجعتُ بسرعةٍ إلى الخلف، وانفلتتِ السكِّينُ من يدي

منغرزةً في ساقي اليسرى. أطلقت صيحةً، فترك إيفيجين البندقيَّة التي كان منهمكًا في تشحيمها، وأتى لنجدتي.

نزع السكِّينَ من لحمي، وحاول أن يوقفَ دفقَ الدم الذي كان يسيل بلا توقُّف. كان يبدو أنَّني سأفرَغ عبر هذه الفتحة الدقيقة من دمي الذي أخذ يتشكَّلُ بركةً صغيرةً أعادت إلى ذهني كلام ياو:

ـ ستغمر ذاكرتَنا الدماءُ. ستطفو ذكرياتُنا على سطح الدماء كما تطفو الزنابقُ على سطح الماء.

بعدما حوَّلَ إيفيجين إلى مزقٍ كلَّ ما طالته يده من ملابسَ، تمكَّن من أن يوقف النزيف، وحملني، مقمَّطةً كرضيعةٍ، إلى داخل الكوخ:

ـ لا تتحرَّكي. سوف أهتمّ بكلِّ شيء. هل تظنِّين أنَّني لا أُحسن الطبخ؟

ما لبثتْ ريحُ دمي النفَّاذة أن هيَّجت منخاريَّ، فعبرتْ خاطري ذكرى سوزانا إنديكوت. تلك المرأة السليطة المرعبة! ألم أتركها مقمَّطةً على هذا النحو، شهورًا وسنوات، غارقةً في عصير جسدها، أليست هي من ينتقم منِّي الآنَ إنفاذًا لوعدها؟ الدم بالبول. أيُّنا كانت أخطر؟ أردتُ أن أصلِّي، لكنَّ عقلي رفض مطاوعتي. بقيتُ هناك أحدِّق في حزمة القصب التي تدعمُ السقف، أحدِّق فيها من دون أن أراها.

بُعَيْد ذلك، أتت لزيارتي مان يايا وأبِنا أمِّي، ويناو. كانوا في نورث بُوِن حيث لبُّوا نداء أحدِ السَّحرة، ساعة رأوا ما حدث لي.

ربَّتت مان يايا على كتفيَّ:

ـ ليس بالشيء الذي يُذكر. قريبًا لن تتذكَّريه حتى.

أمَّا أبِنا أمِّي، فما استطاعت أن تمنع نفسها من أن تتنهَّد وتتذمَّر:

ـ إن كانت ثمَّة موهبةٌ لا تملكينها، فهي بلا شكّ موهبة اختيار الرجال. المهمّ، قريبًا تعود الأمور إلى نصابها.

واجهتُها:

ـ ماذا تقصدين؟

لكنَّها راوغت:

ـ هل تنوينَ مراكمةَ اللقطاء؟ انظري إلى شعركِ حول رأسِكِ أبيضَ كَنَسْجِ شجرة القابوق.

أمَّا ياو فاكتفى بأن قبَّلني على جبيبي، وهمس لي:

ـ إلى اللقاء قريبًا! سنكون هنا ما إن يتوجَّب علينا ذلك.

ثم اختفوا.

حوالى الساعة الثامنة، حمل إليَّ إيفيجين طعامًا. ذيل خنزير ورزًّا وبازلّاء سوداء. غيَّر ضمَّاداتي، ولم يُبْدِ أيّ قلق وهو يرى الدَّمَ يفورُ منها مجدَّدًا.

إنَّها الليلةُ الأخيرة قبل ساعةِ التحرُّك، وها يبرزُ الشكُّ والخوفُ والجبن: لِمَ كلّ هذا؟ هل طعم الحياة سيّء إلى هذه الدرجة؟ لِمَ المقامرة بها وبما تمنحه من لذائذ صغيرة على الرَّغم من شَرَهِها؟ آخر ليلةٍ قبل الهجوم الأخير! كنت أرتجف، لم أجرؤ على إخماد شمعتي، وظللتُ أتابع ظلَّ جسمي الهائلَ يتراقص. أتى إيفيجين يتكوَّمُ ملتصقًا بي. ضممتُ جذعَه الناحلَ والصلب في آنٍ، فأحسست قلبه يخفق بشدَّة. همستُ:

. أنت أيضًا خائف؟

لم يِحْر جوابًا، بينما يده تتلمَّس في الظلام. إذّاك، ذاهلةً أدركتُ ما يرمي إليه. لعلَّه الخوف؟ لعلَّها الرغبة في مواساتي؟ أو في مواساة نفسه؟ الرغبة في تذوُّق اللذَّة لآخر مرَّة. لا ريب في أنَّ كلّ تلك المشاعر قد اجتمعت لتشكّل إحساسًا واحدًا، قاهرًا وحارقًا. حين التصق الجسدُ الفتيُّ المولع بجسدي، ندَّت عنّي حركة نفور. خجلتُ من أن أسلِّم شيخوختي إلى مداعباته، وكدتُ أدفعه عنّي بكلِّ قوايَ، إذ فضلًا عن كلّ ما سبق، كان يغمرني إحساسٌ عبثيٌّ بأنَّني أقترف سفاح المحارم. ثم ما لبثَتْ رغبتُه أن صارت معدية.

أحسست بموجةٍ تتجمّع وتتشكّل في موضعٍ ما منّي، فتشتدُّ وتحتدُّ، ثم تتكسّر فتغمره، تغمرني، تغمرنا؛ وبعدما دُرنا مرّاتٍ حول أنفسنا، حتى انقطعت أنفاسنا وصرنا نلهث ونتضرَّع، خائفيْن مهزوميْن، ألقت بنا الموجة على شاطئ خليجٍ هادئٍ يغطّيه قصبُ ـ اللوز. غمرنا بعضَنا بعضًا بالقبل، ووشوشَني:

ـ لو تعلمين كم تألّمت وأنا أراك تحملين هذا الطفل الذي ليس منّي، هذا الطفل الذي زرعه فيك رجلٌ أحتقره. هل تعرفين من هو كريستوفر وأيّ دورٍ يلعب؟ لكنّنا لن نضيّع الوقت في الحديث عنه بينما الموتُ منخرطٌ ربّما في شحذِ سكاكينه.

ـ هل تظنُّ أنّنا سننتصر؟

هزّ كتفيْه:

ـ لا يهمّ! المهمّ أن نكون قد حاولنا، أن نكون قد رفضنا القَدَر وسوء الحظّ.

تنهَّدتُ، فضمَّني إليه.

بورك الحبُّ الذي يهب الإنسانَ النسيانَ. الحبّ الذي ينسيه وضعه كعبدٍ. الحبّ الذي يُبعد عنه القلق والخوف. مطمئنّيْن غصنا، أنا وإيفيجين، في ماء النوم الرحيم. سبحنا ضدَّ التيّار، متفرِّجَيْن على أسماك ـ الإبر تلاحق الريبان. نشَّفنا شعرنا في ضوء القمر. غير أنّ النوم كان قصيرًا. وأعترف أنّي

حين تبدَّدتِ النشوة، أحسستُ بشيءٍ من الخِزي. ماذا؟ إنَّ هذا الفتى كان يمكن أن يكون ابني! هل فقدتُ احترامي لنفسي تمامًا؟ ثم لِمَ كلّ هذا الموكبُ من الرجال الذين تلاحقوا على سريري؟ لقد صدقت هيستر القول:

ـ تحبِّين ممارسةَ الحبّ كثيرًا يا تيتوبا!

وتساءلت عمَّا إذا كان هذا صدْعًا في كياني، عيْبًا فيّ، ينبغي أن أحاول الشفاء منه.

في الخارج، كان حصانُ الليل يخبُّ. بلا ـ كا ـ تا. بلاكا ـ تا. ولصق جسدي طفلي ـ العاشقُ ينام. ولم أستطع أن أفعل مثله. استعادت ذاكرتي أحداث حياتي كلّها، محمَّلةً بكثافةٍ مميَّزة، وتزاحمت حول سريري وجوهُ كلّ أولئك الذين أحببتهم أو كرهتهم. أوه، إنِّي أتعرَّفهم جميعًا! لا وجهَ إلَّا وأستطيع أن أمنحه اسمًا. بِتسي. أبيغايل. آن بوتنام. السيِّدة باريس. صامويل باريس. جون الهنديّ. في اللحظة التي أعطى فيها جسدي برهانَ خفَّته، ها قلبي يتذكَّرُ أنَّه لم يكن ملكًا إلَّا لهذا الرجل. ما كان مصيره في تلك البلاد الباردة والمؤذية المسمَّاة أميركا؟ كنتُ أعلم أنَّ عدد الزنوج الذين ينزلون على سواحلها ما انفكّ يزداد كثرةً، وأنَّها تتأهَّب لأن تسيطر على العالم بفضل عرق أبناء جلدتنا. كنت أعلمُ أنَّ الهنودَ قد مُحوا من خارطتها، وصاروا حفنةً من التائهين على أراضٍ كانت فيما مضى ملكهم.

ما الذي يفعله جون الهنديّ في تلك البلاد الشديدة القسوة على بني جلدتنا؟ الشديدة القسوة على الضعفاء؟ على الحالمين؟ على من لا يقيسون قيمة الإنسان بما يملكه؟

حصان الليل يخبّ. بلا ـ كا ـ تا. بلا ـ كا ـ تا. وكلّ الوجوه تدور حولي بذلك الصفاء الذي لا يُميِّز غير مخلوقات الليل.

أهيَ سوزانا إنديكوت تنتقم منِّي، وقواها أقوى من قواي؟

الرِّيحُ تشتدُّ في الخارج. أسمعها تُسقط وابلًا من ثمار المانغا. أسمعها تحوم حول شجرة الكاليباسييه فتجعل ثمارها تتصادم. أحسستُ بالفزع. أحسستُ بالبرد. كنت أرغب في أن أعود إلى رَحِم أمِّي. لكنْ في تلك اللحظة بالضبط، تحرَّكت بنتي كأنَّما تذكِّرني بعاطفتي. وضعت يدي على بطني، وشيئًا فشيئًا، اجتاحني ضربٌ من الهدوء. ضربٌ من الصفاء، كأنَّما سلَّمتُ بآخرِ فصولِ مأساتي، الفصل الذي سوف أعيشه بعد قليل.

بحواسِّي التي شُحذت، كنت أسمع الريحَ تهدأ. طائرٌ داجنٌ أجفله نِمسٌ تسلَّل إلى خُمِّه. ثم أخيرًا، طبَّق الصمت. وانتهى بي المطاف إلى النوم.

ما كدت أغمض عينيَّ حتى رأيتُ حلمًا.

أردتُ أن أدخل غابةً، لكنَّ الأشجار كانت تتكاثف

أمامي، والحبال الساقطة من ذُراها كانت تشدُّني. فتحت عينيَّ. كانت الغرفة سوداءَ مدخَّنة. كدتُ أصرخ:

ـ لكنَّني سبق أن عشتُ هذا!

ثم فهمتُ ما يجري، فهززتُ إيفيجين الذي كان ينام كطفلٍ، وعلى شفتيْه ابتسامة مشعَّة. فتح عينيْن ضبَّبتهُما ذكرى اللذَّة. غير أنَّه سرعان ما أدرك ما يجري، وقفز واقفًا. فعلتُ مثل فعله، وإن أبطأني جرحي والدمُ الذي لم يكفّ عن النزف.

خرجنا. كان الكوخ محاطًا بالجنود الذين يصوِّبون بنادقهم نحونا. من الذي غدر بنا؟

قرَّر المزارعون أن يُعطوا بنا المثَل، لأنَّ هذا ثاني تمرُّدٍ يحدث خلال ثلاث سنوات. ضمِنوا مساعدة الفيالق الإنجليزيَّة التي أتت تدافع عن الجزيرة من هجوم الجيران، ولم يُترك شيءٌ للصدفة. فُتِّشت المزارعُ، مزرعةً مزرعةً، وجُمع العبيدُ المريبون تحت أشجارٍ بمبقاويَّة. ثم دُفع الجميع، وفوَّهات البنادق في مؤخِّراتهم، حتى فرجةٍ نُصبت فيها مشانقُ عديدة.

مُحاطًا بأقرانه، وعلى عيْنه عصابةٌ، عَبَر إيرين ساحة الإعدامات. توجَّه صوبي وقال ساخرًا:

ـ حسنًا أيَّتها الساحرة! إنَّ ما كان عليكِ أن تعيشيه بسالم، ستعيشينَه هنا! وستلحقين بأخواتِكِ

اللواتي سبقنكِ. قدّاس سبتٍ مباركٌ هناك!

لم أجِب. كنت أنظر إلى إيفيجين. بما أنَّه كان قائد التمرُّد، فقد ضُرب حتى ما عاد يقوى على الوقوف، ولا بدَّ من أنَّه كان ليتهاوى لولا أنَّ أحد المشرفين كان يقوِّمه كلَّ مرَّةٍ بضربةٍ من سوطه. كان وجهه متورِّمًا أشدّ التورُّم حتى إنَّه قطعًا لم يكن يرى الشيءَ الكثير، وكان يلتمس الشمسَ مثل أعمًى يشتهي حرارتَها أكثر ممَّا يشتهي ضوءها.

صحتُ به:

. لا تخف! أهمّ شيءٍ، لا تخف. قريبًا سوف نلتقي.

استدار صوب المكان الذي صدر منه صوتي، وإذ لم يكن يستطيع الكلام، فقد أشار لي إشارةً.

كان جسده أوَّلَ جسدٍ يترنَّح في الفراغ، معلَّقًا في عمودٍ متين. وكنتُ آخرَ من اقتيد إلى حبل المشنقة، إذ كنت أستحقّ معاملةً خاصَّة. العقابُ الذي «أفلتُّ» منه في سالمٍ، كان ينبغي أن أخضع له الآن. رجلٌ يرتدي زيًّا مهيبًا بين حمرةٍ وسوادٍ، تلا على الحضور كلّ جرائمي قديمَها وحديثَها. لقد سحرتُ سكَّان قرية مسالمةٍ تقيَّة. جلبتُ الشيطان إلى حضنهم، ألَّبتُ بعضهم على بعض. أحرقتُ منزل تاجر شريفٍ لم يصدِّق جرائمي وأدَّى ثمن سذاجته حياةَ أطفاله. عند هذه النقطة من لائحة الاتِّهام، أردت أن أصرخ، أن أقول إنَّها

أكاذيب، أكاذيب وحشيَّة وخسيسة. ثم أحجمت. ما الفائدة؟ قريبًا، سأبلغ المملكة التي تسطع فيها شمسُ الحقيقة خالصةً. جلوسًا بسيقانٍ منفرجةٍ، كانت مان يايا وأبِنا أمِّي وياو، ينتظرونني ليأخذوا بيدي.

كنت آخِرَ من اقتيد إلى المشنقة. حولي أشجارٌ غريبة، تتدلَّى منها ثمارٌ غريبة.

خاتمة

هي ذي قصَّة حياتي. مريرة. شديدة المرارة.

أمَّا قصَّتي الفعليَّة، فبدايتها حيث انتهت القصَّة السابقة، ولن تكون لها نهاية. لقد أخطأ كريستوفر التقدير، أو تقصَّدَ قطعًا جَرْحي: أغنية تيتوبا حقيقةٌ! إنِّي أسمعها من أقصى الجزيرة إلى أقصاها، من نورث بُوِن إلى سيل؟ر ساند، ومن بريدجتاون إلى بوتوم باي. تجوبُ قممَ الجبال. ذاك اليوم، سمعتُ صبيًّا في الرابعة أو الخامسة من عمره يدندنها. ومن فرحتي، أسقطتُ ثلاث ثمرات مانغا ناضجة، فظلَّ هناك يحدِّق في الشجرة التي جادت عليه بعطيَّةٍ مماثلةٍ في غير موسمها. وأمس، كانت تهمس بها امرأةٌ تنظِّفُ أسمالها عند صخور النهر. عرفانًا لها، التففتُ حول عنقها، فاستعادت نضارةً كانت قد نسيْتها، ثم اكتشفْتها الآن وهي تنظر إلى نفسها في الماء.

في كلِّ لحظةٍ أسمعها.

حين أهرع إلى رأسِ مَرقَدِ مُحتضرٍ. وحين أحمل بين يديّ روح الفقيد الفَزِعة. وحين أمكِّن البشر من أن يروا خَطفًا صور من ظنُّوا أنَّهم فقدوهم.

إذ، ميِّتةً كما حيَّةً، ومرئيَّةً كما لامرئيَّةً، ظللتُ أُعالج وأُشفي. لكنْ ما جعلتُه مهمَّتي الرئيسة هو شيءٌ آخرُ، شيءٌ ساعدني فيه إيفيجين، ابني - العاشق، رفيقي في الأبديَّة: تقوية قلوب الناس. تغذية أحلامِ الحرِّيَّة. أحلام النصر. ما من ثورةٍ، ما

من تمرُّد، ما من عصيانٍ، إلَّا وكنتُ خلفها.

منذ ليلة التمرّد المُجهَض سنة **١٧، لا يمرّ شهر من دون أن تندلع نار الحرائق، أو يُصيب تسميمٌ هذه المزرعة أو تلك. عبَر إيرين البحرَ عائدًا من حيث أتى، بعدما سلَّطتُ عليه أرواح ضحاياه ليلةً بعد ليلة، ترقص رقصة الغوو ـ كا حول سريره. رافقتُه حتى الباخرة المسمَّاة إيمان، ورأيتُه يعبّ الخمرَ صِرفًا، كأسًا بعد كأس، ساعيًا بلا جدوى إلى الحصول على نومٍ خالٍ من الأحلام.

كذلك كريستوفر يتقلَّب في سريره ويتقلَّب، وما عاد يرغب في نسائه. كففتُ الآن عن إزعاجه، أليس في نهاية المطاف والدَ ابنتي التي لم تولد، ابنتي التي ماتت من دون أن تبصرَ النور؟

لم أعبر البحرَ كي أضطهد صامويل باريس، والقضاة والكهنة. أعلم أنَّ آخرين سيتكفَّلون بالأمر. أعلم أنَّ ابن صامويل باريس، مبعث فخره، سيموت مجنونًا. وأنَّ كوتن مادر سيُلطَّخ شرفُه ويُتَّهم من طرف مومس. وأنَّ كلّ القضاة سينالون جزاءهم. وكما قالت ريبيكا نورس، سيأتي زمنُ حكمٍ آخر. ولا بأس إن لم يشملني هذا الحكم!

أنا لا أنتمي إلى حضارة الكتاب والكراهية. في قلوبهم، يحفظ أبناءُ شعبي ذكرايَ، فلا حاجة بهم إلى الكتابة. يحفظونها في أذهانهم. في أذهانهم وقلوبهم. وبما أنّني قد متُّ من غير

أن أخلِّف ذرِّيَّةً، فقد أجاز لي اللامرئيُّون اتِّخاذ سليلة. بحثت طويلًا. تجسَّست على الأكواخ. تابعت الغاسلات يرضعن أطفالهنَّ. و«عاملات القصب» يضعن على أسمالٍ رضَّعهُنَّ الذين يُجبَرن على أخذهم معهنَّ إلى الحقول. قارنتُ، قستُ، اختبرتُ، ثم أخيرًا وجدْتها: سامانتا.

كنت قد شهدتُ ولادتها.

اعتدتُ أن أعالج أمَّها، ديليس، وهي زنجيَّة كريوليَّة تُقيم في بوتوم باي بمزارع ويلوبي. وبما أنَّها سبق أن فقدتْ طفليْن أو ثلاثة ساعةَ ولادتهم، فقد طلبتني على وجه السرعة. لكي يبدِّد قلقَه، كان رفيقُها، يشربُ كؤوسًا «صرفًا» في ال؟رندة. استمرَّ المخاض ساعاتٍ. الطفل يطلّ من الحاجز. الأمّ تفقد الكثير من دمائها وقواها، ونفسُها المسكينة لا تطلب غير المرور إلى عالم الغيب. بينما الجنين يصارع بضراوةٍ، يريد اقتحامَ العالمَ الذي لا يفصله عنه إلَّا حاجزٌ من لحمٍ رقيق. وانتهى به المطاف إلى أن انتصرَ، فتسلَّمت يداي طفلةً صغيرةً بعينيْن فضوليَّتيْن وفمٍ حازم. تابعتُها تكبرُ، تستكشفُ، مترنِّحةً على ساقيْها الهشَّتيْن، جحيمَ المزرعة المغلق، فتجد على الرَّغم من كلِّ شيءٍ سعادتها في هيئةِ غمامة، في الشعر المسدلِ لثمرةِ يالانغ، وفي الأريج الباردِ للنارنج. وما إن تمكَّنتْ من النطق حتى أخذت تسأل:

ـ لماذا زامبا غبيٌّ إلى هذا الحدّ؟ ولماذا يترك الأرنبَ يستلقي على ظهره؟

ـ لماذا نحن عبيدٌ وهم سادة؟

ـ لماذا ليس هناك غير إلهٍ واحد؟ ألا يجدر أن يكون للعبيد إلهٌ؟ وللسادة إله؟

وبما أنَّ أجوبة البالغين لم تكن تُرضيها، فقد صنعت أجوبةً خاصَّةً بها. في المرَّة الأولى التي تجلَّيت فيها لها، وكانت قد عرفتْ بموتي الذي ذاع خبره في الجزيرة، لم تُبدِ أيّ دهشةٍ، وكأنَّما كانت تعرف أنَّها منذورةٌ لمصيرٍ مميَّز. الآن، صارت تتبع ملَّتي. أعلِّمها الأسرارَ المسموحَ لي بأن أكشفها، قوى النباتاتِ الكامنةَ ولُغة الحيوان. أعلِّمها كيف تكشف هيئةَ العالم الخفيَّة، وشبكةَ العلاقات التي تعبره، والإشارات ـ العلامات. ما إن ينام أبوها وأمّها حتى تلحق بي في الليل الذي علَّمتها حبَّه.

طفلةٌ لم أُنجبها لكنِّني اخترتُها! هل من أمومةٍ أسمى من هذه!

إيفيجين، طفليَ ـ العاشقُ، لم يستسلم. تلك الانتفاضة التي لم يستطع إكمالها في حياته، يجاهدُ في سبيل تحقيقها عن بُعد. اختارَ ابنًا. طفلًا زنجيًّا من الكونغو مفتول الساقيْن، يضعه المشرفون نصبَ أعيْنهم. ألم يغنِّ ذاك اليوم أغنية تيتوبا؟

لست وحدي أبدًا. مان يايا. أبِنا أمِّي. ياو. إفيجين. سامانتا.

ثم، هناك جزيرتي. أتماهى معها. ما من دربٍ بها إلَّا قطعتُه. ما من جدولٍ إلَّا وسبحتُ فيه. ما من شجرة مابو إلَّا وتأرجحتُ على أغصانها! هذا التكافل العضويّ بيني وبين جزيرتي، يعوِّضني عن عزلتي الطويلة في قفار أميركا. تلك الأرض الشاسعة القاسية، حيث لا تلد النفوسُ إلَّا شرًّا! قريبًا سينتقلون إلى تغطية رؤوسهم بأقنعةٍ كي يعذِّبونا أكثرَ. وسيغلقون على أبنائنا أبوابَ الغيتوهات الثقيلة. سيحرموننا كلّ الحقوق، وسيُجيب الدمُ الدمَ.

ليست في نفسي إلَّا حسرةٌ واحدةٌ، ذاك أنّنا حتى نحن معشر اللامرئيِّين لدينا حسراتُنا، ممَّا يُضفي على حياتنا نكهةً إضافيَّةً. وحسرتي أنا هي فراقي عن هيستر. بالطبع، نحن نتواصل. أتنفَّس أريج أنفاسها، أريجَ اللوزِ الجافّ. أستشعر صدى ضحكها. لكنْ كلٌّ منَّا تظلُّ عند جانبٍ من المحيط لا تتخطّاه. أعلم أنّها تواصل حلمها: خلقَ عالمٍ نسائيٍّ، عالمٍ يكون أعدلَ وأكثرَ إنسانيَّةً. أمَّا أنا، فلقد أحببت الرجال كثيرًا، وما زلت أحبّهم. أحيانًا، تجرفني الرَّغبة حدّ التسلُّلِ إلى فراشٍ إشباعًا لرغبةٍ، فيتعجَّب عشيقي العابرُ متلذِّذًا شهوته المنفردة.

أجل، أنا الآن سعيدة. أفهمُ الماضي. أقرأُ الحاضر. وأعرفُ المستقبل. الآن، صرت أعلم لماذا توجد كلّ هذه الآلام، لمَ عيون زنوجنا وزنجيَّاتنا تتلألأ ماءً وملحًا. لكنَّني أعرف أيضًا أنَّ لكلِّ هذا نهاية.

متى؟ فيمَ يهمّ؟ ما عدتُ مستعجلةً، وقد تحرَّرت من نفاد الصبر الذي هو خاصَّةُ البشر. ماذا تساوي حياةٌ قياسًا إلى شساعة الزمان؟

الأسبوع الماضي، انتحرت شابَّةٌ بوساليَّة، شابَّةٌ من الأشانتي مثلَ أبِنا أمِّي. كان القشُّ قد عمَّدها باسم لايتيتيا، فكانت تنتفض كلَّما نوديتْ بهذا الاسم غير اللائق والهمجيّ. ثلاث مرَّاتٍ حاولت الانتحار ببلع لسانها. ثلاث مرَّاتٍ أعادوها إلى الحياة. كنت أرافقها خطوةً خطوةً، وأوحي إليها بأحلام. وأسفاه.. كانت الأحلامُ تتركها صباحًا في حالٍ من اليأسِ أشدَّ. استغلَّت غفلتي كي تنتزع حفنةً من أوراق الكاسا؟ا، مضغتْها مع جذورٍ سامَّة. وحين عثر عليها العبيد، كانت شفتاها مزبدتيْن، وقد بدأتا تفرزان رائحةً فظيعة. هي حالةٌ معزولةٌ، وكثيرةٌ الأحايينُ التي تمكَّنتُ فيها من أن أنقذ عبدًا على حافَّة اليأس، هامسةً إليه:

- تأمَّل أرضنا، ما أروعها! قريبًا ستكون ملكًا لنا. حقول القرَّاص وقصب السكَّر. تلال اليام وحقول الكاسا؟ا. كلّها!

أحيانًا، ويا للعجب، يأخذني هوى استعادةِ هيئةٍ فانية. وإذّاك أتحوَّل. أصير «أنوليَّة» (35)، وأُشهر سكاكيني حين يقترب منِّي الأطفال مسلَّحين بأناشيط من قشٍّ. وأحيانًا، أتّخذ هيئةَ ديكٍ مبارزة، وأنتشي بالصِّياح وأنا في حَلَبة المبارزة انتشاءً أقوى من لو أنّني شربتُ الرُّم. آه! لشدّما أحبّ حماسَةُ العبد الذي أُمكِّنه من الفوز! وينطلق

بخطًى راقصة، ملوِّحًا بقبضته في حركةٍ سرعان ما ستصير علامةً لانتصاراتٍ أخرى. وأحيانًا، أتَّخذ هيئةَ طائرٍ، وأتحدَّى حبالَ الأشقياء الذين يصيحون:

ـ أصبناه!

أطيرُ في حفيف، ضاحكةً من وجوههم المهزومة. وأخيرًا، أتَّخذ هيئةَ معزة، وأثب حول ساماننا التي لا تنخدع. ذاك أنَّ هذه الطفلة، طفلتي، قد تعلَّمت أن تتعرَّف حضوري في ارتجاف جلدة حيوانٍ، واختلاج النار بين أربع أثافي، في تدفُّق النهر القزحيّ، وفي هبَّة الريح التي تمسح رؤوسَ أشجارِ التلالِ الكبيرةَ.

إشارة تاريخيَّة

بدأت محاكمة ساحرات سالم في مارس ١٦٩٢ بتوقيف سارة غود، وسارة أوسبورن، وتيتوبا التي اعترفت بـ «جُرمها». توفّيت سارة أوسبورن في السجن في مايو ١٦٩٢.

تسعة عشر شخصًا شُنقوا، وحُكم على رجلٍ، جيل كوري، بالحكم الأقسى (أن يُعصر حتى الموت).

يوم ٢١ فبراير ١٦٩٣، أرسل السِّير وليام فيبس، الحاكم الملكيّ لباي كولوني، تقريرًا إلى لندن بخصوص قضيَّة السحر. عرض في التقرير مصيرَ نحو خمسين امرأة قابعةً في السجن، وطلب الإذن بأن يضع حدًّا لعذاباتهنَّ. وهو ما حدث في مايو من سنة ١٦٩٣ حين تمتَّع ما تبقَّى من ساحراتٍ بعفوٍ عامّ، وأطلق سراحهنَّ.

ترك الراهبُ صامويل باريس قرية سالم سنة ١٦٩٧ بعد شجارٍ طويلٍ مع السكَّان على مستحقَّاته المتأخِّرة، وحطب التدفئة الذي لم يحظَ به. وكانت زوجته قد فارقت الحياة قبل ذلك بعامٍ بينما تضع طفلًا، نويس.

نحو سنة ١٦٩٣، بيعت بطلةُ قصَّتنا، تيتوبا، بسعر «إقامتها» في السِّجن وقيودِها وحديدِها. إلى من بيعت؟ بعنصريَّةٍ واعية أو غير واعية، لم يهتمّ أيّ من المؤرِّخين بذلك! بحسب آن بيتري، وهي روائيَّة أميركيَّة سمراء مهتمَّة أيضًا بشخصيَّة تيتوبا، بيعت المرأةُ إلى نَسَّاجٍ، وقضت ما تبقَّى

من أيّامها ببوسطن.

غير أنَّ حكاياتٍ مبهمةً تؤكِّد أنَّها بيعت إلى تاجرِ رقيقٍ أعادها إلى برِبادوس.

أمَّا أنا، فمنحتُها نهايةً اخترتها بنفسي.

تجدر الإشارة إلى أنَّ قرية سالم صارت تُسمَّى اليومَ دانفرز، وأنَّ مدينة سالم التي جرت فيها أغلب فصول المحاكمة، وليس الهستيريا الجماعيَّة، هي التي تشتهر بذكرى السِّحر.

م. ك.

---

(1) المقطع بالإنجليزيّ في الأصل، ولم نعثر لصاحبه على أثرٍ، واقترح المترجمُ والشاعر المصريّ أحمد شافعي مشكورًا ترجمته إلى:

بابٌ هو الموتُ

نجتازُه إلى السعادة

وبحيرةٌ هي الحياة

تُغرق الجميعَ في الألمِ

(2) مرحبا! (المؤلّفة).

(3) احترامًا لخيار المؤلّفة، احتفظنا بأسماء الأشجار والنبات في نطقها الإفريقيّ الأصل، إلّا ما كان منها

شائعًا ومعروفًا.

(4) القَطلَس، سيفٌ قصيرٌ ثقيل يُستخدم في قطع النباتات.

(5) فصيلة القرع التي تجوَّف وتجفَّف، وتُصنع منها قِرَبُ ماءٍ في المناطق الاستوائيَّة.

(6) نستعمل على امتداد النصّ كلمة «عبدة» مؤنَّثًا لعبد، بدلًا من كلمة «أَمَة» الأصحّ، انسجامًا مع السياق الدلاليّ العامّ للنصّ.

(7) الشّابين والشابينة اسمٌ يُطلق على مَنْ كانت بشرته فاتحة وملامحه أفريقيَّة.

(8) نسبةً إلى مدينة مادراس (الهند)، المعروفة أيضًا بتشيناي، ومنها يأتي المنديل الملوَّن الذي تحزمه النساء الأنتيليَّات على رؤوسهنَّ.

(9) العبد الآبق، العبد الهارب من سيِّده.

(10) سروال قصيرٌ وضيِّقٌ كان يرتديه العبيد. (المؤلِّفة)

(11) قِدْرٌ من طين. (المؤلِّفة).

(12) عبارة افتتاحيَّة في الأحجيات الكريوليَّة، ينطق بها الحكواتي، فيُجيبه الحضور: ـ كلا الحضور لم يناموا!

(13) من مناطق بوركينافاسو.

(14) قصص المتعاقدين في الثقافة الأنتيليَّة هي

قصص أناسٍ تعاقدوا مع الشيطان، فصاروا متحوِّلين، أي متَّخذين مظهر حيواناتٍ متوحِّشة.

(15) من الشخصيّات الأساسيَّة في الأساطير الأنتيليَّة، عبارة عن سَحَرةٍ يتحوّلون إلى كائناتٍ شريرة بغية الانتقام، ويتميّزون أساسًا بقدرتهم على طيّ المسافات.

(16) المقصود الخمر الذي كان ينشرها الأميركيُّون بين السكَّان الهنود.

(17) المقصود حمَّامٌ يُبطل السحر.

(18) الحرف الأوَّل من كلمة (**Bulgary**) سرقة بالإنجليزيّ.

(19) يتَّضح من اسم المرأة وحكايتها التي تأتي في الصفحات اللاحقة، أنَّ المؤلّفة تتناصّ مع رواية «الحرف القرمزيّ» لناثانيال هاورثون (١٨٥٠)، التي تدور أحداثها وأجواؤها حول حكاية هذه المرأة.

(20) نسبة إلى زوجها جون الهنديّ.

(21) أخذت هذه المقتطفات من شهادة تيتوبا. وثائق محاكمتها الأصليَّة موجودة في أرشيف مقاطعة إسكس. ونسخة منها توجد في إسكس كونتري هاوس بسالم، ماساتشوسيتس.

(22) شهادة جون الهنديّ ـ أرشيف مقاطعة إسكس. (المؤلّفة).

(23) السكّونة مركبٌ بشراعيْن وصارٍ، والبريغانتين مركبٌ شراعيٌّ بصاريتيْن أو أكثر.

(24) الجزّار الذي يُمارس الشحيطة، وهي الذبح وفق قوانين الشريعة اليهوديَّة.

(25) تحمل كلمة maîtresse الفرنسيَّة معنَيي: العشيقة والسيّدة، فتبدو المفارقة في الأصل أوضح (وضعيّة العشيقة / الخادمة؛ السيِّدة / العبدة).

(26) في حكاية الأرنب والسلحفاة كتب جون دو لا فونتين: «دع السلحفاة تمشي مشية عضو مجلس الشيوخ» أي تمشي ببطء وأبّهة ورصانة، كمشية أعضاء مجلس الشيوخ بروما.

(27) من سفر التثنية (اسمع يا إسرائيل: الربُّ إلهنا ربٌّ واحدٌ).

(28) أو الميزوزا، تميمة في رقاع جلدٍ تُكتب فيها الشعائر اليهوديّة وتُعلَّق في صندوقٍ عند مدخل البيت.

(29) إحدى الشخصيّات الرئيسيَّة في الحكايات الكريوليَّة.

(30) خمرٌ يُستقطرُ من بعض الفواكه، خاصَّة البرقوق والتِّين المجفَّف.

(31) التمييز عامٌّ بين الزنجيّ البوساليّ والكريوليّ، فالبوساليّ هو الذي وُلد في إفريقيا ونُقل منها إلى المستعمرات، بينما الكريوليّ هو الذي وُلد في المستعمرات.

(32) فوج مشاةٍ أسَّسه الفرنسيُّون أيَّام ثورة الجزر.

(33) كلمة كريوليَّة من جزر غوادالوب، تعني الخبير

والحكيم.

(34) كلمة يشير بها اليهود إلى غيرهم من الأقوام.

(35) سحلية صغيرة.